جنان جاسم حلاوي

شوارع العالم

رواية

جنان جاسم حلاوي

شوارع العالم

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Janan Jassem Halawi

The World's Streets

Novel

First Published in January 2013
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 533 - 4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٣

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

الفصل الأول : **في مواجهة المجهول** ٩

الفصل الثـانـي: **بعيداً في ذلك البيت** ٢١

الفصل الثـالث: **بين الكتب والناس** ٣١

الفصل الرابـع: **هواجس الليل** ٤٧

الفصل الخامس: **تسكّع** ٥٥

الفصل السادس: **سماء بلا طيور** ٦٥

الفصل السـابع: **اذهب إلى القصر!** ٧٧

الفصل الثـامن: **الطريق الصاعد إلى بغداد** ٩١

الفصل التـاسع: **دم وجزع** ١٠١

الفصل العاشـر: **لقد أصبح كبيراً** ١١١

الفصل الحادي عشر: **ركضٌ في الظلام** ١١٩

الفصل الثـاني عشر: **وجها الحياة والموت** ١٢٩

الفصل الثالث عشر: **كريستينا تفتح قلبها** ١٣٧
الفصل الرابع عشر: **المشي يساعدك على النسيان** ١٤٩
الفصل الخامس عشر: **حرائق** ١٥٧
الفصل السادس عشر: **مدينة السليمانيّة** ١٧٣
الفصل السابع عشر: **أقبلت وشعرها الأشقر يشعّ** ١٩١
الفصل الثامن عشر: **الطفلة الألمانيّة** ١٩٧
الفصل التاسع عشر: **شوارع مشمسة ورفاق** ٢٠٥
الفصل العشرون: **خبز** ٢١٧
الفصل الواحد والعشرون: **من يصدّق حكايتي؟** ٢٣١
الفصل الثاني والعشرون: **دمشق** ٢٤١
الفصل الثالث والعشرون: **عاصفة القصف** ٢٤٧
الفصل الرابع والعشرون: **دهاليز** ٢٥٣
الفصل الخامس والعشرون: **قلب موسوس ونفس مضطربة** ٢٦١
الفصل السادس والعشرون: **الليل يجري في هزيعه الأخير** ٢٦٩
الفصل السابع والعشرون: **زينب تتردّد في تسلّق الشاحنة** ٢٧٥
الفصل الثامن والعشرون: **العودة إلى الديار** ٢٨٣
الفصل التاسع والعشرون: **الليل يتنفّس كمخلوقٍ خرافيّ** ٢٨٧
الفصل الثلاثون: **الحامية الحدوديّة** ٢٩٩
الفصل الواحد والثلاثون: **خاتمة** ٣١١

الفصل الأول

في مواجهة المجهول

فزّ سالم من نومه، أزاح اللحاف جانباً هلعاً من نوبة اختناق اعترت صدره. قعد في فراشه. شعره مبلّل بعرقه. جسده ساخن، ورغبة ملحّة تراوده في التجرّد من ملابسه. الغرفة مظلمة، الستائر مُسدلة، لا اتجاه ولا منفذ، إنّما هوّة والعتمة تلفّه، تحاصره وتضيّق الخناق عليه.

وهو في الحقيقة يشعر بالعجز، يفقد إحساسه بالزمان والمكان إذما يفقد قدرته على التنفّس، فجسده في حاجة إلى هواء، إلى مزيدٍ من الهواء.

رفع يده اليمنى عالياً كما لو أنه يطلب نجدةً من شخصٍ ما.

لكنْ لا أحد قربه، لا أحد سواه يختنق في الظلام.

اندفع غريـزيّاً لإشعال الضوء. فتح باب الغرفة. شرب جرعة ماء من كأس على الطاولة، اعتاد ملأها قبل أن ينام، ثمّ عاد فجلس

في الفراش كي يهدأ صدره وينتظم تنفّسه شيئاً فشيئاً.

وسالم جرّب هذه النوبة سابقاً، إلّا أنّ الطبيب بقي محتاراً في أمره، ولم يكن في مقدوره تشخيص علّته، إذ لا أعراض لسلٍّ أو ربوٍ أو أي مرضٍ صدريٍّ آخر، كما أكّدت التحاليل وصور الأشعّة، لعلّها حسّاسيّة عابرة، سببها طارئ نفسيّ، الكآبة مثلاً.

أعطاه أقراص (أستيلسيستين) لتيسير تنفّسه لكنّها لم تفده في شيء.

شقّ الستارة. الليل يهيمن على العالم. المنطقة مقفرة. غيوم الخريف تحتشد في السماء بكتلها الكثيفة، فتحجب النجوم والشهب ونور المجرّات، فلا يبين إلّا ضوء قمري يتسلّل من بين طيّاتها الحالكة في هالةٍ شاحبةٍ ومصفرّة. مصابيح الشارع تلقي بأنوارها على الإسفلت المبلّل، فتلمع بقع ماء هنا وهناك، فلقد أمطرت توّاً.

الشقق المطلّة على الجادّة ساكنة، شرفاتها خالية وشبابيكها مطفأة.

إنّه اليقظ الوحيد إذاً، والناس مازالوا نياماً، من يدري؟ قد يكون بعضهم متأرّقاً في فراشه أيضاً من همٍّ أو اضطراب.

تناهى إلى مسمعه صوت سيّارة إسعاف، ما لبث أن تلاشى وحلّ الصمت من جديد، غير أنّه لم يستمرّ طويلاً، فلقد أقلقته طقطقة عربة موزّع الجرائد التي يجرّها وراءه، قبل أن يتوقّف عند إحدى البنايات. المشهد برمّته موحش وكئيب.

أوى سالم إلى فراشه عندما عاد تنفّسه إلى طبيعته. تغطّى باللحاف، ملمسه ناعم، يحبّه، إلّا أنّه لم ينم.

ففي أخدود ما في ثنايا دماغه خليّة تنبض بقوّةٍ وإلحاح، وتتوهّج بالقلق والأرق.

فهو مُذ ترك موسكو ولجأ إلى السويد لم يستقر نفسيّاً وذهنيّاً، فالسويديّون رفضوا منحه إذناً في الإقامة الدائمة دونما توضيح.

لعلّ إدلاءه بمعلومات كاذبة عن شخصه ووضعه في الاتحاد السوفياتي دفعهم إلى الشكّ في أمره. فما الذي يمنع من أن تحوم من حوله الشبهات باعتباره جاسوساً للمخابرات السوفياتيّة؟

ألذلك مُنِحَ لجوءاً مؤقّتاً لمدّة ستة أشهر؟

وإذا أُبعِدَ بعده إلى بلده العراق، فماذا سيكون مصيره؟

سيواجه ولاشك حبل المشنقة لانتمائه إلى الحزب الشيوعيّ العراقيّ: الحزب الذي تمنعه الدولة وتعدّ أعضاءه عملاء للروس.

خطر بباله إعادة الاتصال برفاقه في موسكو وإعلان ندمه، تخلّصاً من القلق الشديد الذي يستبدّ به، ولكنهم قد لا يوافقون حتّى على عودته نادماً.

قد هرب من صفوف الحزب من دون سابق إنذار، وأقام في مدينة غوتنبرغ السويديّة، إحدى حواضر الغرب الرأسماليّ المعادي لمنظومة الدول الاشتراكيّة، وما خطوته هذه في العرف التنظيمي إلّا خيانة للحزب وللمبادئ الماركسيّة اللينينيّة.

والحق أنّ ضيقه بالديكتاتوريّة الحزبيّة، وبالتراتب الحزبيّ البيروقراطيّ، ونفوره من تزمّت المسؤولين الحزبيين، حمله على القيام بفعلته التي وضعته بلاريب في خندق المنشقّين، على الرغم من موقعه الإعلاميّ المتقدّم في منظّمة الحزب بموسكو.

□□□

قبل نحو أربعة أشهر انتبذ سالم أحد المقاعد وحقيبته الخفيفة إلى جانبه، بعدما تعب من التجوّل والتسكّع في أروقة مطار غوتنبرغ السويديّ.

سحب سيكارة من علبة مارلبورو ابتاعها للتو من محلٍّ للجرائد، أهي بداية رمزيّة للمصالحة مع الغرب؟ وأخذ يدخّن لتخفيف توتّره، فهو لا يملك أية فكرة عمّا يخبّئ المستقبل له.

لكنّه يدرك أنّ المجهول الذي يواجهه يدعوه إلى حسم أمره، واتخاذ الخطوة التالية لتسليم نفسه إلى الجهات الرسميّة السويديّة.

كان الناس يتحرّكون من حوله، يحسّ بهم ولا يركّز عليهم، لشدّة انغماره في ما ستؤول إليه الأمور عمّا قريب، فضلاً عن الضيق الذي تولّاه لارتيابه في واقعيّة الوضع الذي حشر نفسه فيه.

شرع الخوف يعتصر قلبه، وتلك حالة تخالجه كلّما وجد نفسه في مكانٍ غريبٍ عليه، مليء بالإثارة والغموض، وكلّما شعر في أعماقه أيضاً بأنه ضائع.

الواجهات الزجاجيّة العريضة اللامعة بالأضواء تشفّ عن بضائع جميلة وفاخرة، تغري الزوّار وتجذبهم. الناس يدبّون في اتجاهات

مختلفة قاصدين المنافذ المؤديّة إلى بوّابات إقلاع الطائرات، أو ساعين نحو الحافلات التي تقلّهم إلى قلب المدينة، فيما لبث البعض يتسكّع غير مبالٍ، يجرّ حقيبته وراءه، وانتبذ آخرون المقاهي والمشارب والمطاعم. وفي الممرّات يتجوّل رجال الشرطة من غير أن يثيروا اهتمام أحد، ولم يكن يحفل بهم أحد، فحضورهم لا يمنحهم أية سمة تفوّق كما هي الحال في أماكن أخرى.

وفي الأرجاء كانت تنطلق نداءات متواصلة من مكبّرات الصوت معلنة إقلاع الطائرات ووصولها.

□□□

توجّه صوبه شرطيّ. وقف على مقربةٍ منه وخاطبه بالإنكليزيّة:

ـ التدخين ممنوع!

ارتجّ سالم وكأنّ أحداً ندهه وأخرجه من غفلته.

لاحظ الشرطيّ ذلك. نظر إليه بثبات وابتعد.

رمى سالم العقب في سلّة مهملات مثبّتة في الحائط، فانتبه عندئذٍ للوحة منع التدخين فوقها.

دقائق وعاد الشرطيّ ذاته وقال له:

ـ من أي بلد جئت؟

ـ الاتحاد السوفياتي.

ـ وأي بلد تقصد؟

ـ أنا؟ لستُ ذاهباً إلى أيّ مكان.

ـ أتقيم هنا؟

ـ لا.

ـ أين تقيم؟

ـ لا أقيم في أي مكان.

حدّق إليه الشرطيّ بإمعان وبوجه جامد، فالجواب لم يستفزّه ولم يؤثّر على سلوكه:

ـ جواز سفرك لو سمحت!

ناوله جوازه اليمنيّ الجنوبيّ. تصفّحه الشرطيّ بعينين مرتابتين ثمّ أعاده إليه قائلاً:

ـ تفضّل معي!

تنفّس سالم الصعداء، فالخطوة الأولى قد تمّت بلا تعقيد.

ـ كما تشاء.

في الطريق سأله سالم:

ـ لماذا طلبت جواز سفري أنا من دون كلّ الناس؟

ـ تبدو ضائعاً، نصادف يوميّاً العديد من أمثالك.

ـ وهل هم من طالبي اللجوء؟

عاينه وابتسم.

ـ وهل أنت واحد منهم؟

ـ لا يمكن أن أكون غير ذلك.

وتردّد سالم قبل أن يسأل موسوساً:

ـ وماذا تفعلون بهم؟

ـ لا تتعجّل! في بلدنا قوانين خاصّة تعالج قضايا المهاجرين وطالبي اللجوء.

أوصله إلى بهوٍ يضمّ بعض الموقوفين ثمّ مضى. كانوا يشبهونه إلى حدٍّ ما: نظرات قلقة، ملابس عاديّة، إن لم تكن أقلّ من ذلك، وشنط خفيفة عمليّة.

في المكان مرافق صحيّة ولوحة منع التدخين الشهيرة. كان البعض يقف، يتمشّى، يفتح الباب، يطلّ برأسه ولكنّه لا يغادر، فالناس هنا قانعون بحبسهم.

بعد نحو ساعتين جاء شرطيّ آخر واقتاده عبر سلالم متحرّكة ودهاليز إلى سيّارة شرطة خارج المطار، سرعان ما ركباها فانطلقت بهما متوغّلة في شوارع عريضة تحفّها الأشجار، وتقوم على جانبيها المصانع، والمؤسّسات الحكوميّة، والبيوت القرميديّة السقوف.

□□□

في غرفة شبه عارية مثل تلك التي في المطار، جلسوا حول طاولة دائريّة عليها أوراق وقلم: سالم والمترجم العربيّ الملامح والشرطية المحقّقة، بشعرها المعقود وراء رأسها، بقسماتها الصارمة، وعينيها الزرقاوين المثبّتتين على سالم.

طلبت جواز سفره، أعطاها إيّاه. فتحته على الصفحة الأولى، تهيّأت للكتابة وقالت متسائلة:

ـ أنت يمنيّ، أم تحمل جوازاً يمنيّاً؟

ـ أنا يمني جنوبيّ.

ـ من أين جئت؟

ـ الاتحاد السوفياتي.

ـ وماذا كنت تفعل في الاتحاد السوفياتي؟

ـ أدرس.

ـ وماذا تدرس؟

ـ تكنولوجيا النفط.

ـ أي قسم؟

ـ التنقيب عن النفط واستخراجه.

ـ في أي جامعة؟

ـ باتريس لومومبا.

ـ هذه جامعة خاصّة بالشيوعيين الأجانب.

ـ لا ليس تماماً، فيها طلاب غير شيوعيين ولكن من حكومات صديقة للسوفيات.

ـ ما مدى انتمائك إلى الحزب الشيوعيّ؟

ـ لا أنتمي إلى أي حزب.

ـ ولماذا اخترت السويد؟

ـ رجاء الحصول على لجوء سياسيّ.

ـ من ساعدك على الوصول إلى هنا؟

ـ لم يساعدني أحد.

ـ أمطارد أنت؟ مهدّد؟

ـ أنا هارب من ديكتاتوريّة الحزب الحاكم ونظام مصادرة الحريّات الشخصيّة.

ـ هل سُجنت؟ تعرّضت للتعذيب، لضغطٍ نفسيّ؟

ـ لا.

ـ وكيف دبّرت إذن إقامة ودراسة في الاتحاد السوفياتي؟

ـ عبر منحة دراسيّة من جمهوريّة اليمن الجنوبيّ.

ـ لماذا لا تعود إلى اليمن؟

ـ سأتعرّض للعقوبة لأنني تركت دراستي.

ـ من سيعاقبك؟

ـ الحكومة اليمنيّة، ثمّ إنّ سجلّي حافل بمعارضة قرارات الهيئات والمؤسّسات السوفياتيّة.

ـ وكيف صبر الروس عليك ولم يعيدوك إلى وطنك؟

ـ كانوا يحسبون سلوكي اندفاعاً شخصيّاً لا أكثر، ولم أكن أشكّل خطراً فعليّاً عليهم.

ـ حدّثنا عن اليمن الجنوبيّ قليلاً!

اعترى سالم بعض الارتباك، فلهجة المترجم يمنيّة لا شكّ فيها. فلقد خالط اليمنيين في موسكو وخبر لهجتهم.

سأله بخفوت:

ـ هل أنت يمنيّ؟

ـ إنّ لهجتك لعراقيّة.

ـ ولكنّك لن تشي بي؟

ـ أنا موجود هنا لاختبار لهجتك.

تدخّلت المحقّقة وسألت بنبرةٍ عاليةٍ وحادّة:

ـ علي ربيع، أهذا اسمك؟

حدجه المترجم بنظرة تحذير صاعقة، قرّر سالم إثرها تغيير تكتيكه بالكامل:

ـ لا. أنا عراقيّ واسمي سالم السعد، وأحمل جوازاً يمنيّاً حقيقيّاً، كنتُ قد حصلت عليه من الحزب الشيوعيّ العراقيّ، ولجأت إلى السويد هرباً من الحزب نفسه.

ـ أنت عضو في الحزب الشيوعيّ العراقيّ إذاً؟

ـ نعم.

ـ ولماذا تهرب منه؟

ـ لم أطق الديكتاتوريّة السائدة في التنظيم الحزبيّ.

ـ وماذا لديك الآن لإثبات شخصيّتك العراقيّة، بطاقة هوية، جواز سفر، دفتر خدمة عسكريّة، دفتر سواقة، شهادة دراسيّة؟

ـ لا شيء.

ـ أين أوراقك العراقيّة؟

ـ في العراق.

ـ ولماذا ليست بحوزتك؟

ـ نحن الشيوعيين العراقيين لا نحمل عادةً وثائقنا الشخصيّة معنا حين نتسلّل من العراق إلى الخارج، خوفاً من وقوعها بيد السلطات العراقيّة.

ـ ومن أدرانا أنك عراقيّ؟

ـ لهجتي، والمترجم يعرف ذلك.

فصدّق المترجم على قوله بهزّةٍ من رأسه.

ـ ما هي درجتك الحزبيّة؟ وما نوع المهام التي كنت تقوم بها؟

ـ أنا عضو في اللجنة الإعلاميّة للحزب، ومهمّتي إعلاميّة محضة، أنا صحافي.

ـ ولماذا كذبت علينا أوّل الأمر؟

ـ بسبب الجواز اليمنيّ، ثمّ خشيت أن ترفضوا منحي لجوءاً سياسيّاً لأنني شيوعيّ.

ـ أتعتقد أننا نكره الشيوعيين ونعادي الشيوعيّة؟

ـ في الأقل الشيوعيون يعتبرونكم أعداءهم، فالغرب كلّه عدو للاتحاد السوفياتي.

ـ ربّما، هذا موضوع سياسيّ.

وغطّت غيوم الشك عيني المحقّقة.

ـ والآن؟

سأل سالم مسرسباً.

ـ قد تُمنح إذناً في الإقامة المؤقّتة، إلّا أنّ دائرة الهجرة هي التي

ستتخذ قراراً حاسماً بشأن مستقبلك في البلاد، ولكنّك بالتأكيد ستنال سكناً منذ اليوم وحتّى صدور ذلك القرار.

ثمّ أكملت وقد تخايلت على وجهها ابتسامة خبيثة:

ـ نحن لا نترك الشيوعيين ينامون في العراء!

الفصل الثاني

بعيداً في ذلك البيت

قال زكي لأمّه:

ـ أظنّهم لن يقصفوا أكثر ماما!

بدا في صوته الملول طلب لترك الغرفة ـ الملجأ في مستودع البضائع والصعود إلى البيت في الطابق الثاني، فالشبّان في مثل عمره يضيقون ذرعاً بالبقاء بين الجدران لفترة طويلة.

ـ لا. لا أظنّهم أنا أيضاً، آن أوان الصعود.

لم ينبس الأب ببنت شفة، إلّا أنه كان متّفقاً معهما على مغادرة الطابق الأرضيّ.

إنّ الغموض المحيط بمصيرهم ليضغط على قلبه وعقله فيغرقه في الوساوس والهواجس يوماً بعد يوم، مع اشتداد وطأة الحرب واستمرار القصف على المدينة.

يخيّم على البصرة سكون حذر. الشوارع خالية من المارّة،

الساحات مقفرة، الدكاكين مقفلة، الزوارق مهجورة، البيوت مغلقة، منكفئة على نفسها، وشاحنات عسكريّة تمرق مسرعة. المواقع المحيطة بشطّ العرب ممترسة بمواضع عسكريّة ومدافع، وبجنود متأهّبين لكلّ طارئ.

كلّ شيء يتحرّك تحت جنح الظلام، يتستّر، يتسلّل، يقبع، يسترق السمع، ويراقب تغيّرات العتمة في الليل. فالقوّات الإيرانيّة أمست على تخوم المدينة، ترقبها، ترصدها، وقد تجتاحها في أية لحظة[١].

أضواء الانفجارات تومض في الأفق الشرقيّ ومضات متتالية، مشيرة إلى قوّة المعارك المحتدمة بين الجيشين العراقيّ والإيرانيّ[٢].

هدير الانفجارات يُسمَع في كلّ الأرجاء، سوى أنه صوت مكتوم، يلوح كأنه صوت مطرقة هائلة تقترب من المدينة، تريد سحقها.

القصف يشتدّ نهاراً عادةً ويخفت ليلاً، أو ينقطع في أحايين كثيرة، وتنشط خلال ذلك عمليات مداهمة متبادلة واسعة النطاق للخنادق والمواقع المتقاربة، بينما يشلُّ في الغالب الطيران العراقيّ وحدات المدفعيّة الإيرانيّة التي باتت حذرة في نشاطها، على رغم بلوغ الجيش الإيرانيّ قضاءي (الفاو) و(الشلامجة)[٣].

---

(١) تبعد مدينة البصرة ١٢ كلم عن حدود إيران.

(٢) اندلعت الحرب بين البلدين في ١٩٨٠/٩/٢١.

(٣) الفاو والشلامجة: قضاءان إداريّان، يقع الأوّل في جنوب البصرة، والثاني في شرقها.

اتخذ الأب منذ بداية القصف العشوائي على البصرة قراراً بالنزول إلى الطابق السفليّ من البيت القديم، والاحتماء بغرفة المستودع.

والفكرة على الرغم من هشاشتها تشبه إلى حدٍّ ما تصوّراً بالهبوط إلى حفرة في الأرض.

وهذا الطابق كان مستودعاً للبضائع منذ العهد العثمانيّ، ويضمّ في ما يضمّ: آلة لصنع الطابوق الإسمنتيّ، مواد بناء، سلالاً للتحميل، لفّات حبال، صناديق، براميل، صفائح تنك، مقاعد حديد، درّاجة هوائيّة عاطلة، كدس ورق كارتون، مطارق، معاول، مجارف، أنابيب معدنيّة وأخرى بلاستيكيّة، وأجزاء من مضخّات مياه.

كانت المواد والأدوات المهملة مكدّسة في كلّ أنحاء المكان، غير أنّ المرء سرعان ما يجد ممرّاً بينها يسلكه لبلوغ تلك الغرفة الصغيرة، التي كانت ذات يوم مكتباً تابعاً لصاحب المبنى التاجر صفوان البدر، قبل انتقاله إلى بناية جديدة في أواخر السبعينيات؛ فاستأجر مسّاح الأراضي مالك السعد الطابق العلويّ المكوّن من ثلاث غرف وردهة بأجرٍ قدره ١٩ديناراً، وسكنه مع امرأته زينب وولديه سالم وزكي.

عقب ذلك نجح الابن الأكبر في التسلّل من العراق إلى الاتحاد السوفياتي والإقامة في موسكو بتزكيةٍ من الحزب الشيوعيّ العراقيّ.

أصاب الإهمال الطابق السفليّ بمستودعه وغرفته الصغيرة، إذ لم يستأجره أحد بعد اندلاع الحرب. فلقد توقّفت التجارة، وفرّ التجّار، وماتت الحياة الاقتصاديّة.

أدرك الأب التقاعد وصار يتقاضى راتباً تقاعديّاً قدره خمسة

وسبعون ديناراً، فيما بلغ زكي الصف الرابع الثانويّ متمتّعاً بعناية مركّزة من أمّه زينب، التي كانت تقلق عليه في حومة القصف والحرب وعجلة الموت الدائرة في البلاد، بالرغم من عدم بلوغه السنّ القانونيّة اللازمة للخدمة العسكريّة الإلزاميّة، فضلاً عن كونه طالباً، والطلّاب غير مشمولين بقانون الجنديّة، لكنّها مابرحت تردّد كلّما اشتدّ بلبالها: أنْ سيأتي اليوم الذي سيسوقون فيه الجميع بلا استثناء إلى جبهات القتال، حين يطول أمد الحرب وتصبح الحاجة إلى مزيدٍ من الرجال وقوداً للمدافع ملحّة.

وزينب امرأة ممتلئة الجسم، بيضاء، في الأربعين من عمرها، قويّة وحازمة، ولا يزال وجهها يحتفظ بملامح جمال وفتوّة: لا تجاعيد، ولا غضون، على الرغم من وطأة السنين.

كانوا يقبعون في الظلمة داخل الغرفة على أفرشةٍ مفروشةٍ على الحصران. الباب مفتوح والمستودع معتم.

ـ أشعل الضوء ماما؟

ـ لا، عندي شمعة.

ردّت الأم بنبرةٍ قاطعة كأنما لتنبّه ابنها على قلّة حذره.

أشعلتها. الضوء الأصفر الشحيح أنار الوجوه المتعبة وجزءاً من الأثاث. طوى زكي الأفرشة على المخدّات وغطّاها بحصيرة.

تحرّك ضوء الشمعة مغادراً الغرفة، فأنار أجزاء من حدائد، ومواسير، وأكياس خيش، وحبال، وصناديق. ضوء يتذبذب محمولاً على حاملٍ خاصٍّ به. ترفعه الأمّ قدّامها، فيما يتمسّك الأب بها وابنهما يتبعهما.

كان دويّ متواصلٌ مكتومٌ يترامى إليهم بوضوح، مصدره الاشتباكات المندلعة في الجهات الشرقيّة من شطّ العرب، إلّا أنّ العائلة الصغيرة لم ترَ بالطبع الوميض المتلاحق لنيران المعارك من حيث هم في قاع الدار. مع حركة أقدامهم ركضت جرذان بين الحدائد في العتمة ثمّ سكنت. صعدوا السلّم الحجريّ الحلزونيّ وزكي يسأل:

ـ ماما، متى نتعشّى؟

ـ سأعدّ العشاء الآن، اصبر قليلاً!

ألمّوا بالردهة. اتخذ الأب مجلسه على الكنبة تجاه التلفزيون، فيما الخفافيش تتخاطف طائرةً في جو البيت، يكاد المرء يحسّ بها تحفّ رأسه. أثار وصول العائلة المفاجئ ضيقها، فآبت مرغمة إلى أوكارها في شقوق السقف الخشبيّ.

قالت الأمّ للأب مستاءة:

ـ تتعلّق بذراعي هكذا، ماذا بك؟ هل أنت أعمى؟

ـ لا. ولكني لا أميّز في العتمة.

قال زكي:

ـ ماما، هل أفتح التلفزيون؟

ـ افعل ما يحلو لك!

ردّت وهي في طريقها إلى المطبخ.

فتحه وخفض الصوت قائلاً لنفسه: سأصعد إلى السطح لتعديل (الأيريل).

لمح أثناء مروره بالمطبخ ضوء شمعة ينير جانباً من أمّه والفرن.

وطرقت مسمعه قرقعة الأواني والصحون. رقي الدرج بسرعة حتّى انتهى إلى السطح، فشملته واستحوذت على أحاسيسه سماء عميقة الظلمة، صافية ومرصّعة بنجوم لامعة ومرتعشة.

ـ أقول، ألا يفضحنا نور التلفزيون؟

هتف الأب، ولكن لم يرد عليه أحد فسكت. كان رجلاً عجوزاً، أبيض الشعر، نحيل الجسم، غامق السمرة، وينتعل نعلين من البلاستيك، يُسمَع اصطفاقهما حين يمشي.

ألقى زكي نظرة غامضة على الأفق الشرقيّ المتوامض بنيران الاشتباكات العنيفة.

أطلّ من فوق سياج السطح الخشبيّ فرأى ظلمة شاملة تسود المدينة.

الأنهر، النخيل، خرائب المباني، شطّ العرب، الساحات، تقبع في صمت متوتّر قاتل، تميّزه أكثر دمدمة المعارك المشتعلة في الجبهة.

بدا الهدوء الذي يلفّ الحارات اللحظة هدوءاً يسبق العاصفة.

استرعى انتباهه وميض يتذبذب عبر خصاص الشبابيك في حارتهم: حارة مقام علي، هو ولاشك وميض تلفزيون.

ثمّ شَخَصَ ببصره إلى الفتحة الهائلة التي أحدثتها قذيفة إيرانيّة قبل يومين في بيت جارهم، والذي كان لحسن الحظّ خالياً.

لقد رحل قسم كبير من الناس إلى مدنٍ بعيدةٍ عن جبهات القتال.

كان يجد مشقّة في تغيير اتجاه (الأيريل) جهة الكويت لثقل لاقطاته وعلوّها، ولصعوبة السيطرة على حاملها الحديديّ. بعد نجاحه إثر مجهود غير يسير هتف من باب السلّم سائلاً:

ـ البثّ الكويتيّ واضح بابا؟

ـ واضح، تعال انزل!

عاد إلى الردهة وقعد يتابع البرامج الكويتيّة، بينما انشغل الأب ذاهباً آيباً على هدى ضوء الشموع في تحضير كأس عرق وصحن مازة.

تعالت في فضاءات المدينة على نحوٍ واضحٍ أصوات انفجارات متتالية.

اهتزّ البيت هزّات خفيفة، وتساقط غبار وفتات جصٍّ على الأثاث والأرض والسجّادة؛ النثار الذي تجتهد الأمّ يوميّاً في إزالته.

ـ هناك قصف على الدّاكير[٤] كما أظن.

قال الأب بصوتٍ ضعيفٍ بالكاد سمعه ابنه زكي، كأنه ملّ من ترديد معلومات لا يكترث لها أحد.

ثمّ رشف رشفةً من كأسه ووضعها على خوان قدّامه، وتابع بعد لأي:

---

(٤) الدّاكير: مرفأ أنشأته القوّات البريطانيّة في البصرة بعد احتلالها في الحرب العالميّة الأولى.

ـ الدراسة مستمرّة في بغداد زكي، لماذا لا تواصل هناك في إحدى الثانويات، وتسكن عند خالك مؤقّتاً؟

ـ هذه السنة ضاعت بابا، السنة القادمة ربّما، ثمّ هل في إمكانكما تدبير نفسيكما من دوني؟

ـ نعم في إمكاننا ذلك.

ـ لماذا لا نغادر كلّنا؟ المدينة صارت جحيماً.

ـ إذا تركنا البيت حاليّاً فسيتعرّض للنهب.

ـ أودّ أن أغادر العراق نهائيّاً.

ـ هذا الموضوع قيد الدراسة أيضاً.

ثمّ استطرد متنهّداً:

ـ لو يستطيع سالم سحبك إلى الاتحاد السوفياتي.

أحضرت الأمّ صينيّة العشاء وقالت بعدما تحلّقوا حولها:

ـ بدأوا يجنّدون عامّة الناس، وهذا ما كنت أتوقّعه وأخاف منه.

ـ ليس الكل. الحزبيّون[٥] فقط.

استدرك زكي.

ـ اليوم الحزبيّون وغداً الجميع. يجب إخراج زكي من العراق.

كان كلام الأم موجّهاً إلى الأب مع نظرةٍ مقصودة.

---

(٥) الحزبيّون: الأعضاء في حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ في العراق.

نفض الأب يده من الأكل وهتف منفعلاً لنفاد صبره:

ـ ماذا؟ هل أنا ساحر؟ هل أمتلك عصا سحريّة؟

أجابته الأم محتدّة:

ـ لماذا لا تتصل برفاق سالم في الحزب؟

ـ لا أعرف سوى واحد، وهذا أخذ يتجنّبني ويهرب من وجهي حين يراني في الشارع.

ـ حسنٌ، سنكتب رسالة نشرح فيها وضع زكي وحاجته الملحّة إلى منحةٍ دراسيّةٍ، ثمّ نناشده إيصالها إلى سالم لأنّ البريد الحكوميّ مراقَب.

قال الأب لتخفيف حدّة التوتّر:

ـ سأكتبها غداً.

ثمّ استدرك:

ـ هذا إذا قبل استلامها.

كان زكي يتابع بانتباه الحوار وفي خاطره تجول فكرة مشروع قرّر التصريح بها لعلّها تفيد:

ـ لأخي سالم صديق فلسطينيّ، أستاذ مساعد في جامعة السليمانيّة، تعرّف إليه أيام كان طالباً هناك، حكى لي عنه سابقاً، وهذا الأستاذ على علاقة بأحد الفصائل الفلسطينيّة، سأتّصل به لمساعدتي في مغادرة العراق عبر ذلك الفصيل.

ـ وكيف تغادر؟

عقّبت الأمّ مهتمّة.

ـ تهريبي إلى سورية لبحث المساعي مع الحزب الشيوعيّ العراقيّ العلنيّ الموجود في دمشق لتسفيري إلى الاتحاد السوفياتي.

استقصت الأم لفهم المزيد من الأفكار الجائلة في رأس ابنها:

ـ وإذا رفضوا، وإذا طلبوا جواز سفر، وأنت تعرف أنّ السلطات حرمتنا من الحصول على أجوزة سفر بسبب سالم ومصائب سالم؟

حينها ردّ زكي متضايقاً من لامعقوليّة الحوار:

ـ ولماذا ألجأ إليهم إذا كنت قادراً على امتلاك جواز سفر ومغادرة البلد متى شئت؟

تبادل الأب والأم النظرات لخياليّة المشروع ومعقوليّته، لسهولة القيام به وعدم التيقّن من نتائجه.

ـ وكيف تلتقي الأستاذ الفلسطينيّ؟

سأل الأب.

ـ أذهب إلى مدينة السليمانيّة لأقابله شخصيّاً.

ـ وإذا رفض ذلك الفصيل مساعدتك؟

ـ عندئذٍ لن يكون في وسعي السفر.

لبثوا يفكّرون في الأمر، وبدا كأنه حلّ ينطوي على إمكانيّةٍ ما للخروج من مأزقٍ طالما شغل بالهم.

وبعيداً في مكانٍ ما، استمرّت انفجارات القنابل متقطّعة.

الفصل الثالث

بيـن الكتب والناس

كان سالم يتأرجح بين اليقظة والنوم، يراوح بين الحلم والواقع ويتململ، حتّى فتح عينيه، وهو وإن كان راغباً في العودة إلى النوم إلّا أن حركة قطارات الضواحي وضجيج شاحنة نقل القمامة قد أيقظاه تماماً.

عبر الشبّاك ينتشر النور، وأرقام الساعة الحمر الفسفوريّة تشير إلى حلول الصباح.

أزاح الأغطية، استوى جالساً هنيهةً في الفراش ثمّ قصد الحمّام ليغسل وجهه. أنعشه الماء، ومشى إلى المطبخ لإعداد ركوة قهوة.

ما فتئت تراوده فكرة الخروج من البيت كأنّ الجدران تحدّ من حريّته.

أنهى قهوته. لبس ملابسه وغادر البناية سالكاً طريق الغابة النازل إلى محطّة قطار الضواحي. الأشجار تميل إلى الاصفرار، الأرض

ملأى بأوراقها البنيّة والصفر، الشمس تخترق نثار سحبٍ بيضٍ، وحرارة الهواء تحافظ على اعتدالها.

تسكن في هذا الحي أغلبيّة مهاجرة: عرب، أتراك، صوماليون، إيرانيون، بينما يقيم السويديون في الحي المقابل.

يلتقي الطرفان لدى محطّة قطار الضواحي فيتبادلان نظرات الكراهيّة ومشاعر النفور.

درج سالم على انتباذ ركنٍ بعيد لضمان راحة باله وصفاء ذهنه.

هذا النهار وجد المحطّة خالية فتلكّأ منتظراً دونما تحقّظ، حتّى جاء القطار فركبه في طريقه إلى المكتبة العامّة.

كان سالم ينظر إلى الناس عبر النافذة العريضة وشعور بالوحدة يلفّه.

□□□

على مقربةٍ من باب المكتبة العامّة العريض ينتصب تمثال الشاعرة (كارين بويه)[٦] بالحجم الطبيعيّ، وكان سالم يرى في كلّ مرّة وبحسب مزاج المارّة، صدرةً باليةً مربوطةً إلى صدرها، أو قنينة بيرة فارغة بين قدميها، أو وردة ذابلة في يدها، مرةً شاهد رداءً أبيض يغطّيها فبدت مثل ممرّضة من حديد.

---

(٦) كارين بوية: شاعرة سويديّة اشتراكيّة النزعة، ولدت في غوتنبرغ عام ١٩٠٠، وانتحرت عام ١٩٤١.

غالباً ما يشعر سالم بأنّه مراقب، وأنّ فضاءً من الشكّ يحيط به إذما يلج المكتبة، فالموظّفون يرمقونه بريبةٍ، ونظراتهم تلاحقه في أي مكان يتواجد فيه ظانّين فيه ظنوناً شتّى، كأنْ يكون متشرّداً، أو لصّاً، أو لعلّه مهاجرٌ مقطوعٌ يقضي وقته في التسكّع في مكانٍ ليس بمكانه.

لا أحد في هذه المكتبة يحترم الصمت اللازم للقراءة، فالكلّ يتحدّث بصوتٍ عالٍ. لا، وأحياناً تنطلق ألحانٌ صاخبةٌ من فرقةٍ موسيقيّةٍ وهتافات من أخرى مسرحيّة، فضلاً عن أطفالٍ يجرون ويولولون، وطلّاب يتناقشون بضراوة ويقرصون الفتيات في مناطق حسّاسة.

غير أنّ الزائر يعتاد ذلك بمرور الزمن، مثلما يعتاد الصمت والسكون والعزلة، وهكذا قضى سالم بدايةً وقتاً طويلاً ليألف الضجيج، وليعرف أنّ المكتبة في وجهها الآخر ميدان لتنظيم الحفلات، وإلقاء الأشعار، وعرض اللوحات، وبيع الكتب القديمة، وتعليم الناس كتابة الشعر، مثلما هي مقصدٌ للمشرّدين، والمتسكّعين، والمدمنين، والمجانين، وبائعي الورد، والشحّاذين، والبغايا، واللصوص، والعشّاق، والمهرّبين، والمشبوهين، والعارضين أوشامهم وتسريحات شعرهم وملابسهم الداخلية، لذلك ترى حارساً يتجوّل في الممرّات، يسمعه المرء يقترب من حينٍ لآخر بخطواته الثقيلة وخشخشة مفاتيحه الكثيرة.

يحمل المشرّدون غالباً بهمّةٍ أكياس نايلون محشوّة بالخرق والمجلّات والفوارغ التي يلتقطونها من سلال المهملات، ثمّ ينتقون لأنفسهم كتب طبخٍ سميكة يتصفّحونها، ويحتسون الكحول بين الفينة والفينة على غفلةٍ من العيون من قنانٍ مدسوسةٍ

في أعطافهم، ولطالما وجدهم سالم نائمين في دورات المياه، مشوّهي الوجوه من الجوع والعذاب والتشرّد والمرض والمخدّرات.

هذه المرّة اعترضه متشرّد عجوز شبه أعمى، راح يتفرّس فيه ويسلّم بنبرة من لايتوقّع ردّاً:

ـ هالو!

ـ هالو!

ردّ سالم بجفاف.

ـ هل يكلّفك فتح باب دورة المياه شيئاً؟

قال العجوز بالإنكليزيّة ملمّحاً إلى التعريفة التي يجب إسقاطها في القفل لفتحه.

ـ أنت تعرف بالطبع.

قال سالم.

ـ ألا ترى أنّ حكومتنا ظالمة؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها تجبر الفقراء على دفع ثمن قضاء حاجاتهم الطبيعيّة.

ـ أرى أنه تدبير معقول للحدّ من تخريب المتطفّلين.

ـ وماذا يفعل المتطفّلون برأيك؟

ـ يسرقون ورق الحمّام، يتغوّطون على الأرض، يخربشون على الجدران، يسكرون، يتناولون المخدّرات، ينامون...

ـ وهل توقفهم التعريفة عند حدّهم؟

ـ بعض الشيء، فهي تكفي لتغطية شراء نصف علبة بيرة مثلاً.

ـ صحيح، ولكنّهم يلجون دورة المياه مجّاناً.

ـ هذا مستحيل.

ـ تعال أريك!

مضى المتشرّد شبه الأعمى وسالم وراءه، يتبعه على مضض.

أخرج الرجل من جيبه مشطاً معدنيّاً كان قد أزال بعضاً من أسنانه، دسّه في الشقّ بين الباب وإطاره، فوق لسان القفل مباشرة، ثمّ نتره إلى أعلى فانفتح الباب. عاد فأغلقه ثمّ فتحه.

ـ في مقدورك شراء مشط مثله من محلّات (أتش و أم) وسعره ستون كروناً، غير أنني أعرضه عليك مع إرشادات الاستعمال بأربعين، ما رأيك؟

ولـمّا لم يسمع ردّاً من سالم ابتسم وعاد إلى مقعده يتابع القراءة في شاشة تكبّر الحروف بدرجةٍ هائلة.

على رغم إعجابه بالفكرة لم ينوِ سالم شراءه خوفاً من افتضاح أمره، فهو لحراجة وضعه كمقيم مؤقّتٍ قد يتعرّض في أيّة لحظةٍ، بسبب أيّة قضيّة مشبوهة، إلى الطّرد من البلاد.

كان سالم ينفر عادةً من المتشرّدين، بسبب الرائحة الكريهة التي تلازمهم، لعدم اغتسالهم وتنظيف ملابسهم. بينما كان السويديون يكرهونهم لأنّهم متعطّلون وطفيليون؛ لذا تأخذ الشرطة على عاتقها وحدها أمر الاهتمام بهم، حينما تلقيهم الخمرة أو المخدّرات أو

الأمراض أرضاً، فيمكثون في مكانهم، في الشوارع ومواقف الحافلات، مهملين مثل أكياس النفايات.

غير أنّ الفضول كان يحدو سالماً على معرفة نمط الحياة التي يحيونها، أين يأكلون وينامون؟ كيف يقضون وقتهم؟ أنّى لهم الملابس والأحذية؟ هل يمارسون الجنس؟ وما هي عاداتهم؟ فهو من ملاحظاته القليلة لم يرَ متشرّداً يتشاجر إلّا مع متشرّدٍ آخر، كما لمحهم يوماً يتسكّعون بصحبة نساء متشرّدات.

لا هواتف نقّالة معهم، ولا يُسمَح لهم بدخول المشارب والمطاعم، فضلاً عن تعرّضهم الدائم للطرد من المناطق السكنيّة، وللضرب أحياناً.

إنّهم كائنات منبوذة بامتياز، لا تكترث للوقت، ولا لتغير الحوادث، ولا لانقلاب الفصول.

يغلب على الظن، أنّ المتشرّدين ناسٌ عاديّون أدمنوا الكحول والمخدّرات، وصاروا بمرّ الزمن نتيجة الشعور بالحريّة واللامبالاة، والاسترخاء، والرغبة في التجوال، مخلوقات استثنائيّة، لا تحبّ المكوث في أيّ مكان، ولا القيام بأيّ عمل، ولا بتنظيف نفسها، لذا فهي تمرض وتموت في وقتٍ قصير.

سيرة المتشرّد تكتنفها غالباً مشاعر النبذ والكراهيّة والعنف والنزعة إلى الأذى والقتل، وترافقها آلام المرض والخوف والقهر والفناء.

في طريق مغادرته المكتبة العامّة، لحظ سالم متشرّداً في السبعين من عمره، يعتور ظهره انحناء، مهمل الشعر واللحية، لا يتطلّع أمامه، عيناه في الأرض، تثير ملامحه التعاطف والشفقة.

لجاكيته الخاكيّ اللون لمعة دهنيّة من تراكم الأوساخ وقدمها، وآثار اللطخات لا تزال ماثلة في كلّ ملابسه.

أطراف بنطلونه القصير الرماديّ ممزّقة، ولا تقلّ قذارة عن كيسه النايلونيّ الكبير المخصّص لفوارغ العلب والقناني التي يلتقطها من سلال القمامة.

كان يتحرّك كجرذٍ مترهّلٍ يجوس خلال أكوام النفايات.

رجلاه عاريتان من الجوارب، وحذاؤه أسود كالح، لكنّه لا يزال متيناً.

سار سالم في إثره إلى شارع (آفني)، وراح يراقبه، وهو يزيح أغطية سلال القمامة المعدنيّة، يمدّ يده، ينبشها ويتفحّص جوفها، فيعثر أحياناً على مراده.

لجأ إلى موقف الحافلات، وضع كيسه على الأرض، وطال منه زجاجة، شرب منها، وأعادها إلى مطرحها.

دخل سالم محلاً لبيع المشروبات. ابتاع خمس علب بيرة (نورلاند غولد). خرج والتزم الجانب الآخر من الشارع، في محطّة الحافلات المقابلة.

فتح علبة، وأخذ يحسو البيرة جرعةً تلو أخرى.

الوقت ما بعد الظهر، في الهواء طراوة، والشمس تضيء الفضاء.

في الوجوه راحة وتفتّح للطقس الطيّب، بعد كآبة يومٍ غائمٍ ورماديّ.

النساء بتنانير قصيرة وجوارب حريريّة شفّافة. يعرضن أفخاذهنّ المتناسقة الجميلة، وفانيلاتهنّ تنفتح عن أثدائهنّ بفتنةٍ مقصودة، وأردافهنّ المرصوصة في القماش الليّن الضيّق تثير الشهوة والاشتهاء، ما يحمل سالماً على اختلاس النظر إليهنّ، متخيّلاً أشكال ملابسهنّ الداخليّة وألوانها، فتهوى نفسه إليهنّ ويلتهب رغبةً فيهنّ.

تحرّك المتشرّد العجوز من مكانه نحو منطقة مسرح المدينة، وكان من شدّة ثقله وانحنائه يخطو خطوات قصيرة، لكن سريعة، متوقّفاً كعادته لدى حاويات النفايات، يستخرج منها ما يناسبه ويرميه في كيسه، مهملاً الفوارغ المستوردة، لأنّها غير قابلة للبيع.

لم يكن أحدٌ من المارّة ليأبه له، كأنّ ما يقوم به هذا البشريّ فعلٌ عاديّ.

تجاهل المتشرّد السبعينيّ متشرّداً آخر بادره إلى التحيّة، لعلّه خاله يزاحمه على رزقه، وواصل سيره داخلاً الحديقة من وراء بناية مسرح المدينة، في محاذاة نهر يشقّ منطقة (بوّابة الملك)، وسالم يتبعه.

هنا على النجيل بين أشجار الحور والليلك والسنديان والكرز والقيقب، يتوسّد الشباب الأرض، فالمصطبات قليلة، وهو أمرٌ مستغرَبٌ، أهي دعوة إلى الاستلقاء على العشب واحتضان الطبيعة؟

يمرّ الشيوخ ماشين في المسالك بتؤدة مع كلابهم الفضوليّة والحسّاسة، لا يجلسون، ولا يعيرون الشباب انتباهاً.

يقترب العجوز من مجموعةٍ من الشباب، فيرمون إليه بفوارغ

شرابهم، وأحياناً يدنو بهدوء ويطلبها بذلّ، فيعطونه إيّاها.

أمسى لسالم كيسٌ فيه علب البيرة، وخطوات متسكّع، وحركات متبطّل، يضرب في الأنحاء، بلا اتجاه ولا غاية، إلّا أنّ مظهره، في كلّ حال، لم يكن مظهر متشرّد، مع ذلك فالناس يزدرونه لأنّه مهاجر وغريب.

ذات مرّة، لفتت نظره امرأة مهاجرة، تلتقط الفوارغ من سلال المهملات فعصر الألم قلبه.

كانت بثياب نظيفة: تنّورة بنيّة طويلة، وبلوزة زرقاء، تشدّ شعرها بمنديل، كالذي ترتديه القرويّات في أوروبا الشرقيّة، وتلبس قفّازاً لوقاية يدها اليمنى، وذلك ما لم يألفه سالم لدى باقي المتشرّدين، لعلّه يحدّ من حركة أصابعهم في النبش والنكش.

تحت أشجار السنديان، في بقعة متألّقة بالشمس والاخضرار، توسّدت النجيل جمهرة من الفوضويين؛ شباب وشابّات بعيون مكحولة وأحذية عسكريّة، وملابس جلديّة سود لمّاعة.

شعرهم ملوّن، بعضهم يدخّن (الماريجوانا)، والبعض الآخر يحتسي كحوله بأناة، وبعض يقوم يتبوّل أو يرقص.

الفتيات يجلسن ويتحرّكن على راحتهنّ، غير آبهات، تاركات أجزاء حميمة من أجسادهنّ ظاهرة للعيان.

انتحى العجوز ركناً مشمساً، متّكئاً على جذع شجرة، وأخذ يشرب من قنّينته بين الحين والحين.

كان يلقي بصره إلى نقطة ما في ما وراء الشباب، ذاهلاً عمّا

حوله، سادراً في عالم خاصٍّ به، لا نهاية له، وصمت بليد يكسو وجهه المتغضّن، المتهدّل على لحيةٍ شعثاء.

وكان الفوضويّون يتصرّفون وكأنّه غير موجود، أو موجود ولكن لا معنى لوجوده، فهو في النهاية بلا قيمة بشريّة. غير أنّهم لا يتعرّضون له، لا يهينونه، ولا يضربونه.

يحدث أحياناً حين تفرط إحداهنّ في الشرب أن تلتصق به وتقبّله، وتدعو أحد أقرانها ليلتقط لهما صورة، كما هي الحال مع الحيوانات الأليفة الطريفة في حدائق الحيوان.

كان سالم قد انتبذ هو الآخر زاوية مشمسة بين الأشجار، على النجيل، وراح يشرب جعته ببطء، متمتّعاً بمشاهدة الفوضويّات وهنّ يعرضن عريهنّ كما لو أنهنّ في غرف نومهنّ.

استغرق أحد الفوضويين في تقبيل صديقته بإلحاحٍ شهوانيٍّ لافت، وكان شاباً كحيل العينين، شكّ في أذنه قرطاً ضخماً، على شكل نابٍ حيوانيّ.

بنطلونه الجلد غير مزرّر، ويد صاحبته تتحرّك داخله، تداعبه وتمسّده، وهي في عمره تقريباً، كحيلة مثله، ممتلئة الجسد، وثدياها الثقيلان يكادان يتحرّران من فانيلتها.

كانت قد فرجت ساقيها في وضع المتمتّع الراغب، وتنّورتها السوداء القصيرة منحسرة عن سروالها الأحمر الصغير، وفخذيها المثيرتان بجوربيهما الأسودين الشفّافين، فيما أصابع

عاشقها بينهما تداعبها، حتّى أخذهما الضمّ والعناق إلى الاستلقاء.

أزاح الشاب طرف سروالها ودخلها متوغّلاً فيها، وهي تفتح جسدها مشتهية، وقد بان ردفها الأبيض متورّداً، يلتصق به بعض العشب والتراب.

حرّر الفتى ثدي ضجيعته من الفانيلة، فتجلّى مترجرجاً، جميلاً بتكويرته اللدنة الحليبيّة، وبحلمته الورديّة المنتصبة، التي سرعان ما غابت بين شفتيه. والبنت تحته تتلوّى وتتأوّه، مستسلمة لطعناته المحمومة.

انتصب سالم، وطافت ابتسامة بلهاء على وجه المتشرّد العجوز، تقطعها من حين لآخر ضحكات قصيرة، خفيفة، وغبيّة.

دبّ السكر في أجساد الفوضويين، فتمدّدوا مرتخين.

الشمس تجنح إلى الغروب، وأشعّتها تنحسر أمام ظلال تكبر وتستطيل.

اشتعلت المصابيح، وساد شعورٌ بحلول المساء.

لملم بعض الشباب أغراضه ومضى، ولمّا اقترب شرطيّان من المكان غادر البقيّة النجيل صوب الشارع العام، تاركين الحديقة للظلال.

دبّ المتشرّد ناحية أجمة كثيفة من الشجيرات القصيرة الملتفّة الأغصان.

لحقه سالم، ثمّ توقّف على مسافةٍ يرقبه وهو يخبّئ كيسه الكبير المحشوّ بثمار صيده فيها، ثمّ انصرف.

اقتفى سالم أثره وهو يقطع حدود الحديقة والشارع العام وموقف

السيّارات متّجهاً إلى منطقة كنيسة (بابتيست)، حتّى انتهى به المطاف إلى مبنى الكنيسة، وهو صرح أبيض جميل، ببوّابة خشبيّة عريضة، وشبابيك حمر، وقبّة خضراء يعلوها صليب ذهبيّ.

كان المتشرّدون يقفون من حول البوّابة نافدي الصبر، وقد ارتدوا طاقيّاتهم الصوف ولفاعاتهم مع انخفاض درجة الحرارة، منتظرين يداً مقدّسة تفتح البوّابة فتمنحهم الخلاص. تخلّص سالم من كيسه في سلّة مهملات، استعدّ مثلهم في مواجهة البرد، وتأنّى منتظراً.

هبط الليل على المدينة وازدانت الشوارع والساحات بأضواء المصابيح، ولافتات النيون الملوّنة، وكشّافات السيّارات.

خفتت حركة السابلة حتّى انقطعت في الأزقّة، وأغلقت المحال أبوابها إلّا المشارب والمطاعم وبعض الحوانيت.

منطقة الكنيسة هادئة، مُنارة بأنوارٍ صفرٍ، حواريها خالية، ومسالكها مقفرة.

أخيراً انفتحت البوّابة، فدخل الجمع منتظماً في طابور رتّب نفسه بالغريزة، كما هو معهود في أزمان سابقة، وفي آخر الطابور سار سالم وئيداً نحو منفذ الدخول، حتّى إذا ولجه ألفى نفسه في ممرٍّ ضيّقٍ، ثمّ درجات أدّت به إلى بابٍ، ينفتح على مقصورةٍ مطلّةٍ على حيّزٍ يناسب حركة الطابور وهيئته.

لا تدافع ولا صراخ، على رغم مساحة المرور المحدودة، وكلّ يتقبّل نصيبه راضياً، يأخذ حصّته من الطعام، وينصرف إلى الطاولات.

أقبل على سالم رجلٌ طويلٌ، نحيفٌ، أحمر الوجه. خمّن سالم أوّل وهلة أنّه قسّ في ثيابٍ مدنيّةٍ، أو أحد المؤمنين المتطوّعين للقيام بأعمال الخير الكنسيّة.

لا ريب في أنّ وجود سالم أوّل مرّة في المطعم استوقف الرجل، فقدّر أنّ تلك السحنة السمراء لا بدّ أن تكون قادمة من منطقة الشرق الأوسط.

حدّق فيه باهتمام، وقال محذّراً بالإنكليزيّة، في نبرةٍ خاليةٍ من أيّ غرضٍ طائفيٍّ أو واعزٍ عنصريّ:

ـ نحن نقدّم لحم خنزير في وجباتنا.

فحار سالم كيف يجيبه، إلّا أنّ ذهنه تفتّق عن مهربٍ مناسبٍ فقال:

ـ أنا نباتيّ.

وهو لم يقصد أن يكون ساخراً، وإن كان الجواب يتضمّن سخريةً ما، وازدراءً لتفاهة الملاحظة.

تحدّث الرجل مع الموظّفة المكلّفة بتوزيع الطعام بصوتٍ خافتٍ وهو يشير إليه، فخصّت سالماً بنظرةٍ شفوق، وابتسامةٍ وديّةٍ، وقدّمت له صحناً من الورق المقوّى، فيه تفّاحة، وكعكة كبيرة محلّاة بالكريما، وملعقة بلاستيك بيضاء، وصبّت له شاياً في قدحٍ خزفيٍّ مزيّنٍ بصليبٍ ذهبيٍّ، من برّاد كبيرٍ حدّها.

فيما انشغلت الموظّفة المساعدة بتقديم لحم وخضر مع بعض الحلوى إلى الواقفين إلى جانبه.

كانت ردهة الطعام أشبه بقبو واسع جدّاً، تنتشر فيها أرائك جلد مريحة، وطاولات خشب أنيقة، ولكن واطئة، حتّى إنّ المرء ليضطرّ إلى الانحناء عليها حين يهمّ بالأكل. وعند الواجهة يقوم صليب كبير على الحائط، فوق بيانو، راح فتى منغولي يعزف عليه لحناً كنسيّاً بسيطاً بينما انهمك الزوّار في الأكل، بضمنهم سالم وصاحبه السبعينيّ.

استلّ أحد المتشرّدين قنّينة من معطفه، حسا منها حسوة، وخبّأها تحت الطاولة.

انبثق من مكانٍ ما الموظّف الطويل ذاته، اقترب من الطاولة، انحنى حيث مخبأ القنّينة، ردّها إلى صاحبها وطرده.

لاحظ سالم أنّ المتشرّدين الذين صادف بعضهم يتسكّع في المكتبة العامّة بلا أكياس، ففهم أنّ عدّة المتشرّد ممنوعة في هذا المطعم المجّاني القدسيّ تحت الأرضيّ.

طاف المنغولي بين الطاولات، بعد فراغه من المعزوفة التي لم يعرها أحد اهتماماً، يلمّ الصحون الورقيّة والأكواب والأشواك والملاعق البلاستيك، وهو يبتسم راضياً عن نفسه.

قلّب سالم عينيه في الردهة بحثاً عن ذلك الموظّف، فلمحه قاعداً وراء مقصورة الطعام يكتب شيئاً ما، لا يبين غير رأسه، فقصده:

ـ أين ينام الناس هنا؟

سأله.

ـ إذا رغبت في المبيت، فابق مع الباقين! وستأتي حافلات لتنقلكم إلى أماكن النوم المخصّصة لكم.

لم يكن سالم ليودّ حقاً ارتياد مأوى المتشرّدين، لكنّ فضوله دفعه إلى معرفة أجواء محال النوم فحسب.

ـ أهو فندق ما؟

استقصى ملحّاً.

تأمّله الرجل مستغرباً سؤاله، فقال في نبرةٍ صبور.

ـ لا، قاعة مثل هذه فيها أسرّة فقط.

ثمّ تابع كأنّه توصّل إلى مغزى سؤاله:

ـ لا تقلق، فالمكان نظيف ومريح!

شكره سالم ويمّم وجهه شطر ممرّ الخروج، فرأى إلى يمينه طاقة ـ كانت مغلقة حين دخل ـ تشغلها موظّفة ضحوك سمينة، منهمكة في توزيع جاكيتات وطاقيّات وأحذية ولفاعات على الزوّار.

اضطرّته البيرة التي أثقلت على مثانته إلى ولوج دورة المياه، فاستوقفه شكلها، فالجدران بكاملها، بما في ذلك السقف والأرضيّة، من الفولاذ اللامع المحبّب، ولم يدرِ ما العبرة من ذلك؟

خرج إلى الشارع الساكن، تملّكه تعب وصداع خفيف، وشاب مشيته بعض الترنّح، من فعل البيرة القويّة.

توجّه إلى محطّة قطارات الضواحي، وأضواء المدينة تتلامع في ليلٍ باردٍ، وروّاد المتعة يسلكون الدروب، بين الحين والحين، يصخبون ويضحكون.

الفصل الرابع

هواجس الليل

اضطجعت الأمّ على فراشها المفروش على الأرض في الظلام ولم تنم. كانت تنصت إلى أصوات الانفجارات في المدينة وفكرها مشغول بابنها زكي. وهي لطالما تأرّقت متأمّلة حال بيتها قبل أن تستسلم للنوم.

حصل ذلك مُذ قرّر الأب النوم بمفرده عندما أوغل في الشيخوخة وغدا يفضّل الركون إلى الوحدة، وقضاء الوقت في الاستماع إلى المذياع.

قعدت في فراشها. لم يراودها النوم إطلاقاً وجعلت تحدّق في الظلام. خمّنت أنّ الوقت لم يتجاوز منتصف الليل.

هل ستبقى قاعدة في العتمة هكذا؟ بلغت مسمعها خشخشة الخفافيش في السقف، ثمّ خُيِّل إليها أنّ الأب يسعل، ترى ألا يزال يقظاً؟

غادرت فراشها ومدّت بصرها من فرجة الباب فرأت نوراً ينساب من خصاص غرفته، أمّا غرفة ابنها فيسودها الهدوء.

زكي نائم إذاً، داخلها فرح لأنّ ابنها ينام دونما قلق.

خطت صوب الردهة. ألقت نظرة على الساعة، فهي كما خمّنت تدور في الثانية عشرة.

اقتربت بهدوء من باب غرفة الأب الموارب ونادته بصوتٍ خفيض:

ـ مالِكْ.

جاء الردّ من الداخل عميقاً، ومنخفضاً أيضاً:

ـ ادخلي!

دلفت فوجدت زوجها قاعداً عند طاولة الزينة التي كانت تتزيّن أمام مرآتها في الأيام الخوالي.

جلست على الفراش القديم، العريض، الذي أيبسه الزمن. فكلّ شيء في هذه الغرفة يعود إلى أيام زواجهما الأولى: السرير، طاولة الزينة، الكومودينو، الخزانة، مشجب الملابس، السجّادة الناصلة الألوان، المكتبة، الصورة الوحيدة على الحائط: صورته وهو في الثلاثينيات وقد غزاه الشيب فلاح أكبر من عمره بكثير.

ـ لم يغمض لي جفن أنا أيضاً.

قال ذلك ونظر إليها عارفاً بحالها ومتضامناً معها. لم تنبس زينب بكلمة.

ـ أوشكت أن أفتح المذياع ولكني خشيت أن يستيقظ زكي، فالنائم يتحسّس الصوت المغاير لأصوات الانفجارات البعيدة المعتادة، وزكي حسّاس من جهة الأصوات.

قال مادّاً في الحديث كأنه يشجّعها على أن تبوح بهواجسها وتفتح قلبها، وتأمّلها حاثّاً إيّاها بنظراته على أن تخبره بما يجول في خاطرها.

ـ هل تسمح بذهاب زكي؟

سألت.

ـ أهذا ما يؤرقكِ؟

ـ أكثر من أي شيء آخر.

ـ وأنتِ ماذا ترين؟

استقصى في محاولة منه للاستئناس برأيها متمنيّاً أن يكون مثل رأيه.

ـ أنا مبلبلة، هل أعيش من دون أولادي؟

ـ اسمعي زينب! لا بدّ من أن يسافر زكي، فالبلد في حالة حرب ضروس لا يعلم إلّا الله متى تنتهي، وقد شرعت الحكومة بعد ما طال أمد القتال في سحب المواليد الأكبر سنّاً: أي مواليد ١٩٤٧ و ١٩٤٨، وستلجأ بعد ذلك وهذا مؤكّد إذا استمرّ سقوط القتلى بهذه الأعداد الهائلة إلى سحب المواليد الأصغر سنّاً، أي غير البالغين.

ـ أخذوا منذ الآن يجنّدونهم في الجيش الشعبيّ[٧].

قالت مؤكّدة قوله.

ـ ولا يُستَبعَد أن يأتي دور زكي ذات يوم، لا سمح الله، هل تريدين أن تخسري الصبيّ؟

ـ أنا أخسر ابني؟

ـ فليحاول أن يغادر البلد!

ـ سيضيع في الشام، فهو لا يزال طفلاً.

قالت الأم بيأسٍ وإشفاق.

ـ أفضل من أن يموت في الجبهة.

ردّ الأب كاتباً هو الآخر قلقه وتخوّفه.

أمسك عن الكلام هنيهات ثمّ تابع كأنّه يكرّر معلومات يعرفها الاثنان:

ـ في استطاعة أخيك ببغداد أن يستقبله أسبوعاً، أسبوعين، شهراً، لا أكثر، فموسم الدراسة طويل، وحال الرجل ليست بأفضل من حالنا، فهو يعيش على راتبٍ حكوميّ بالكاد يكفيه ويكفي عائلته.

ـ أعرف.

ـ ونحن من جهتنا لا نقوى على إعالة زكي وهو ببغداد يدرس،

---

(٧) جيش من المدنيين مهمّته دعم الجيش الرسميّ وإسناده في الحرب العراقيّة الإيرانيّة.

وفق راتبي التقاعديّ المتهالك.

ـ أعرف، والله أعرف؟

ـ إذاً هل يبقى معنا هنا ويموت معنا بقذيفة إيرانيّة؟

ـ لا.

ـ ونحن لا نجرؤ على هجر بيتنا لأننا لا نملك مكاناً نأوي إليه، ووضع المدينة أصبح خطراً.

ـ أغلب السكّان تركوا البصرة.

ـ هل تريدين أن نرحل وننام في شوارع المدن الأخرى؟

ـ لا.

ـ أعطيني حلاً!

ـ يسافر زكي ونبقى نحن، والباقي على الله.

ردّت الأم مستسلمة.

ـ ليبق في الشام، في الأقل سيكون في مأمن ريثما تنتهي هذه الحرب اللعينة، ثمّ قد ينجح سالم في سحبه إلى الاتحاد السوفياتي عبر مكتب الحزب الشيوعيّ العراقيّ في دمشق.

أطرق الأب برهة ثمّ أكمل متوجّساً:

ـ هذا إذا نجح زكي في مغادرة العراق.

ـ سينجح.

قالت الأم بيقين أموميّ.

ـ آمل ذلك.

ـ بقي شيء أودّ أن أقوله لك مالِكْ.

ـ قولي!

ـ علينا أن نمترس الغرفة الجوانيّة ما دمنا سنبقى هنا.

ـ سنباشر بذلك غداً، ولو أنّ المتراس لا يغيّر في الأمر شيئاً، ومخزوننا كيف وضعه؟

ـ لدينا ما يكفي من الرز، والعدس، والزيت، والسكّر، والشاي. المعلّبات بدأت تقل، بخاصّة اللحم، هل سأستمر في شراء الخبز؟

ـ عندك خيار آخر؟

سأل مالك وهو يدرك في دخيلته أنها تلمّح إلى مشروعها القديم.

ـ أقصد أنْ نبني تتّوراً على السطح.

ـ هذا مشروع خياليّ سبق أن ناقشناه وانتهينا إلى أنّه غير قابل للإنجاز في ظروف الحرب والقصف.

ـ وإذا أغلق المخبز الوحيد أبوابه؟

ـ نستعين بالجيش.

ـ خبزهم يابس.

ابتسم الأب ابتسامة حزينة وقال:

ـ مثلك مثل ذاك الذي قطع صحراء الربع الخالي، حتّى إذا بلغ أوّل نقطة مأهولة والعطش يكاد يقتله طلب يشرب، ولـمّا لم يحصل إلّا على الماء قال محتجّاً: لا أشرب إلّا عصير أناناس.

ـ آ. عصير أناناس. لِمَ لا؟

علّقت الأم باسمة وشاعرة بأنها الآن تستطيع أن تنام.

غادرت غرفة الأب وتركته وحيداً يرنو إلى صورته في المرآة غارقاً في أفكاره.

أنشأ الطيران العراقيّ الليليّ يهدر في السماء، وتتالت انفجارات عنيفة في الجانب الإيرانيّ.

دلفت الأم إلى غرفتها ولم تغلق الباب وراءها، فالجو في الخريف لا يزال لطيفاً.

الفصل الخامس

تسكّع

لم يبدِ سالم حماسة لتعلّم اللغة السويديّة، فقد يُطرَد من البلاد حال نفاد مدّة إقامته المؤقّتة، غير أنّ إتقانه الإنكليزيّة عوّضه تعويضاً مناسباً.

توقّع حديثاً يقارب هذا الشأن وهو يذرع المسافة باتجاه مكتب الشؤون الاجتماعيّة تلبيةً لدعوةٍ من مسؤولته.

في الطابق الخامس من بناية تأخذ شكل مجمع حكوميّ انتظر في ردهة الاستعلامات زهاء ربع ساعة، إثر امرٍ فظٍّ من فتاة كدرة الملامح تقبع وراء حاجزٍ زجاجيٍّ مُثَقَّب.

فُتِحَ أحد الأبواب ونادته امرأة أربعينيّة بدينة، ترتدي بلوزة وتنّورة، وفي عنقها قلادة من فضّة وأحجار ملوّنة.

صافحته وقالت إنّ اسمها كاتارينا غوستافسون المسؤولة الجديدة البديلة عن ربيكا أولسون، ودعته إلى الدخول.

الغرفة فخمة الأثاث: طاولة ضخمة، كرسيّان وثيران، لوحات زيتيّة، خزانة، ضوء منضديّ أخضر، ونباتات ظل.

اتخذ مجلسه حدّ طاولتها. جرى نظرها في أوراق كانت قد رتّبتها أمامها وسألته:

ـ لماذا لا تبحث عن عمل؟

ـ وماذا أعمل؟

ردّ بلامبالاة.

رفعت عينيها وحدجته بنظرةٍ ثاقبة.

ـ وهل في استطاعتنا إعانتكَ طوال الوقت؟ عليكَ أن تعتمدَ على نفسك.

ـ صحيح، ولكن وضع إقامتي غير محسوم حتّى اللحظة.

ـ وقد تستمر في البقاء هنا، من أدراك؟

ـ عدم اليقين هذا يقلقني.

ـ جدْ عملاً الآن ودع الباقي للمستقبل!

ـ أرى لحسم كلّ هذي التفاصيل أن تبادروا إلى معرفة الحقيقة بشأن إقامتي قبل التحرّك باتجاه مكتب العمل.

ـ اتصلنا بدائرة الهجرة ولم نحظَ بجواب.

ـ وهل وراء ذلك سرّ أمنيّ؟

تردّدت كاتارينا قبل أن تجيب، وأخفضت عينيها كأنها تفكّر ملياً بما يمكن قوله:

ـ ليس غريباً ألّا تكون لدينا معلومات كافية بخصوص الإقامات، ولكن ماذا يقلقك بشأن الأمن؟

تساءلت ورمقته مستغربة.

ـ أنا لاجئ سياسيّ قادم من الاتحاد السوفياتي كما تعلمين.

ـ نعم.

ـ فهل يوجد مبرّر لعدم منحي إقامة دائمة؟

ـ لا أظن، إلّا إذا كان ملفّك لدى الاستخبارات السويديّة.

ـ أليس في وسعك التأكّد؟

رفعت سمّاعة الهاتف، دقّت رقماً وتحدّثت مع أحدهم طويلاً.

ـ لا شيء حتّى الساعة.

قالت وهي تعيد السمّاعة إلى مكانها.

ـ وبعد ذلك؟

ـ سنعلمك إذا طرأ شيء جديد.

ـ شكراً، ألا ترين أنّ وضعي لا يزال مرتبكاً؟

ـ ليس بدرجةٍ تمنعك من البحث عن عمل.

ـ لا مزاج عندي الآن. اتخذي أي إجراء ترينه مناسباً!

وسالم يدرك أنها لا تملك أن تقطع المساعدة التي يتلقّاها من دائرتها ما دام ملفّه قيد المعالجة، سوى أنها تحاول أن تزجّه في أي عمل متاح: زبّال، حمّال، غاسل صحون، سائق تاكسي، منظّف حمّامات.. إلخ تخلّصاً من تكاليف إقامته.

ـ عرفت أنك تهتم بالكتابة والأدب.

قالت على سبيل الودّ ورفع الكلفة.

ـ إلى حدٍّ ما.

نبشت دليل الهاتف ونقلت ما تريد في ورقة ووضعتها قدّامه.

ـ هذا عنوان مكتب اتحاد الكتّاب، زره علّكَ تجد صديقاً.. أو صديقة!

ابتسمت وبالها مرتاح.

ـ شكراً.

قال مغتاظاً من راحة بالها.

دسّ الورقة في جيبه وبارح الغرفة.

□□□

ركب سالم قطار الضواحي باتجاه الحديقة العامّة، وكان قد دأب على زيارتها منذ أن وطأت قدماه أرضها أوّل مرّة.

فالهدوء السائد فيها، كثافة أشجارها وجمال ورودها، يفتنه ويفعمه ببهجةٍ روحيّةٍ تبعده إلى حين عن صخب المدينة.

ممرّات الحديقة ممهّدة بالحصباء، الأجمات عالية ومنسّقة، تقوم بينها مساكب ورد ومساحات نجيل، تماثيل، مقاعد، ومقاهٍ.

إزاء الورود شُكّت في التراب الأسود الناعم لوحات معدنيّة تعلن عن أسمائها الطريفة: دالي دالي، مرتّى، سيرك، كريستال، الجنرال

جاك، دوروثي البيضاء، ذاكرة الهاها، تيتانيك، أوولالا، السيّدة أكس، بنغالي، لوليتا، مجنون من أجلك، رجل العصابات.. إلخ.

تحدّ التعريفة من دخول المشرّدين لكنها لا تحدّ من النمل الذي يدبّ تحت المصاطب، فيتسلّق الأرجل ويهيّج الجلد.

عفّر سالم التراب تحت مصطبة انتبذها قرب نافورةٍ قبيحة التصميم، شأنها شأن أغلب التماثيل في المدينة.

الشمس جذّابة ومؤنسة. حوله آباء وأمّهات يتمشّون، وأطفال يلعبون.

مرّ من أمامه بضعة فتيان، رمقوه بازدراء وسدّوا أنوفهم. لم يحفل بهم.

كان على وشك القيام بجولةٍ في الممرّات لـمّا أحسّ بعينين تحدّقان إليه. كانت امرأة عشرينيّة تحتلّ المصطبة المجاورة.

لـمّا نظر إليها رفعت ساقها اليمنى على المقعد فانزاح ثوبها كاشفاً عن عريها، ثمّ جعلت تملّس باطن فخذها ببطءٍ وهي تبادله النظرات المشحونة بالرغبة.

كانت المصطبات مصطفّة على جانبٍ واحدٍ من الممرّ المفروش بالحصباء. بين الواحدة والأخرى عدّة أمتار. تقوم أمامها مساكب ورد ونجيل، وقناة ماء تمتدّ من النافورة إلى حوضٍ مدوّر، تزيّن سطحه زهور نيلوفر، يرمي فيه الأطفال قطعاً نقديّة صغيرة لاجتلاب الحظ.

مشى سالم نحو المرأة وقد تملّكته شهوة جامحة. تريّث عندها

كابحاً ارتباكه، وألقى التحيّة عليها، وقد علت محيّاه ابتسامة مهزوزة.

رفعت وجهها إليه بابتسامةٍ مشجّعة، وبادلته التحيّة.

شحوب بشرتها البيضاء، رقّة نظرتها، إلفة ملامحها، اخضرار عينيها، التلقائيّة في حركة رأسها، كلّ سماتها توحي بأنّها سلافيّة.

لملابسها مقاسات وألوان تجعلها مغرية وأنيقة: ثوب ضيّق، قصير جدّاً، أزرق لمّاع، جاكيت خفيف أسود أقصر منه، جوارب شفّافة سود تشفّ عن لحمها الأبيض، حذاء أسود بكعبٍ عالٍ، ومحفظة حمراء.

مدّ يده وقال، وهو يجلس من دون دعوة:

ـ سالم.

ـ ماجدالينا.

صافحته بيدٍ رخصةٍ، دقيقة الأصابع، مطليّة الأظفار بطلاءٍ قرمزيّ.

ـ الطقس جميل، ومناسبٌ للنزهة.

قال سالم بصوتٍ متهدّجٍ، فاستدارت بكليّتها إليه في حركة تدعو إلى القرب والاهتمام والحميميّة.

ولمّا لم يكن هناك من أحاديث تجري بين غريبين سوى شؤون الطقس، وتلمّسات التعارف الأولى، فقد قال سالم من بين ابتسامته المتشبّثة بشفتيه:

ـ أنا من العراق.

ـ بولونيا.

ـ مقيمة؟

ـ لا، أتنقّل، أتاجر بالسلع في سيّارة.

ـ ملابس؟

ـ ملابس وأشياء أخرى.

ـ وهل تصادفين متاعب عند الحدود.

ـ المال يحلّ كلّ المشاكل.

إنكليزيّتها الضعيفة تجعلها تجهد في التعبير عن نفسها، فتعمد إلى الإشارة بيديها.

لم يكن سالم مهتمّاً بصدق كلامها، ولم يشغل باله أمرٌ أكثر من مدّ الحديث، ففي صوتها رقّة جذبته، كما جذبته وضعيّة جسدها: لفّة فخذيها، انحناءة ردفيها، تكوّر نهديها، وانسدال شعرها الأشقر على عنقها المحلّاة بقلادةٍ فضيّة.

في عينيها وشفتيها إغواء ودعوة إلى المتعة، وفي جسدها عري معروض.

ـ هلّا أخذنا كأساً؟

وافقت للفور، فتوجّها إلى المقهى الواقع على مقربةٍ منهما. انتحيا مقعدين متقابلين، وأوصى سالم على كأسي بيرة وبعض النقول.

ـ ألا ترغبين في شيء من الأكل؟

ـ لا، شكراً.

ـ على كلّ حال، سنذهب إلى شقّتي، وهناك سنعدّ ما نشاء من الطعام.

ـ وأين تسكن؟

ـ على مسافة عشرين دقيقة في قطار الضواحي.

لم تعقّب بشيء، وغشيت قسماتها علامات حيرة.

جاءت البيرة والنقول، حاسب سالم الخادم، وأخذا يشربان بتلذّذ وبطء. كان ينظر إليها والرغبة في النزو تتأجج في عينيه.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ يجب أن أعود مساءً إلى بولونيا.

ـ تأخذين كأساً أخرى؟

ـ تعال معي!

أمسكت بيده وسارا معاً إلى الظلّة الواقعة في ما وراء المخزن وقاعة الاحتفالات، حيث طاولة وكنبات خشب، في فسحةٍ تطلّ عليها أشجار كرزٍ وقيقب، وتظلّلها شجيرات ورد.

المكان شبه محجوب بالأغصان والورود والأوراق. نادراً ما يطرقه الزائرون، ولعلّه مخصّص للقاءات الحميمة.

عانقها واندمجا في قبلةٍ محمومة، ولسانها محشور في فمه.

سالم يدلكها بين فخذيها، وهي تجاريه في حركته، وعطرها يفعمه.

فكّت حزامه وأزراره، ارتمت عليه والتهمت عريه، حتّى إذا طالت

الواقي من جيبها وهمّت به كي يدخلها، قال بصوتٍ أرعشه الشبق:

ـ لا، ليس هنا.

رفعت إليه عينيها وسألت مستغربة:

ـ لماذا؟

ـ قد يمرّ أحدٌ ما.

ـ لا عليك.

ـ لنذهب إلى مسكني!

سوّت شعرها وملابسها وقالت:

ـ قُمْ! عندي فكرة.

سحبته من يده بعدما رتّب ارتباكه، إلى دورة مياه خاصّة بالمعوقين. تأكّدا من خلو المسلك المفضي إليها وولجاها. كانت نظيفة، لامعة، وواسعة.

خلعت ماجداليا سروالها ودسّته في حقيبتها، وعرّى سالم نصفه الأسفل.

لا يزال جسده صلباً جاهزاً لها. استخدمت واقياً وامتطته، وهو جالس على المقعد، وغابا في ضمّ وعناق. سالم يشدّها إليه بقوّة، وهي تضغط عليه بفخذيها وبطنها، حتّى غاص جسده عميقاً في تلافيفها المتوّجة بزغبٍ أشقر.

فارت الشهوة في دمه، فأراق فيها وهو يئنّ من فرط النشوة.

كانت ظلال الأشجار المتطاولة تغدق على الحديقة شعوراً بحلول العصر، فيما تخلّفت ذيولٌ من شمسٍ خفيفةٍ، راحت تأتلق في أرجاء مملكة النبات.

باس سالم ماجداليا، ودّعها، ودسّ نقوداً في حقيبتها، فارتسمت ظلال رضا وغبطة على وجهها، ثمّ مشت ناحية ممرّ الخروج وتبدّدت كحلم، تاركة سالماً يتمشّى وحده، وقد قرّ عزمه على العودة إلى مسكنه.

كان الندل يتهيّأون للإغلاق، والزوّار يدبّون ذاهبين إلى مآويهم بخطى وئيدة.

الحديقة تفرغ شيئاً فشيئاً، وروح الأمكنة الخالية من الناس تسود.

الفصل السادس

سماء بلا طيور

على الرغم من نصائح أمّه وتحذيراتها كان زكي يتسلّل من البيت حين ينتابه الضجر، مع فضول يحدوه على التفرّج وعلى معايشة شيء جديد، فالحرب مع كلّ ما تعنيه من خطرٍ ومآسٍ تظلّ بالنسبة إليه مغامرة وفرجة.

يسلك الطريق المؤدّي إلى جسر المقام ثمّ يتأنّى مقلّباً بصره في الخراب من حوله: في دكاكين السوق ومخازنه، في خاناته العثمانيّة ومكاتبه ومشاغله: جدران مهدّمة، حدائد متناثرة، أسلاك متدليّة، أبواب مخلّعة، أكوام أخشاب وطابوق وحجر وآجر وتراب. أماكن كانت حتّى وقتٍ قريب تغصّ بالناس والحركة والحياة. الآن لا ترى غير بضعة جنود بين ركام الجدران والسقوف: يأكلون، أو يعدّون الشاي، أو يتغوّطون، وثمّة كلاب تجول في الخرائب أو تقعي بين المزابل، تنظر بكسل وألسنتها متهدّلة: كلاب سقيمة، وسخة، جائعة، ومتوحّشة، يرميها الجنود بحجر ما إن تقترب منهم.

لا أحد يدري بالضبط من أين تأتي الأوحال إلى الشارع، فموسم الأمطار لم يحن بعد، إلّا أنّ رائحة النتانة العالقة في الهواء تدلّ على أنّ القنابل فجّرت أنابيب التصريف والمياه في مكانٍ ما تحت الأرض.

يحبّ زكي أن يقطع الدرب المحاذي لنهر العشّار[٨] بدلاً من اجتياز سوق (الهنود)، فالمشي داخله أصبح شاقّاً بفعل المباني المتفجّرة، وأنقاض الأحجار الضخمة، والأعمدة والأخشاب المنهارة التي تراكمت في مسالكه ومنافذه.

الطقس لطيف معتدل، السماء زرقاء سوى أنها بلا طيور: فلقد فرّت شأنها شأن البشر من لعنة بعض البشر.

وكان الهواء يملأ الأنفاس من آنٍ لآن برائحة بارود وعوادم آليّات.

على ضفتي النهر متاريس ومواقع لمدافع مضادّة للطائرات، أمّا الشارع الرئيس فغدا ممرّاً مهمّاً للشاحنات العسكريّة وسيّارات الجيب والمركبات الموسقة بالدبّابات والمدافع المتجهة إلى جبهة الحرب، في الضفة الثانية من شطّ العرب.

قطع سماء المدينة سرب من طائرات عراقيّة عصف بالأعالي، ما لبث لـمّا توارى أن تعالى هدير قصف هزّ الأرض، فبدا كأنّ الشمس نفسها قد ارتجّت.

---

(٨) العشّار: منطقة في البصرة يشقّها نهر تعلوه جسور عديدة. وتضمّ في ما تضمّ من أحياء قديمة، محلّة مقام علي وجامعها وجسرها.

ها هي أعداد كبيرة من الآليات العسكريّة والجنود والضبّاط بأسلحتهم وخوذهم تتدفّق الآن، حتّى لتكاد الجسور ومستديرة (أسد بابل)[٩] والسبل المفضية إلى شطّ العرب لا تتسع لكلّ هذه الحركة الكثيفة والمتواصلة.

ـ هويتك!

أوقفه حاجز للشرطة العسكريّة أوّل الجسر. أبرز زكي بطاقة الهوية لمن أوقفه ثمّ مضى ينقّل عينيه بين باقي أفراد الحاجز. كانوا يقتعدون أكياس الرمل، يشربون الشاي ويأكلون غير مكترثين له: وأفراد الشرطة العسكرية جنود لكنّهم لا يحاربون.

يتمنطقون بأحزمةٍ بيض وعلى أذرعهم شارات بيض وحمر، بعضهم يعتمر خوذاً عاديّة والآخر قبّعات حمراً.

سأله العسكريّ:

ـ أنتَ لماذا لا تغادر المدينة؟

لم يحر زكي جواباً، بيد أنه قال في نهاية المطاف:

ـ لا أدري.

فأشاح العسكريّ بوجهه وتشاغل عنه بحديث مع سائق سيّارة عسكريّة توقفت قربه.

---

(٩) مستديرة أسد بابل: تقع قرب جسر المقام في البصرة. تنتصب فيها نسخة جبسيّة من تمثال أسد بابل. نصبها الغزاة البريطانيون في أعقاب احتلال المدينة في الحرب العالميّة الأولى.

أسرع زكي ميمّماً وجهه ناحية جسر المحافظة، فأوقفه حاجز ثانٍ يقوم على كثبٍ من مبنى المحافظة.

ـ أوراقك!

وكرّت الأسئلة ذاتها تقريباً بعد تفحّص بطاقة الهويّة.

ـ أين تسكن؟

ـ محلّة مقام علي.

ـ إلى أين تذهب؟

ـ البصرة القديمة.

ـ لماذا؟

ـ شغل ضروريّ.

ـ الأفضل أن تبقى في البيت، فالقصف قد يتجدّد في أيّة لحظة.

ـ سأعود بسرعة.

ـ وأهلك؟

ـ أمّي وأبي في البيت.

يسمحون له بالمرور متمنّين له السلامة، فيواصل سيره.

تخفّ المتاريس بالتدريج وتختفي نقاط التفتيش، وتلوح المباني الرسميّة، والبيوت، والدكاكين، وورش إصلاح السيّارات، وعيادات الأطباء، ومكاتب المقاولات، والمحال التجاريّة، مرتّجة الأبواب والشبابيك. لا مارّة، ولا عربات باعة على الأرصفة، والشطّ ساكن

هامد، مياهه خضراء بلون الأشنات والأعشاب النامية في قاعه. سينما الحمراء مقفلة، زجاج واجهتها محطّم.

المدينة وهي مقفرة تبدو مغبرة وكالحة، كما تشيع في الوقت ذاته انطباعاً بأنها عارية ونائية. المدينة تتهدّم شيئاً فشيئاً لكنّها لا تلفظ أنفاسها، لا تموت.

وصل زكي إلى محلّة السيمر، أوّل البصرة القديمة. شاهد نفراً من المارّة يغذّون السير نحو الأزقّة ثمّ يختفون فيها.

وثمة سيّارات مدنيّة قليلة تمرق بين المركبات العسكريّة المنطلقة صوب شطّ العرب.

ألمّ بمنطقة باب الزبير ثمّ انعطف يميناً مفارقاً الشارع العام. هذه الأنحاء كانت تضجّ بعربات الحنطور قبل الحرب.

سار في جادّة داخلية، لم يلمح أحداً من قاطنيها، حتّى انتهى به المطاف إلى بيت له شبّاك واطئ مسدود، وباب خشبيّ عتيق تَقَشَّر طلاؤه البنيّ.

كان اللحظة مواربا، مع ذلك قرع الجرس الكهربائيّ ولبث ينتظر. بلغه صوت من الداخل:

ـ من؟

ـ أنا زكي.

ـ ادخل! الباب مفتوح.

في وسط حوشٍ دائريّ تحيط به ثلاث غرف، وقف شاب في

عمر زكي بملابسه الرياضيّة يتدرّب على رفع الأثقال، وحوله تنتشر أقراص حديديّة وقضبان خاصّة بها.

أقبل عليه زكي وصافحه:

ـ مرحبا سامي.

ـ أهلاً زكي. كيف الطريق؟

ـ شأن كلّ مرّة.

ظهرت عند باب المطبخ امرأة في الثلاثين من عمرها. بيضاء، قويّة، قصيرة الشعر، جميلة، ترتدي ثوباً منزليّاً من الكتّان المورّد، تمسك بيدها ملعقة معدنيّة كبيرة، كانت تستخدمها في الطهي. بان وجهها حزيناً ومتعباً وهي تنظر إلى زكي وتبتسم ابتسامة مرحّبة:

ـ مرحبا زكي!

ـ أهلاً أم سامي.

ـ جئت في وقتك. سيجهز الغداء عمّا قليل.

ـ شكراً! أنا جائع. لم أفطر. لقد هربت من البيت.

ـ معها حق أمّك. تخاف عليك. أنت تقطع مسافة طويلة حتّى تصل إلينا. أوشكنا أمس أن نموت. فلقد سقطت عدّة قذائف على حيّنا.

ـ أنا أضجر، وهل البقاء في البيت يقيني من القصف؟

ـ الجدران تحمي من الشظايا. نعم.

قالت ذلك ثمّ توارت في المطبخ وهي تواصل الحديث، إلّا أنّ

زكيّاً لم يسمعها بوضوح فلزم الصمت. ثمّ قال لسامي الذي كفّ عن التمرين احتراماً لحضور صديقه:

ـ استمر، لا تكترث لي!

ـ يمكننا أن ندردش وأنا أتمرّن.

دأب زكي على زيارة بيت سامي لأنه لا يجد ما يفعله، ولأنه يريد أن يتبادل الحديث مع أحدٍ ما غير أمّه وأبيه، فسامي زميله في الصف الرابع الثانوي، وأمّه طيّبة وتحبّه مثل ابنها.

غالباً ما يكون الأب غائباً. له زوجة ثانية في بيتٍ آخر، وعنده أولاد منها.

على كرسي أمام المطبخ حدّ باب غرفةٍ مفتوح يجلس زكي. هو على الأرجح الكرسي الذي يرتاح عليه صديقه بين فصول التمارين. طالع حذاءه. كان متربّاً جداً من وعثاء الطريق وكعبه ممسوحاً. ملابسه مغبرة أيضاً. خجل من نفسه.

ـ كلّي تراب.

قال بصوتٍ خفيض.

سأل سامي من بين لهاثه:

ـ ماذا قلت؟

ـ كلّي تراب.

ـ ماما، جهّزي الحمّام لزكي!

فسارع زكي مستدركاً:

ـ لا. سأتحمّم في البيت.

ظهرت الأمّ ثانية على باب المطبخ وتفرّست فيهما.

ـ من يريد أن يتحمّم؟

ـ لا. لا أريد.

ردّ زكي.

ـ سأجهّز الحمّام متى شئت.

ثمّ عادت أدراجها إلى الداخل.

ـ سأغادر العراق.

قال زكي.

حدّق إليه سامي وقال:

ـ متى؟

ـ لا أدري.

أمسك زكي عن الكلام قليلاً ثمّ تابع:

ـ أنا لا أملك جواز سفر.

ـ في ميسورك الحصول على واحد.

ـ وأنت، لماذا لا تحاول أن تسافر؟

ـ رفضت أمّي، لأننا سوف نلجأ إلى بيت أهلها في الناصريّة.

ـ ولماذا تأخّرتما كلّ هذا الوقت؟

ـ أهلها فقراء، ويعيشون في أخصاص خارج المدينة.

ـ وكيف ستعيشان معهم؟

ـ ما المانع، إذا كانوا يحبّوننا ويودّون أن نقيم عندهم؟

ـ في بيت من القصب؟

ـ لا خيار أمامنا، فالإقامة في البصرة أضحت خطرة جداً.

ـ وبيتكم هذا، قد يُنْهَب؟

ـ سيطلّ عليه أبي من وقتٍ لآخر.

أقبل زكي على الغداء بشهيّة، وتداولوا قصص السفر، وكانت الأمّ متحمّسة أكثر للرحيل لأنّ الأمور تسير من سيئٍ إلى أسوأ، والإيرانيون كما يبدو مصمّمون على احتلال المدينة.

عصراً غادر زكي منزل صديقه ومشاعر ذنب تساوره لتأخّره في العودة إلى البيت.

كانت أم سامي قد حمّلته كيساً معبّأً بالحلوى والكعك على رغمه، لأنه يفضّل أن تبقى يداه طليقتين، ولكن من يستطيع الصمود أمام إلحاح أم سامي وإصرارها؟

قفل راجعاً في الطريق ذاته فترامى إليه صوت قصف بعيد راح يقترب.

ثمّ بدأ الوضع يتدهور نحو الأسوأ، إذ أمسى القصف يُسمع بوضوح.

أوشك أن يؤوب إلى بيت سامي غير أنه خشي أن يستبدّ القلق بأهله وتتناوشهم الوساوس بشأن غيابه.

وكان كلّما حثّ خطاه ازداد صوت انفجار القنابل وضوحاً، حتّى إنّ حركة المرور غدت نادرة.

اتخذ من مدخل أحد البيوت ساتراً له.

لبث مضطرباً حتّى شاهد شاحنة عسكريّة مسرعة، تحوّل نحوها وأشار للسائق فاستجاب له وتوقّف بحذاء الرصيف كعادة سائقي شاحنات الجيش في حمل أي عابر سبيل تقطّعت به السبل.

صعد زكي إلى الشاحنة وجلس إلى جانب السائق.

وكان جنديّاً شاباً متربّاً، حاسر الرأس، وغير حليق.

ـ السلام عليكم.

قال زكي.

ـ وعليكم السلام.

ردّ السائق ثمّ أقلع بشاحنته من دون أن يتفوّه بكلمةٍ أخرى.

كانت حركة السير خفيفة جداً، والجنود انكفأوا داخل متاريسهم. نقاط التفتيش مهجورة، واختفى المارّة الذين كانوا أصلاً نادرين، وسدّت الدكاكين القليلة المتمترسة داخل البنايات فتحاتها.

هدير القصف يشتدّ قوّة، ودخان كثيف أسود يرتفع في عنان السماء.

الأرض تختضّ فتهزّ البيوت والشوارع والساحات.

كانت القنابل تنهمر على الضفة الشرقيّة لشطّ العرب.

ـ هنا أخي شكراً.

قال زكي للسائق وأعطاه بعضاً من الحلوى والكعك فتقبّلها مبتسماً وشاكراً.

غادر زكي الشاحنة وجرى ناحية البيت، بينما أصوات الانفجارات تصمّ الآذان، والحجارة تتساقط من جدران المباني على الأزقّة والدروب والمسالك.

ثمّ وفي لحظةٍ واحدةٍ عصفت بالسماء أسرابٌ من الطائرات العراقيّة المندفعة بجنون نحو الأراضي الإيرانيّة فتوقّف إثرها قصف المدافع الإيرانيّة، ولكنْ.. إلى حين.

الفصل السابع

اذهب إلى القصر!

الشقّة التي يسكنها سالم صغيرة، مكوّنة من حجرة واحدة وممر. مجال الحركة فيها محدود جداً إذا ما حسبنا حساب الأثاث الضروريّ.

ها هو يقضي وقته أمام التلفزيون أو في المطبخ يعدّ الطعام ويجلي. يلوذ أحياناً بالنافذة إذما يضيق بالجدران وضآلة المكان.

يتأمّل الغابة والجادّة والسماء فيتذكّر أنه لطالما عاش في غرفٍ ضيقةٍ ومهملة، لا يرتادها إلّا لينام فيها، ثمّ يبرحها بعد فترةٍ من الزمن تطول أو تقصر بحسب تقلّب الحوادث والأزمان.

في وسعه أن يقول إنّه يحصل دائماً على زاويةٍ على قدّه، هي نفسها تقريباً تتكرّر مُذْ وعى أنه يحتلُّ حيّزاً ما مُقْتَطعاً اتفاقاً من هذا العالم.

أعلاه تسكن عائلة صومالية يتصايح أطفالها ويطيّرون بصاقهم من

الشرفة على المرج، ويلقون على شرفته أحياناً نعالاً وطابات وأشلاء دمى.

قبالته شقّة كرواتيّ عجوز، لمحه غير مرّة يلتقط علباً وقناني من مزابل المدينة.
تحته تقيم فتاة يابانيّة تسكر وتسهر وتعالج أحياناً قفل بابه خطأً بعد منتصف الليل، وإذ يفتح لها ترتدُّ وتوصوص: أوه.. معذرة. ثمّ تهرب.

قرع الباب مرّةً رجل ملحاح، ما لبث أن نظّم له فاتورة وأشرعها أمامه قائلاً:

ـ عليك أن تدفع بدل اشتراك في القنوات التلفزيونيّة الحكوميّة!

ـ وهل تكلّف مشاهدة التلفزيون مالاً؟

ـ نعم وسماع الراديو أيضاً.

ـ وإذا كنت لا أفهم لغتكم، فكيف أبتاع شيئاً لا يفيدني؟

ـ كلّ من يمتلك شاشة لعينة في هذا البلد اللعين يتعيّن عليه دفع بدل اشتراك إلى الحكومة، طابت ليلتك.

ثمّ رمى الفاتورة عليه ورحل كأنه يقبض راتباً لمعاقبة الناس فحسب. لم يحفل به كثيراً فكاتارينا غوستافسون ستدفعها والسلام.

تناول علبة بيرة (فالكون) من البرّاد. طقّها، احتسى منها حسوة ووضعها على الطاولة، ثمّ أنشا يقطّع شيئاً من الجبنة ويعدّ حمّصاً

مطبوخاً وسلطة، وفكرة ارتياد أحد المشارب تطوف بذهنه، وأغنية (ليزا مينلّلي) في فيلم (كاباريه) تتراقص على شفتيه:

«لا تبقَ في البيت وحيداً!

تعال إلى هنا!

تعال إلى الكاباريه»!

ما عنده من دراهم بالكاد يكفيه، غير أنّ جولة في مشارب المدينة ستخفّف بالتأكيد من حيرته وتردّده في اتخاذ قرار حاسم. ذاك أنه أوشك أكثر من مرّة أن يعيد الاتصال برفاقه في الحزب الشيوعيّ العراقيّ للعودة إلى الاتحاد السوفياتي نادماً، مع أنه ليس متيقّناً من أنهم سيرحّبون به، لا يدري، لا يشعر بالراحة في هذا البلد، فالناس يقيمون جداراً من الريبة والاحتقار والكراهيّة بينهم وبين الأجانب، هذا فضلاً عن هشاشة إقامته أصلاً.

رنّ جرس الباب. أسرع وحدّق عبر الناظور. كان متشرّداً يتململ في وقفته. شعره مهووش وعيناه حمراوان. لم يفتح سالم الباب. انكفأ المتشرّد وطرق باب الكرواتيّ. فطرده ذاك شرّ طرده، فاتكأ المتشرّد على الحائط يائساً ثمّ انهار متكوّماً على الأرض مرّةً واحدة وأخذت تتسع تحته بركة من البول.

لا بدّ أنّ أحدهم بلّغ الشرطة: الكرواتيّ على الأرجح، إذ بعد ما يقارب الساعة سمع سالم جلبة في البناية. عاد واسترق النظر من خلال الناظور فإذا بشرطيين يحاولان حثّ الكومة البشريّة المتهالكة على الوقوف.

نجحا بعد طول عناء، ومضيا بها خارج البناية. في إثرهم جاءت

امرأة، غسلت الأرض ومسحتها، ثمّ توارت مع سطلها وممسحتها.

مالت السماء إلى العتمة. اشتعلت مصابيح الشارع، وتلفّعت الغابة العارية من أوراقها بالظلام، وظهر قمر أصفر كبير يلقي بأشعّته الفضيّة على الغيوم.

شرب سالم أربع علب. تملّكه إحساس لذيذ بالخدر، بيد أنه لم يسكر. أطفأ التلفزيون. أطلّ من النافذة العريضة فرأى امرأة تقود ثلاثة كلاب ضخمة. ترى أيتخذن من الكلاب وسيلة للهو في الفراش كما نما إليه ذات يوم من أحد الخبثاء؟

لبس ملابسه، زادها كنزةً صوفيّة تحوّطاً من برودة الليل، وانتعل حذاءً جلديّاً أبيض لمّاعاً.

الدرب خالٍ كالعادة مساءً، يوحي بالوحشة والنأي.

الغابة المعتمة المتاخمة للحي تثير في النفس شعوراً بالغموض. في الأعالي برقت نجوم من بين فجوات الغيوم بعيداً عن القمر. أضواء الشارع ساطعة تنير الخلاء، والصمت يلفّ الدروب.

انبثقت من طريق فرعيّ امرأة عجوز تحمل نشرات ومجلّات. عرف من أوّل نظرة إليها أنها مبشّرة من طائفة (شهود يهوه)[١٠]، كثيراً ما رآها تتسكّع في أحياء المهاجرين المسلمين، حثّت

---

(١٠) شهود يهوه: طائفة تبشّر بملكوت الله الذي سينهي عمّا قريب كلّ شر ويحوّل الأرض إلى فردوس، كما تشجّع على الإيمان بيسوع المسيح، إلاّ أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تعتبر أتباعها مارقين.

خطاها صوبه مسرعة وناولته بعضاً مما بين يديها ثمّ مضت في سبيلها.

انحدر نحو قطار الضواحي، ركبه وجلس في جوار فتاة شقراء لها ساقان مغريتان ببنطلون جينز ضيّق.

فالبيرة كما يبدو أنعشته وخفّفت من حرجه وتردّده.

خطر له أن يقدّم لها مجلّة (شهود يهوه) من أجل تبادل الحديث معها، ففعل. حملقت فيه مندهشة، لعلّها ظنّته مجنوناً، لكنّها لم تردّ يده، إنما أخذت المجلّة مع ابتسامة مجاملة ثمّ عادت إلى وضعيتها الحذرة والمتجهّمة. ظلّت فترة قابضة على المجلّة في حضنها ثمّ دسّتها خفية بين المقعد وجدار العربة ونزلت في المحطّة التالية.

لدى مغادرته القطار ألفى ساحة (برونز باركن) مزدحمة بناس يجولون في كلّ الجهات وقد استبدّت بهم حمّى احتساء الكحول وارتياد المطاعم والمراقص والمشارب.

أنوار مصابيح الأعمدة الكهربائيّة، وأضواء المشارب والمتاجر النيونيّة البرّاقة، تضفي زينة لونيّة على خلفيّة ظلام عميق.

عبر قناة الميناء وتوغّل في الدروب. كانت الأضواء تخفت وتتباعد إلى أن لاحت الكنيسة الألمانيّة[١١] في العتمة.

هذه الأنحاء لا تجذب زوّار الليل وروّاد اللذة. تبقى خالية

---

(١١) الكنيسة الألمانيّة: أسّسها المهاجرون الألمان عام ١٦٣٤.

وموحشة، تتوارى في أردية الظلمة والصمت كلّما غاب ضوء النهار. لذا كان سالم يؤمها من وقتٍ لآخر، ففيها يجد راحةً لنفسه وهدوءاً لروحه.

مشى يتسكّع على غير هدى حتّى أفضى به الطريق إلى أحد المشارب، لدى بابه يقف حارس متين البنيان، لم يرحّب به، بل مضى يطالعه بسخرية.

ـ ما الأمر؟

سأل سالم منزعجاً.

ـ هذا المشرب للمراهقين.

ـ وهل المشارب بحسب الأعمار؟

ـ إلى حدٍّ ما، الأجواء، الموسيقى، المزاج.

ـ وأي واحد يناسبني في رأيك؟

ـ القصر.

قال ذلك وأشار إلى مبنى أبيض يشبه مباني القرن التاسع عشر.

اتخذ سالم الجهة المعاكسة في ردّ فعلٍ احتجاجيّ. سار بحذاء القناة صوب منطقة (دوم شيركان) الشهيرة بكاتدرائيّتها. في مواجهتها بار تحت أرضيّ، ما إن ولجه حتّى وجد نفسه مطوّقاً بحشدٍ من الناس، يشربون ويثرثرون في مكانٍ ضيّق، فيما تسود ضجّة مكتومة. استطاع بالكاد الحصول على كأس بيرة، ولا مكان للجلوس.

مكث واقفاً يشرب. اعتراه شعور بالضيق وبالرغبة في المغادرة. دنا

منه رجل يتعتعه السكر وعيناه غير المستقرّتين تومضان بالخبث:

ـ لن تجد نساء هنا.

قال.

ـ وأين أجدهن؟

ـ في مرقص القصر.

ـ شكراً.

نبرها سالم كما لو أنّه يطرد ذبابة تزعجه، ثمّ لاذ بالصمت ولبث يحتسي مشروبه في جرعات كبيرة، حتّى إذا فرغ منه غادر إلى حيث القصر الشهير.

فتيان وفتيات يتسكّعون في أرجاء الساحة والشارع، يشربون، يتقيّأون، يتبوّلون، يتصايحون، وثمّة سيّارة شرطة رابضة عند الجسر متأهّبة تراقب.

الكلّ مبتهج، الليل رائق، وأضواء الأعمدة الكهربائيّة تنوّر الأمكنة التي تبقى أعماقها على نحوٍ ما مظلمة.

مدّ سالم بصره إلى الساعة المعلّقة على الساحة. الوقت يقارب التاسعة.

دفع تعريفة الدخول إلى مرقص القصر ودخل. لقي المبنى على شكل قصرٍ فخم، الأروقة والممرّات والزوايا والحجرات تغصّ بالشاربين، والندلُ يوزّعون المشروبات ويلمّون الفوارغ.

طلب كأس بيرة من أحد الندل وأخذ يشربها واقفاً. ثمّة في حلبة

الرقص كان الناس يرقصون. استرعى نظره كرسي شاغر لدى طاولة تحتلّها فتاتان في العشرينات من عمرهما، فتوجّه إليهما واستأذنهما في الجلوس. رحّبتا به مبتسمتين تحفّزهما ولا ريب رغبة في إحداث تغيير ما في مساءٍ يتكرّر ولا يحمل جديداً.

لاحتا أوّل وهلة كبنات الهوى، بطبقة الماكياج الكثيفة، ببنطالي الجينز الممزّقين على طريقة (البانك)، وبالأثداء المتواثبة عبر فرجتي القميصين المفكوكي الأزرار.

بسط يده إلى الأقرب إليه مع ابتسامة عريضة على شفتيه وقال:

ـ سالم.

ـ روزالي يوهانسون.

قالت وهي تصافحه. أحنت الأخرى رأسها معرّفة بنفسها:

ـ هيلين بيترسون.

دعاهما إلى كأسي بيرة. أعجبته روزالي: رشيقة، وجهها جميل، تحلّيه غمّازتان، عيناها زرقاوان صافيتان، شعرها أشقر أجعد، ويداها ناعمتان.

بدأ فاصل جديد. طلب مراقصتها فقبلت.

شرعت تلتزّ به، تضغط ثدييها على صدره وتدسّ فخذها بين فخذيه. أحسّ بالانتعاظ والانتصاب. انزلقت يده على ظهرها واستقرّت على مؤخّرتها، فرمته بنظرة إعجاب. عادا حالما انتهى الفاصل إلى جانب هيلين.

ولهيلين هذي مسحة رجوليّة، قَصَّة شعر قصيرة، قسمات بارزة ولكنْ جميلة، عينان زرقاوان، وثقة عالية بالنفس.

ـ من أي بلد أنت سالم؟

رنت إليه هيلين مستوضحة.

ـ الاتحاد السوفياتي.

ـ الأصل؟

ـ عراقيّ.

ـ أتسكن في الجوار؟

ـ لا. أسكن في هيسينغن.

ـ هيسينغن جزيرة كبيرة مترامية الأطراف؟

ـ آ. في حي حديقة البطريك.

ـ كيف وجدت البلد؟

ـ أنا قادم حديثاً.

ـ لغتك الإنكليزيّة جيّدة.

ـ تعلّمتها في المدرسة.

ودار الحديث، ترويه البيرة، وتخامره نغمات ضحك وغزل، وتقطعه بين آونةٍ وأخرى فواصل رقص، عرف سالم خلاله أنّ الفتاتين عاملتان في متاجر (هَمْ شوب) لبيع المواد الغذائيّة، وأنّهما شأن أغلب الفتيات تقضيان فترة راحة في عطلة نهاية الأسبوع.

لا تكترثان للسياسة، ولا تعرفان شيئاً عن العراق وأهله، باستثناء

رئيسه الذي يعرض التلفزيون السويديّ صوره في الأخبار، بمناسبة الحرب، دع عنك أنّهما لا تفرّقان بين العراق وإيران. ولم يفته ميلهما إلى تأمّل الآخرين في نظرات مفكّرة، وانتباه مركّز.

انغمست هيلين في الرقص مع شابٍ آخر يحاكيها في العمر، فاسحة في المجال لروزالي للاستمتاع بوقتها، وهو تواطؤ يغلب على سلوك الفتيات في عالم الليل، ينمّ عن سعة صدر ومحبّة، فاحتمالات العشق في منطقة صيد واسعة في ليل المشارب متعدّدة، متاحة للجميع، وحافلة بالفرص لكلّ راغب وفي كلّ لحظة.

الأضواء الخافتة، الحشد المكتظ، السكر، العري المسفوح، الضجّة المكتومة، أضعفت قدرة سالم على السيطرة، فصار أكثر كرماً في دعوة روزالي إلى الشرب، وأكثر إلحافاً في مراقصتها والالتصاق بها، وفي لحظة حريّة منفلتة إبّان الرقص، قرصها قرصةً خفيفةً في مابين فخذيها. امتعضت وحدجته بنظرة لوم. فاعتذر لها، وفي اعتذاره كان ملحاحاً أيضاً من جرّاء الشرب.

اشتهاؤه لها واضح، لكنّ الفتيات لا ينجرفن في التهافت المبتذل أمام الأنظار، ويستأنن من المداعبات الخشنة في مناسبات التعارف الأولى.

غير أنّ ولع سالم بها، زادها من ناحية أخرى فرحاً بأنوثتها، وجمال جسدها، وبكونها مرغوبة ومُشْتهاة، وهي في دخيلة نفسها تسعد بالغزل الذي يهيّجها ويثير شهوتها.

إنّ الشبق ليمتّعها، ويشعل جسدها باللذّة.

أدرك السكر سالماً، واجتاحته مشاعر حبٍّ جارفةٍ نحو روزالي، ورغبة لحوح في العناق والاحتضان، مع أنّه بدأ يحسّ بأن التعب نال جزءاً غير يسير منه، فحدّ من حيويّته. ارتخاء ما يداخله، وميل إلى الراحة والاستلقاء يخالج أعضاءه.

همست روزالي في أذنه: لنذهب!

الليل يشي بالهدوء، ثمّة سكارى ما برحوا يتسكّعون في ساحة (برونز باركن)، فتاة واقفة تنتظر، تحمل قنّينة مشروب وتدخّن. مرّ شباب يضحكون، ووقف واحد يتبوّل في النهر.

أضواء المتاجر الملوّنة ومصابيح الشوارع تزيّن الظلمة، فلا تنتاب المرء وحشة. سيّارات الأجرة في حركة دائبة، وقطارات الضواحي الليليّة المتوهّجة النوافذ بأنوارٍ صفر، تدبّ نحو أكناف المدينة.

تنسّم سالم الهواء الطلق، وامتلأ بمشاعر الحريّة واللامبالاة، وهو يسير إلى جانب روزالي. سلكا درباً لا يفضي في كلّ الأحوال إلّا إلى أرجاء منطقة (بوّابة الملك) التجاريّة.

أتقوده إلى مسكنها مثلاً؟

ودّ أن يسألها عن وجهتها، لكنّه تغاضى عن تساؤلٍ قد يخفي في طيّاته شعوراً بعدم الثقة، وليكن امتثاله لها في الذهاب إلى مكان اختارته لهما مغامرة، ستفعمه ولا شكّ بالمفاجأة.

في الجوّ بردٌ لافتٌ. زرّرت روزالي قميصها، ووضعت عليها جاكيتاً جلديّاً بنيّاً.

كانت تسير ملتصقة به، تتأبّط ذراعه، وتلتزم الصمت.

اخترقا ساحة صغيرة تدعى (بوصلة)، وولجا زقاقاً ينتهي بشارع يحاذي النهر.

امتدّت قبالتهما الحديقة العامّة معتمة، يعمّها السكون. إلى يمينهما تبدّى جسر (بوّابة الملك) مزداناً بالأنوار الكهربائيّة.

المقاهي مقفلة، المطاعم تعجّ بالروّاد، وعالياً في سماء الليل المدلهم نجوم شاحبة لا تومض.

هذا الشارع المتفرّع من منطقة (بوّابة الملك) يتّسم حتّى في النهار بحركةٍ خفيفة، فكيف به وهو في هذه الساعة المتأخّرة من الليل. ها هو يتبدّى خالياً جهماً، والصمت يطبق عليه.

ألمّا بسيّارة فولفو حمراء، فتحت روزالي بابها ودلفت إلى مقعدها الخلفيّ. دخل سالم في أعقابها، وجلس ملتزّاً بها.

شعوره بالضيق دفعه إلى الاستفسار:

ـ لماذا لا نذهب إلى شقّتي؟

ـ عليّ أن أعود إلى هيلين، ما لَك؟

ـ المكان ضيّق.

ـ لا عليك، انسَه!

ضمّها إليه وتباوسا. غمست لسانها في فمه، وراحت تشدّ بيدها ما بين ساقيه، فعل مثلها، فتح سحابها، وطالت أصابعه سروالها ولحمها المبلّلين. تملّكه شعورٌ بأنّه لا يزال مرتخياً، ويحاول نسخين جسده وإثارة غريزته أكثر من إمتاع نفسه ورفيقته.

شدّة وعيه بحالته أفقدته القدرة على الانتعاظ الطبيعيّ. حرّر نهدها وأخذ حلمته بشفتيه. عرّت روزالي وسطه وتناولت عريه بفمها. بذلت جهداً في ذلك، فيما استبدّت بسالم نوبة ذعر من عدم جهوزيته للوصال، ما صرف ذهنه عن فعل المداعبة.

إنّ عدم استجابة جسده لرغبة صاحبته في الانتصاب كبحت انتعاظه بالكامل، فارتدّ مرتكساً. لانَ لحمه وتهدّل مثل خرقةٍ مبلولة.

كان نهداها مسفوحين على فخذيه، ووجهها بين ساقيه. تحاول بشفتيها ولسانها تهييجه، ولكن من غير جدوى. كان سالم يجلس مغطّياً وجهه بذراعه اليمنى من فرط شعوره بالخجل. قال بصوتٍ متهدّجٍ مستسلماً لعجزه:

ـ كفى روزالي! لا أظنّني أستطيع ذلك.

رفعت نظرها إليه وقالت:

ـ ما بالك؟

ـ لا أدري، لقد أفرطت في الشرب.

ابتعدت عنه بوجهٍ مكفهرٍّ. لمّت قميصها على نهديها وزرّرته وقالت وعلى فمها ابتسامة مغتصبة:

ـ حسنٌ، في وسعك الذهاب الآن. خذ قسطاً من الراحة والنوم!

سوّى ملابسه، مال عليها وقبّل شفتيها المستاءتين في محاولة لإرضائها وتهدئة مشاعرها. غادر السيّارة وإحساس بالخزي يغمره. مشى مبتعداً متثاقلاً، وروحه ملأى بالكآبة.

الفصل الثامن

الطريق الصاعد إلى بغداد

ضجّة وصياح، تدافع وتجاذب، وحركة تضطرب أمام حافلات ركّاب حتّى بدت الجمهرة وكأنّها في شجار. الكلّ يريد أن يرحل، والسوّاق يهتفون متبرّمين رافضين:

ـ اكتروا شاحنات لأثاثكم!

ـ ننقل ركّاباً لا أقفاص جريد.

ـ لا مكان لكلّ هذه السجاجيد.

الهواء يفوح بروائح البنـزين وزيت المكائن والوقود المحترق. الشمس معتدلة الحرارة، وثمّة تحت إحدى سقائف هذه المحطّة: محطّة سيّارات بصرة ـ بغداد، كان زكي يقف ناظراً إلى الفوضى باستياء، وإلى جانبه حقيبته التي حشتها أمه بالملابس والطعام.

شاهد بينما كان يجيل بصره في ما حوله أحد السوّاق يتّخذ من إحدى صفائح البنـزين مقعداً له، ويحتسي شايه كأنّه في فترة

راحة، أو لا يدري ما أمره حقّاً.

اقترب منه وخاطبه قائلاً:

ـ لا أملك سوى حقيبة، هلّا دبّرت لي مكاناً لدى أحد معارفك.

انتبه الرجل له وطالعه منزعجاً. كان يبدو مرهقاً، منهك الوجه من فرط التعب والسهر: عيناه حمراوان كأنه احتسى قدراً من الكحول، وشعره ملبّد بالعرق والغبار، لحيته مهملة، وملابسه ملوثة بوقود السيّارات.

ـ ماذا قلت؟

ـ دبّر لي مكاناً لدى أحد أصحابك!

ـ أنا مجاز.

قالها بسرعة وعاد إلى ارتشاف شايه. سحب زكي من جيبه ربع دينار ووضعه في صحن الشاي. نادى الرجل أحد السوّاق مشيراً إلى زكي وقال:

ـ اذهب إليه!

حمل زكي حقيبته وسار نحو الحافلة الطويلة العالية الشبيهة إلى حدٍّ ما بحافلات الركّاب الحكوميّة، إلّا أنها مزيّنة بزخارف محليّة وعبارات شعبيّة عن الحسد والرزق والعشق والندم. هتف الفتى مساعد السائق بالناس أن يتنحّوا جانباً، وأفسح مجالاً لزكي الذي نقده الأجرة وصعد.

اضطرّ زكي إلى الانحناء، فالمكان ضيّق ومعتم، زاد في ذلك العشو المؤقّت الذي أصاب عينيه اللتين تعوّدتا ضوء النهار.

خطا خطوات واسعة فوق حقائب وشقابين وشوالات وسلال، بين صفّين من مقاعد صغيرة حُشِر فيها الركّاب حشراً، إلى أن انتهى إلى مقعدين شاغرين تحت نافذة تحجبها ستارة قرمزيّة. دسّ حقيبته بين أكياسٍ متراكمةٍ وبقجٍ وحقائب من كلّ الأنواع والأحجام في الشبكة الحديديّة أعلاه. وما كاد يغطس في مقعده حتّى أطلّ عليه رجل عجوز يتسربل بسترةٍ ودشداشة ويعتمر كوفيّةً وعقالاً.

ـ السلام عليكم.

قال.

ـ وعليكم السلام.

ردّ زكي فاستقرّ العجوز حذّه، وضع كيس نايلون كان يحمله تحت المقعد، وأخذ يسبّح بسُبْحَةٍ صفراء وهو يقول مجاملاً:

ـ ازدحام هاه؟

ـ نعم، الناس يهربون من القصف.

ـ لو سمحت شق النافذة قليلاً! أيضايقك الدخان؟

ـ لا أبداً.

أزاح زكي الستارة جانباً فشعّ نور الشمس قويّاً، وفتح الزجاج. شكره العجوز وسحب علبة دخان (سومر) زرقاء من جيب سترته وجعل يدخّن.

تصاعد هدير المحرّك، اختضّت الحافلة وارتجّت ثمّ تحرّكت، وشرعت مشاهد المحطّة تتراجع، حتّى إذا تهادت الحافلة على

الشارع العريض، المستقيم، المحفوف بأعمدة الكهرباء، تجلّت على الجانبين بريّة تناثرت في أرجائها بنايات متباعدة، ومتاريس، ودشم، وخنادق، ومواقع عسكريّة، وكانت تمرّ بهم بين الحين والحين ناقلات جند، وآليّات تنقل دبّابات ومدرّعات ومدافع، وشاحنات عسكريّة ضخمة موسقة ولا شك بالقذائف والصواريخ والمعدّات الحربيّة.

مع تخطّيهم حدود البصرة باتجاه مدينة الناصريّة بانت أجمات نخيل، وأخصاص من قصب، وفلّاحون يعملون في الحقول، وجواميس تقبع في الترع والمستنقعات، والطيور تحلّق على علوٍ منخفضٍ، على النخيل وأحراج القصب والبردي والحلفاء.

كان المشهد بالنسبة إلى زكي أقلّ وحشة، وهو في الحقيقة لم يشاهد ريفاً من قبل، فعجب كيف تقي هشاشة الأخصاص الناس من قسوة الطبيعة وتقلّبات المناخ.

كان العجوز مستغرقاً في نومه ويداه في حضنه تطبقان على سُبْحَتِهِ، كأنّه يقبض على شيء يحاول أن يهرب منه، أو هو ربّما خائف يغالب كابوساً ما.

استبدّ الجوع بزكي، تحرّك بحذر كي لا يوقظه، وسحب حقيبته من شبكة الأمتعة فوقه. تململ العجوز، فتح عينين مغرورقتين بدموع الشيخوخة ونظر إلى زكي:

ـ أين وصلنا؟

ـ لا أدري.

عدّل كوفيّته وعقاله، مدّ عنقه ليتفحّص العالم عبر النافذة.

ـ هذه ضواحي الناصريّة.

.. قال مغمغماً.

ناوله زكي سندويشة كباب مثل التي في يده، فتقبّلها شاكراً وراح يقضمها بشراهة ويمضغها بصوتٍ مسموع، وحين فرغ منها ترك مقعده وغاب جهة السائق.

هنيهات، ثمّ عاد بإبريق ماء بلاستيكيّ وطاسة ألمنيوم، فأخذا يشربان حتّى ارتويا.

توقّفت الحافلة في الناصريّة للراحة وقضاء الحاجة، ثمّ واصلت تطوي الطريق.

جنحت الشمس إلى الغروب وتلاشى ضوء النهار، فسادت العتمة جوف الحافلة.

بعض الركّاب نائم يغطّي وجهه بمنشفة أو منديل، وآخرون يدخّنون ويحدّقون إلى الفراغ ملولين، والبعض منهمك في حديث مع جاره، ومسافرة مستغرقة في الصمت، وابنها غافٍ في حضنها.

تراءت أضواء بعيدة لخصاص أو مواقع عسكريّة في بُهْم الليل، وطرّزت النجوم في تشكيلاتها الكوكبيّة صفحة السماء، وعلى جانب الطريق كانت تسطع بين الآونة والآونة أضواء مطعم شعبيّ ملفّق من الخشب والصفيح، تقف إزاءه حافلات وسيّارت، وتتسكّع قربه كلاب سائبة.

ثمّ سرعان ما تختفي عوالم الناس، وتسيطر الظلمة والصمت على البراري بصورة مطلقة، كأنّما لم تكن هناك مدنيّة، وكأنّما الخليقة لا تزال في بدائيّتها وتوحّشها.

بعد مسيرةٍ طويلةٍ في قلب القفار المعتمة خفّت حدّة المحرّك، تباطأت الحافلة وانزلقت بهدوء ويسر في محاذاة مطعم مشعشع بالأضواء، وتوقّفت.

قال العجوز بكسل:

ـ استراحة (شيخ سعد).

ـ ترى هل سنتوقّف طويلاً؟

ـ الله أعلم. هنا يرتاح السوّاق ومساعدوهم، يتعشّون وقد يأخذون قسطاً من النوم.

ترجّل زكي من الحافلة وقد هدّه التعب. مطّ رجليه ومشى باتجاه المطعم مقلّباً عينيه في الأرجاء: جنود ومراتب عسكريّة، ركّاب وسوّاق، يأكلون ويدخّنون، يشربون المرطّبات أو يحتسون الشاي على طاولات ومقاعد بلاستيكيّة بيض في العراء، قبالة المطعم. وعلى الأرض تتناثر الأكياس، وعلب السجائر الفارغة، والأعقاب، والملاعق، والصحون المهشّمة، وبقايا طعام وعظام تتناهشها الكلاب، وحشرات الليل سكرى برائحة العفونة وعبق اللحم المشوي.

أمّا المطعم ذاته فليس أكثر من بناء مستطيل من الطابوق الإسمنتيّ المدهون بالأبيض والأخضر، تعلو مدخله لافتة ينيرها مصباح واحد، كُتِبَ عليها بخطٍّ قبيح: (استراحة شيخ سعد).

في جوار هذه الاستراحة الصفيقة القذرة يقوم دكّان من الصفيح الصدئ لبيع المشروبات الغازيّة، أمّا ما تبقّى فمجرّد سهوب غارقة في ظلامٍ مطبق.

على أحد الكراسي البلاستيك أخذ زكي يلتهم إحدى سندويشات أمّه، بعدما تعذّر عليه شراء وجبة ساخنة، فالناس في المطعم كأنّهم في يوم الحشر.

دنا منه كلب شارد فنهره، ابتعد عدّة خطوات ثمّ قبع في الظلام يترقّب فرصة سانحة لخطف ما يمكن خطفه من بقايا الطعام. سعى زكي إلى الدكّان لشراء زجاجة كوكاكولا، فشاهد سائقهم وقد غطّ في نومٍ عميقٍ على أريكة خشبيّة مفروشة ببساطٍ من الصوف قرب المطعم. لم يلمح الرجل العجوز، ترى هل دلف إلى المطعم وذاب في الزحام أملاً في الحصول على ما يسدّ رمقه؟ حين عاد إلى مقعده ألفى جنديّاً شابّاً قد احتلّه. كان يأكل بشراهة من صحن حساء كما لو أنه لم يذق طعاماً منذ أمدٍ بعيد.

تجرّع زكي زجاجته على مضض لسخونة طعمها ورداءته، وجعل يتسكّع بين الطاولات ويركل العلب الفارغة، حتّى سمع نداءات السائق ومساعده وهما يحثّان الركّاب على العودة لمواصلة الرحلة. قفل راجعاً. توافد الركّاب تباعاً، واستقرّ العجوز في مقعده أخيراً، وهو يقول مبتسماً:

ـ لم أرَكَ؟

ـ ولا أنا.

ـ كنت في المطعم.

ـ ازدحام.

ـ على المرء أن يقاتل للحصول على وجبة.

ـ مطعم غير نظيف.

ـ كل مطاعم الطرقات هكذا.

ثمّ تابع قائلاً:

ـ لو كنت رأيتك لساعدتك في تدبير وجبة لك.

ـ شكراً، عندي سندويشات أمّي.

أشعل العجوز سيجارة وراح يدخّن ويسبّح بسُبْحَتِه سارحاً في أفكاره.

في حدود الحادية عشرة ليلاً بلغت الحافلة محطّة (النهضة) في بغداد. ودّع زكي العجوز وغادرها حاملاً حقيبته وقد ألمّ به إرهاق شديد من طول الجلوس في مكانٍ ضيّق.

تفرّق الركّاب وخلت الساحة من الناس إلّا بعض السوّاق المتلبّثين قرب حافلاتهم.

الهدوء يغمر الساحة، والليل يهيمن على الكائنات والأشياء، وثمّة في السماء غيومٌ خفيفةٌ تدبُّ، تحجب النجوم لهنيهات ثمّ تطلقها، فتعاود تألّقها.

قصد زكي مساعد السائق الجالس على مقعدٍ واطئ قدّام الحافلة، وبيده سندويشة ملفوفة بورق جريدة يقضمها بشراهة، ويلوك بتركيز من شدّة جوعه. خاطبه مستوضحاً:

ـ كيف أصل إلى منطقة البيّاع؟

ـ خُذْ سيّارة أجرة!

ردّ الفتى منزعجاً.

ـ سيستغرق الأمر وقتاً، وقد لا أجد سيّارة أجرة في هذه الأنحاء.

قال زكي ذلك وعرض عليه بعض الفكّة. تلقّفها الفتى وقال:

ـ لحظة، سأسأل السوّاق.

ثمّ مضى من فوره نحو مبنى الإدارة الخاص بمحطّة الحافلات واختفى فيه.

بعد فترةٍ وجيزة ظهر وبرفقته رجل سمين، حليق الرأس، يرتدي دشداشة وينتعل صندلاً جلديّاً، ما لبث أن قال لـمّا اقترب من زكي:

ـ أنا أقلّك إلى البيّاع أخي.

ـ أريد أن أصل إلى هذا العنوان.

قال زكي وأبرز قصاصة ورق.

قرأها السائق بإمعان ورفع عينيه إليه:

ـ نعم.. أعرف الشارع، والعثور على البيت سهل.

ـ كم تأخذ؟

ـ سعر سيّارة الأجرة، نصف دينار.

ـ هيّا إذاً!

الفصل التاسع

دم وجزع

لم يتعوّد سالم رؤية دمه من دون أن يكون مجروحاً، وكان يعرف أنّ البصاق الدمويّ يصاحب مرض السل، ونزيف المثانة عرض من أعراض البلهارزيا، فلقد كان أبوه مالِك مصاباً بالمرضين كليهما لكنّه شفي منهما تماماً.

إنّه لصباح غير عاديّ بالنسبة إليه حين تراءى له أنّ في بصاقه نقطة دم. أحدّ بصره. نعم، إنّه دم. وإذ لم يكن مقتنعاً بصق ثانيةً في المغسلة فتجلّت بقعة الدم أكبر.

اعتراه جزع واستبدّ به اضطراب.

جرّب تنفّسه، لا شيء غريباً. شهيقه طبيعيّ وكذلك تنفّسه.

لا ألم، لا سعال، إذاً أللدم علاقة بالاختناق الذي ينتابه بين الحين والحين؟

اتّصل هاتفيّاً بالمستوصف وحدّد موعداً مع الطبيب.

تولّاه شعور بالكدر وهو يعدّ قهوته الصباحيّة. طفحت وسالت.

ركنها جانباً كي تهدأ.

كان باله مشغولاً بأفكارٍ سودٍ لا تني تعتريه. فإذا خذله جسده في مثل هذه الظروف المضطربة فلسوف يكون معرّضاً لهزيمةٍ نفسيّةٍ لا يعرف مداها إلّا الله.

الشمس تنفذ خلل الشبّاك وتسطع في عينيه. ضايقته فنحّى وجهه جانباً نحو الظلال تاركاً جسده مغموراً بالدفء والضوء. احتسى قهوته على عجل، ارتدى ثيابه، وانطلق إلى الجادّة. الشمس مشرقة. الأرجاء مضاءة، والسماء زرقاء.

طقسٌ نادرٌ يحلّ على حين غرّة في الخريف. يسود لفترةٍ من الوقت قد تستغرق نهاراً أو نهارين ثمّ تعاود السماء تلبّدها. يبرد الهواء وترسل الغيوم رذاذها.

□□□

دلّت موظّفة استعلامات المستوصف سالماً على ردهة الانتظار. كان ثمّة رجل عجوز مطرق. رفع رأسه وحملق فيه بانزعاج، وامرأة تطلّعت إليه وأشاحت بوجهها.

انتبذ زاوية في أريكة خضراء وراح يتصفّح مجلّة التقطها من نضدٍ أمامه بلا مزاج.

جاءت بعد حين طبيبة نحيلة، شقراء، ذات وجه طفوليّ، ونادت

باسمه. دنا منها وحيّاها بالإنكليزيّة إيماءة منه لخياره اللغويّ.

ـ مارغاريتا كارلستروم.

قالت وهي تصافحه وتقدّمته إلى عيادتها.

أوسعت له فدخل وتبعته. احتلّ مقعداً شاغراً. ردّت الباب واتّخذت مكانها خلف مكتبها.

ـ أخبرتني الممرّضة بأنك تبصق دماً؟

قالت وعيناها الزرقاوان ترمقانه بفضول وجدّ.

ـ نعم.

ـ هل من عوارض أخرى؟

ـ يلمّ بي اختناق من آنٍ لآن وأنا نائم.

ـ تدخّن؟

ـ أحياناً.

ـ بمعدّل؟

ـ بضع سجائر في اليوم.

ألقت نظرة على نتيجة فحص أشعّة (رونتغن) السابقة في حاسوبها والتي لم تُنبِئ عن شيء، ثمّ قالت وهي تهمّ بالوقوف:

ـ عرِّ صدرك وظهرك!

نضا عنه ما يسترهما. استمعت إلى تنفّسه. قاست دقّات قلبه وضغط دمه. نزعت المسماع عن أذنيها وقالت:

ـ آثار البرد والتدخين بيّنة على صدرك.

ارتدى ثيابه، بينما عكفت الطبيبة على حاسوبها تسجّل ملاحظات، ما لبثت أن طبعتها على ورقة وقدّمتها إليه.

ـ هذا طلب موجّه إلى قسم أشعّة (رونتغن) في مستشفى (لوندبي) لإجراء فحصٍ جديدٍ لك، زرهم متى شئت!

* * *

ثاني يوم في قسم أشعّة (رونتغن) الذي يزوره للمرّة الثانية انتظر ريثما يأتي دوره.

ولكي يغالب بطء جريان الوقت عمد كالآخرين إلى إشغال نفسه بشيء ما. ولا شيء بالطبع لدى الأطباء والحلّاقين سوى المجلّات المصوّرة يكدّسونها على الطاولات الواطئة. تناول واحدة وأخذ يتصفّحها بإهمال.

ومض في داخله بغتةً هاجس يدفعه إلى الاطلاع على رسالة الطبيبة مارغاريتا. سحب الورقة من جيبه وألقى نظرة عليها. إنّ قراءتها ليست بصعبة، فالمفردات الطبيّة ذات جذرٍ لاتينيٍّ واحد. جرى بصره على جملةٍ، سمّر عينيه عليها وارتعد:

(.. لمعرفة ما إذا كانت الرئتان مصابتين بورمٍ خبيث).

قرأ الجملة غير مرّة والشكّ يداخله إن كان يترجمها على نحوٍ صحيح.

سلّم الرسالة إلى استعلامات القسم ورجع إلى مطرحه يغالب الوقت مع حشدٍ من المهمومين القلقين.

بعد انتظار دام ثلاثة أرباع الساعة ناداه ممرّض جاد الملامح، فسار وراءه إلى غرفةٍ ضيّقةٍ تضمّ جهاز الأشعّة الضخم. نزع ملابسه معرّياً صدره وظهره كما فعل من قبل. ثمّ راح يتصرّف وفق توجيهات الممرّض:

ـ قف أمام اللوح الأبيض وألصق صدرك عليه! خُذ شهيقاً عميقاً عندما تسمع كلمة شهيق، وازفر حينما تسمع كلمة زفير!

أدّى سالم ما طُلِبَ منه، حتّى إذا سمع كلمة انتهى شرع في ارتداء ملابسه. غير أنّ هاجساً دعاه إلى الاستيضاح بصوتٍ خافتٍ عمّا يمكن أن تكون عليه نتيجة الفحص.

حدجه الممرّض بنظرةٍ غاضبةٍ وقال محتدّاً:

ـ في مقدورك الذهاب الآن.

صدمته النبرة الخشنة وغادر المستشفى وكلمة سرطان تدقّ طبول الرعب في رأسه.

تلقّفه ضوء النهار وحركة الناس، والاضطراب يداخله. توجّه إلى محطّة القطار لا لشيء إلّا لأنّه لا يريد الذهاب إلى شقّته، ولا يدري ماذا يفعل.

كان مشوّشاً إلى حدٍّ ما، وذاهلاً عمّا يجري من حوله.

المحطّة مكانٌ للسفر وقضاء الوقت في آن؛ يكتنفها غموض خفيف وممتع، لما في أجوائها من تبدّل أحوالٍ في المغادرة والوصول واللقاء والانتظار؛ عالم من المتاجر والمقاهي والمطاعم والمشارب، تذهب وتجيء القطارات فيه بخفّة وصمت، بينما

صدى نداءات الإقلاع والوصول والتغيير يتردّد في الأروقة والأبهاء بين الفترة والفترة.

المسافرون يسرعون، يشخصون بأعينٍ قلقةٍ، وخلفهم حقائبهم يجرّونها، وآخرون يسترخون في المقاعد يحتسون البيرة، ويأكلون، أو يلحسون البوظة وينتظرون.

للمحطّة دكنة خاصّة بها، مثلما لها ضوؤها المميّز الخافت، فنور النهار الفاضح يتوقّف عند أبوابها المزحومة بالشرفات والسقائف.

حشدٌ من ظلال لفّ سالماً لمّا دلف إليها، وشعور بالإلفة تولّاه حين توغّل في أرجائها.

ليس كلّ من دخلها كان مسافراً، فالمحطّة شأن باقي العوالم في المدينة مأوى للمشرّدين والمتسكّعين، والمقامرين، واللصوص، ولاعبي (الفليبرز)، ومرتادي المقاهي، والمهاجرين، والعشّاق، وبائعي المخدّرات، والبغايا، وثمّة في المقابل جمهرة من الحرّاس، وسوّاق القطارات والحافلات، والنُدُل، والموظّفين، والخدم، والباعة.

جال سالم في الممرّات، فوجد مقهىً واسعاً يطلّ على أرصفة القطارات.

ابتاع زجاجة بيرة، انتحى مكاناً إزاء الواجهة الزجاج، وأخذ يحسوها ويرقب دبيب المسافرين بين الأرصفة.

وجد لعدم هدوء روحه أنّه شرب بيرته بسرعة، فأوصى على ثانية وثالثة.

شرعت نفسه تتطامن. استرخى واستعاد جزءاً من ذهنيّة المتلقّي، المنفعل بما حوله.

استوقفه إعلان أصفر كبير على الجدار، مكتوبٌ بعدّة لغات من بينها العربيّة، يعلن عن تأجير أماكن في أسواق (كفيبري).

جال في باله خاطر، وسأل النادل عن طبيعة هذه الأسواق فقال له إنّها إسطبلات قديمة تابعة للجيش السويديّ، يستأجر الناس فيها حوانيت صغيرة لبيع بضائعهم، والمهاجرون بخاصّة يقبلون عليها للتجارة والتسوّق، ولمّا سأله كيف يصل إليها، أعطاه رقم قطار الضواحي الذي يمرّ بها.

بارح المحطّة، وكانت الشمس قد غابت، فلاح مشهد رماديّ يشبه ساعة العصر، على رغم أنّ الوقت في أوّل الظهيرة.

قصد منطقة (كفيبري)، ووصلها في ربع ساعة.

هبط من قطار الضواحي، فوقع بصره على سيلٍ من المهاجرين جائين وذاهبين، في طريق واحدٍ ضيّق.

خطا مع الذاهبين حتّى ألمّ بمبانٍ طويلة، واطئة، لها سمات الإسطبلات فعلاً.

الأرض بين المباني مبلّلة، تتناثر في أرجائها النفايات، ويتراكم فيها على نحوٍ عشوائي باعة مهاجرون يفرشون معارضهم على الأرض مباشرة، أو في مقصورات من الخشب والحديد، مرتجلة، ومنخفضة، تطلّ عليها في عربات عالية مطاعم الفلافل والكباب وسندويشات اللحم والدجاج. يتريّث الجائعون عندها واقفين، يمضغون ما بين أيديهم.

للمباني عدّة مداخل تغصّ بالداخلين والخارجين.

حشر سالم جسده بين الأجساد في زحام قلّ نظيره، وغاص في ممرّات ضيّقة تحاكي إلى حدٍّ ما أروقة الأسواق في المدن الشرقيّة القديمة، بحوانيتها القزمة الملزوزة على الجانبين، بباعتها الغشّاشين، وبفوضى بضائعها التي يتكدّس بعضها فوق البعض الآخر.

هنا، وبعد قليل من التمعّن ترى أشياء قديمة، مكسورة، كالحة، وممزّقة: أكوام أسلاك وصفائح، وبقايا تلفزيونات ومسجّلات وهواتف، وأجهزة منزليّة كهربائيّة، وأدوات نجارة وحدادة صدئة، ولوحات زيتيّة ناصلة الألوان، ساذجة، مخلّعة الأطر، عطفاً على ملابس بعلامات تجاريّة رخيصة، وأشرطة غنائيّة وسينمائيّة، ومجلات إباحيّة، وحاويات تمرٍ ورزٍّ وفاصوليا وكعكٍ وحلوى، ورفوف مُثْقَلَة بمعلّبات شرقيّة المصدر.

سأل سالم شيخاً يعرض في مقصورته ضروباً متعدّدة من الهواتف النقّالة والبطّاريات والسمّاعات عن الباعة البولونيين، فأومأ بيده عالياً ناحية الساحة البرّانيّة، وهو يقول: في الخارج، ولمّا غادر سالم طرح السؤال نفسه على شابٍ يقف وحده يدخّن، ويسبّح بسبحةٍ، فأجاب قائلاً ومشيراً بيده إلى الجهة البعيدة من الساحة: هناك.

مضى سالم إلى ذلك الجزء من السوق، فألفاه أهدأ، وأكثر نظافة، والبائعات يعرضن بضائعهنّ من الملابس والأغذية المعلّبة في مقصورات كبيرة مرتّبة، وأنيقة، ووراءها تقف حافلات الشحن الصغيرة.

توجّه إلى إحداهنّ واستقصى إن كانت بولونيّة، فأجابت أنْ نعم، ثمّ سأل عن بائعة تدعى ماجدالينا، فقالت إنّها تعرف واحدة بهذا الاسم، ثمّ استرسلت في الحديث فلم يفهم شيئاً، لأنها تُكثِر من البولونيّة بين القليل من الإنكليزيّة، ثمّ اصطحبته إلى مقصورة أخرى فيها فتاة أصغر سنّاً، سمينة، قصيرة، لم يرها من قبل، وأشارت إليها قائلة: ماجدالينا.

هزّ سالم رأسه نفياً، وقال مبتسماً:

ـ لا، أنا أبحث عن ماجدالينا أخرى.

وأخذ يصفها. تغامزتا وتضاحكتا.

قالت السمينة وهي تحدّق في سالم مبتهجة، وواضعة يدها على قلبها:

ـ حبّ.

بادلها سالم الحركة والابتهاج حاطّاً يده على قلبه وهو يقول:

ـ حبّ.

استغرقتا في الضحك ثانيةً، تحادثتا بالبولونيّة، ثمّ قالت الكبيرة إنهما لا تعرفان شيئاً عن حبيبته ماجدالينا.

ابتاع من السمينة عدّة علب من البيرة البولونيّة القويّة، ودعا الكبيرة إلى شقّته لاحتساء البيرة وقضاء وقتٍ ممتعٍ معاً، لأنّها أعجبته.

فرمقته بنظرةٍ خبيثةٍ وقالت:

ـ لا. لا.

ولم يشأ أن يكون خسيساً فيعرض عليها مالاً. شكرهما وانصرف.

تسكّع بعض الوقت في السوق، ثمّ آب إلى شقّته.

ولج الحمّام، ووقف تحت الدوش، فتداعى إلى ذهنه جسد ماجدالينا: عضوها، فخذاها، نهداها، بطنها، إليتاها، تملّكته الإثارة واستولى عليه الشبق.

مدّ يده إلى جسده يداعبه، فتهيّج رائياً نفسه في دورة مياه المعوقين، يسفد ذلك اللحم الأبيض، يغور فيه منتشياً، وماجدالينا تلهث، تحتضنه محبّة وراغبة في المزيد.

اشتدّ جسده باللذّة، امتلأ، فأراق في يده.

قرّب ماءه من وجهه، وتفحّصه خوف أن يكون فيه دم، فوجده أبيض مصفرّاً كقشدة الجاموس التي تبتاعها لهم أمّهم من القرويّات.

غسل يده وبرح الحمّام، ثمّ قعد يشرب البيرة البولونيّة، أمام تلفزيون لا يفهم منه شيئاً.

الفصل العاشر

لقد أصبح كبيراً

ـ هذا هو البيت.

قال السائق لزكي مشيراً إلى بناء من طابقٍ واحد، بابه أزرق.

عندما بلغ زكي بيت خاله إسماعيل لم يكن أحد على علمٍ بموعد وصوله بالضبط. بيد أنّ الخال كان يتوقّع ذلك في أيّة لحظة، استناداً إلى برقيّةٍ وصلته من أخته.

كان الزقاق الذي ألمَّ به زكي بعدما توارت سيّارة الأجرة مقفراً، إلّا من كلبٍ شاردٍ يتسكّع بين صفائح القمامة.

المصابيح الكهربائيّة تضيء الأرض بلونٍ أصفر: لون ليليٍّ ينسجم مع صفحة سماء سوداء تزيّنها النجوم. تلك هي المرّة الأولى التي يشهد فيها حيّاً شعبيّاً هادئاً منذ بداية الحرب. فالصخب أضحى ملازماً لعالمه وحياته.

البيوت على جانبي الزقاق تتشابه في أشكالها وقبحها: واطئة،

قميئة، وغير مطليّة، يغلب عليها لون الإسمنت. حدّ أبوابها كتب الموظّفون الحكوميّون أرقاماً وعلامات تحدّد مواقعها بخطٍّ سريعٍ أسود ومهمل.

استقبلته زوجة خاله بحرارة على الرغم من آثار النوم الظاهرة على وجهها، وأفسحت له مرحّبة ليدخل حوشاً مربّعاً مفروشاً ببساطٍ ملوّنٍ، فيه أريكة، وتلفزيون على كومودينو، وكرسيّان، وخوان فوقه علبة مناديل ورقيّة.

ـ سأعدّ لك عشاءً.

قالت.

ـ آكل أيّ شيء من حواضر البيت.

ـ حسن.

ـ أين خالي؟

ـ نائم. أوقظه؟

ـ لا، لا تزعجيه!

ـ تعال معي!

رافقها إلى غرفةٍ صغيرةٍ مفروشةٍ بكلّ ما يلزم. أدرك أنّها معدّة للضيوف فاستقرّ فيها. فتح حقيبته. أصدر سحابها صوتاً بان قويّاً في السكون.

غيّر ملابسه ونظّم البقيّة في الخزانة.

في أعقاب فراغه من وجبته الخفيفة السريعة قام إلى الحمّام وغسل يديه، حتّى إذا غادره سمع المرأة تتمنّى له ليلة سعيدة ونوماً هنيئاً فشكرها.

آب إلى الغرفة واستلقى على فراشه النظيف الأبيض العابق برائحة صابون الغسيل.

كانت امرأة خاله حلوة وطيّبة، فهو لم يلتقها سابقاً، إذ لم يكن خاله يصطحبها معه حين يزورهم في المناسبات النادرة.

ولـمّا كان زكي مُتْعَباً من الرحلة فإنّ تفكيره توقّف عند هذا الحد قبل أن يستسلم للنوم.

صباحاً أنبأ خاله برغبته في القيام بجولةٍ في بغداد.

ـ وهل في وسعك العودة إلينا، فالمدينة كبيرة جدّاً ومزدحمة؟

ـ بالطبع.

ـ معك نقود؟

ـ الحمد لله.

ـ عندك فكرة عن حركة الحافلات؟

ـ لن أضيع.

ـ قالت لي أمّك إنّك شاطر وذكي، ستبقى عندي فترة، ترتاح وترى بغداد ثمّ تتوجّه إلى مدينة السليمانيّة.

وكان خاله إسماعيل رجلاً ضعيف البنية، في الخمسين من عمره، ويعيش منسجماً مع امرأته التي تصغره في الأقل بعشرين عاماً، وهو إلى ذلك محبوب في المعهد الموسيقيّ العسكريّ حيث يمارس التعليم.

□□□

لم يسبق لزكي أن غادر البصرة من قبل: المدينة التي لم تعانِ يوماً من اختناقات مروريّة.

الزحام في بغداد، وبطء حركة السير، وضيق الشوارع الغاصّة بالناس والسيّارات، وكثرة التوقّفات، والمشاحنات، والحرّ والغبار، والسباب والتذمّر، ضايقه وأنهكه من دون أن يفقده متعة النظر والاكتشاف والرغبة في التجوّل والتسكّع.

ألقته إحدى الحافلات الحمر في ساحة (الميدان) العاجّة بالفنادق والمطاعم والمقاهي وأكشاك الجرائد، فشاهد سيلاً من الناس يتّجه نحو شارع محفوف بالأعمدة ويغيب في جوف المدينة الأعظم.

مشى مع الماشين إلى أن استوقفته واجهة مقهى زجاجيّة قبالة جامع بديع الزخارف والتكوينات.

دلف إلى المقهى وانتقى مكاناً قرب الواجهة الزجاج.

سعى إليه نادل شاب ضئيل الحجم وحيويّ. طلب زكي قنينة بيبسي واستفهم عن اسم الجامع.

ـ جامع الحيدرخانة، من أين الأخ؟

ـ البصرة.

ـ زارتنا العافية.

راح زكي يتطلّع إلى المارّة عبر الزجاج وشعور بالثقة يداخله. لقد أصبح كبيراً، يتسكّع وحيداً ويرتاد المقاهي.

اغتنم فرصة عودة النادل بالبيبسي وسأله عن أفضل مطعم قريب.

ـ مطعم (ابن سمينة)، في ما يلي المقهى مباشرة، في شارع المتنبّي، وجباته لذيذة ورخيصة.

ـ شكراً.

ـ عندكم في البصرة قصفٌ كثير؟

ـ يخفّ ويقوى.

ـ لا قصف في بغداد أبداً.

عاد النادل إلى حيث يقف شاب آخر قدّام موقد حجريّ يعدّ الشاي في أباريق خزفيّة، وإلى يمينه على الجدار تتدلّى خراطيم النارجيلة فوق صفٍّ من دوارقها المورّدة.

نقّل زكي عينيه بين الجلّاس الذين راحوا يتفحّصونه بدورهم في فضول أو ريبة،

فحوّل بصره نحو الشارع محرجاً لإحساسه بأنّه غريب.

بعد تناول وجبته عند (ابن سمينة) تمشّى في شارع المتنبّي الهادئ، القصير، والضيّق، فانتهى به إلى سوق عتيق له سقف متهالك من الصفائح والخرق، تلفّه الظلال وتتراكم على جهتيه دكاكين الورّاقين والكتبيين وباعة القرطاسيّة.

حتّى إذا بارحه إلى النورَ وجد نفسه مغموراً بضجّة مواصلات عند دوار ينتصب فيه تمثال رجل سمين عليه سترة بلا أزرار[١٢].

---

(١٢) هو تمثال الشاعر معروف الرصافي.

جهة اليمين يشمخ جسر حديديّ عريض فوق نهر دجلة تقطعه السيّارات والسابلة، فتحوّل ناحيته، ولـمّا خطا خطواته الأولى عليه سمع شخصاً يهتف:

ـ هَيْ أنتَ!

رمى بصره صوبه فإذا بجندي من الشرطة العسكريّة يناديه ويشير إليه أن يقترب، فهو والحق لم يرَ موقع نقطة التفتيش المنـزوية في موضع أوطأ، عند مدخل الجسر.

دنا منه زكي وقال بوجل:

ـ نعم؟

ـ أوراقك!

كان الجندي يرتدي ملابس الشرطة العسكريّة ويعتمر قبّعة حمراء. وجهه شديد السمرة، ملامحه قاسية، وشارباه الكثّان يضفيان عليه قدراً من السطوة.

نبر بفظاظة وعيناه تجريان على بطاقة زكي الشخصيّة:

ـ من البصرة أنت، ماذا تفعل في بغداد؟

ـ أنا في زيارةٍ لبيت خالي.

وتابع كلامه لتخفيف حدّة الموقف:

ـ وخالي مدرّس موسيقى في المعهد الموسيقيّ العسكريّ.

انتبه الجندي، انفرجت أساريره وأعاد البطاقة إليه قائلاً:

ـ الله معك.

ثمّ رجع إلى متراسه.

تولّى زكي شعور بالضيق وداخله إحساس بأنّ الرحلة قد شارفت نهايتها، فحثّ خطاه عائداً إلى محطّة الحافلات في ساحة الميدان، مؤمّلاً نفسه بجولات أخرى مستقبلاً.

الشمس لا تزال قويّة على رغم الشتاء الواقف على الأبواب.

الشوارع تكتظّ بالناس وحركة المرور مازالت على أشدّها.

الفصل الحادي عشر

ركضٌ في الظلام

الليل يخيّم على المدينة. لا قمر والدنيا ظلام. الطرق خالية، البيوت موصدة، يلفّها الصمت ويكتنفها الخوف. المحال مرتّجة، ولا صوت في العتمة، لا ريح ولا حركة.

تلك مدينة قديمة جداً، يعرفها سالم ويحبّها. بيوتها خفيضة وأزقّتها متربة. أنهارها راكدة، يتعرّشها الدغل ويحفّها النخيل.

تلك مدينة مشمسة نهاراً حتّى إنّ الشمس تحرق الجلد فَيشوَد. الآن يعمّها الظلام والرعب، وتسيطر عليها مخلوقات ليليّة، تختل، تكمن، وترصد كلّ ما يتحرّك.

مخلوقات لا تُرى، لكنّها توحي بحضورها وسطوتها، بهيمنتها وخطرها في كلّ دربٍ ومنعطف، حيث لا مهرب أو خلاص إلّا بالانكفاء في البيوت، وسدّ الأبواب، وإسدال الستائر على النوافذ، وإطفاء الأنوار، والمكوث في العتمة.

كان سالم يركض وحده في السُبل الفارغة الموحشة، بعدما وجد بيت أهله مهجوراً ومغلقاً.

كان خائفاً ولاخيار عنده إلّا أن يعدو هائماً على وجهه، باحثاً عن مستقرٍ، عن زاويةٍ ينام فيها ريثما ينبلج الفجر، فيشرع في البحث عن أهله.

جرى في محاذاة نهر العشّار. الظلام يطوّقه. يندفع خلفه. مياه النهر قاتمة، الجسور مقفرة، الشبابيك داجية. من أطفأ مصابيح الشوارع؟

حاذى بيوت الشناشيل حتّى انتهى إلى محلّة نظران. قفز من فوق سياج المدرسة التي أمضى فيها سنوات صباه إلى ساحةٍ داخليّة. ضجيج الضفادع والجداجد يغمر الليل فيزيده وحشةً وغموضاً.

هنا، في هذه الساحة المتربة، وقبل خمسة عشر عاماً كان يتمشّى حالماً بالسفر بعيداً، حراً، يجوب أنحاء العالم بلا حسيب ولا رقيب.

ها هو يؤوب إليها ليقضي ليلته الأخيرة فيها متوسّداً ترابها قبل أن يموت.

فزّ سالم من نومه. العرق يبلّل جبهته، شعره ومخدّته، وما عتم أن استيقظ معه وحش السرطان، يتمدّد في جسده، يدبّ في أعضائه، يقضمه شيئاً فشيئاً ويهدّده بالفناء.

تولّاه جزع من الموت، وشعورٌ فادحٌ بالوحدة، ورغبة جامحة في زيارة أماكن طفولته وصباه. بات الشوق إليها يحرقه، وأمنية رؤيتها تستحوذ على عقله وقلبه.

شرب شيئاً من الماء، وحدّث نفسه ليطمئنها بأنّ نتائج الفحص لم تظهر بعد، وأنّ المخاوف التي تخامره ليست غير تصوّرات وأوهام.

لم يغمض له جفن إلّا بعد طول عناء، بيد أنه تأثّر بكلّ تأكيد بذلك الحلم الذي عاشه قبل قليل.

□□□

رنّ جرس الهاتف. هبّ من فراشه فزعاً. كان ضوء النهار يشعّ في النافذة إلّا أنّ لون السماء ما انفكّ رماديّاً.

أزاح اللحاف شاعراً بصداع يدقّ قحفه، وحنجرته توجعه. لذعته برودة هواء الغرفة إثر قيامه من تحت الأغطية.

لبث الجرس يرن. مضى من فوره إلى الطاولة ورفع السمّاعة. لمح بطرف عينه أنّ الساعة المنضديّة تشير إلى التاسعة وعشر دقائق.

ـ ألو؟

ـ نودّ أن نتحدّث مع سالم مالك السعد.

ـ أنا سالم.

ـ صباح الخير، نحن من المخابرات السويديّة.

اضطرب سالم.

ـ صباح النور.

ـ نرغب في ترتيب لقاء معك، هل لديك مانع؟

ـ لا.

ثمّ استدرك:

ـ ما الأمر؟

ـ موضوع بسيط، لا تقلق! هل تحضر اليوم على الساعة الثانية عشرة في مركز الشرطة في ساحة (كفيل توريت)؟

ـ نعم، لا بأس.

ـ تعرف الساحة؟

ـ أعرفها.

ـ إلى اللقاء.

ـ مع السلامة.

ردّ وألقى السمّاعة كأنه ينفض عقرباً تعلّقت بيده.

□□□

في الظهيرة لم يدفأ الجو على الرغم من شروق الشمس. هكذا العادة في الخريف، تنخفض درجة الحرارة وتسقط أمطار ثمّ تتوقّف فجأة. الأشجار تنفض أوراقها، ومشهد المدينة ينقلب رماديّاً.

توقّع سالم مواجهة العديد من الأسئلة المحرجة، فهو لا يعرف ماذا يروم المحقّقون بالضبط، وما هي أهدافهم وأغراضهم. في

الوقت نفسه أخذ يفكّر في مختلف الأجوبة للتمويه والتستّر. إنّ جيشان الهواجس في سريرته ليجعله مضطرباً ومستغرقاً أكثر فأكثر في عالمه الجوّاني، بينما قطار الضواحي يوغل سادراً في نواحي المدينة حتّى وصل أخيراً إلى ساحة «كفيل توريت».

نزل منه وتمشّى إلى مركز الشرطة. دخله وتلبّث لدى شرطي قابع وراء مكتب الاستعلامات.

أنبأه بموعده وأعطاه البطاقة الشخصيّة التي نظّمتها له دائرة الهجرة.

كتب الشرطي شيئاً ما في حاسوبه. تأمّل الشاشة مليّاً ثمّ أعاد إليه البطاقة قائلاً:

ـ انتظر قليلاً!

انتبذ سالم أحد المقاعد لصق الحائط، بينما اختفى الشرطي في الداخل.

دقائق، عاد وظهر داعياً إيّاه إلى مرافقته. مضى وسالم يتبعه في رواق يسوده الصمت، وتصطفّ على جانبيه أبواب مغلقة. فتح أحد الأبواب وقال له:

ـ تفضّل!

دلف سالم إلى الغرفة فرأى في مواجهته رجلين يجلسان إلى مائدة مدوّرة، يتشابهان إلى حدٍّ ما: رأسان ضخمان، شعر أشقر قصير، ووجهان منتفخان، يتّسمان بالسطوة.

وقفا. كانا أطول منه وأكثر سمنة.

بسط الأوّل راحته، شدّ على يد سالم وقال:

ـ توم.

صافحه الثاني وقال:

ـ توم.

ودعاه إلى احتلال كرسي يقع بينهما.

سأله توم الذي إلى يمينه:

ـ هل عشت سالم في لبنان قبل سفرك إلى الاتحاد السوفياتي؟

ـ نعم.

ـ وماذا كنت تعمل؟

ـ أشتغل في الصحافة.

ـ أيّة صحيفة؟

ـ أكتب في كلّ الصحف تقريباً.

ـ أين كنت تقيم؟

ـ في بيروت.

ـ أين؟

ـ في بناية الجان دارك.

ـ وما طبيعة كتاباتك؟

ـ أنا أكتب في الشأن الثقافيّ فحسب.

ـ هل لديك بطاقة صحافيّة تبيّن ذلك النشاط؟

ـ لا للأسف، فأنا لم أكن موظّفاً في أيّة جريدة، أنا صحافي حرّ.

أبرز توم الذي إلى يساره صورة وقدّمها له. تأمّلها سالم فعرف صاحبها فوراً: إنّه جواد أحد أعضاء منظّمة الشيوعيين الثوريين العراقيين(١٣). كان يلتقيه في مقهى الويمبي ببيروت، ويساعده أحياناً في تسديد إيجار غرفته.

احتدمت الوساوس في دخيلته فزادته إصراراً على توخّي الحذر الشديد.

ـ تعرفه؟

سأله توم الثاني.

ـ لا.

ـ قال إنّه يعرفك.

لاذ سالم بالصمت محرجاً، مفكّراً في حسم أمره سريعاً خوف ولوج متاهةٍ لن يتأتّى له الخروج منها بسهولة.

---

(١٣) منظّمة الشيوعيين الثوريين العراقيين: تنظيم يساريّ عراقيّ مسلّح، كان على علاقة ببعض الفصائل الفلسطينيّة، وبمنظّمتي الألوية الحمراء الإيطاليّة وبادر ماينهوف الألمانيّة. تعرّض إبّان الحرب الأهليّة اللبنانيّة إلى انشقاقات خطيرة وتصفيات دمويّة، أدّت في النهاية إلى زواله.

أصرّ على كلامه:

ـ لم أره من قبل.

ـ قال إنّه كان يلتقيك في مقهى الويمبي.

ـ هذا الكلام غير صحيح.

ـ قال إنّك كنت تمدّه بالمال.

ـ أنا لا أمدّ أحداً بالمال، فما أحصل عليه كان بالكاد يكفيني لتغطية نفقات معيشتي. قل لي ما القصّة؟ فكلّ ما أسمعه معميّات في معميّات.

ـ هذا الشخص موقوف لدى السلطات الدانماركيّة بتهمة التعامل مع منظّمة عراقيّة مسلّحة في لبنان تدعى منظمة الشيوعيين الثوريين العراقيين، وأثناء التحقيق معه اعترف بوجود علاقة بينكما، وأنّك كنت تعطيه مالاً.

ـ كذب وتلفيق.

ـ وما الذي يدعوه إلى الكذب؟

ـ وهل لديكم دليلٌ ماديٌّ يثبت ادعاءه هذا؟

ـ لا.

ـ إذاً دعوني أذهب!

ـ وأنت هل كنت مسلّحاً؟

ـ هذا إذا أردت أن تعتبر القلم سلاحاً.

ضحك التومان معاً وقالا:

ـ إنّه سلاح بالطبع.

ـ إنّه لسلاح خطير.

قال سالم مستعجلاً الخلاص:

ـ عندكم شيء آخر؟

قال الذي إلى يساره:

ـ لا، ولكنّك لم تتعاون معنا!

الفصل الثاني عشر

وجها الحياة والـموت

لدى خروجه من المخفر داخله شعور بالأسف لسلوك جواد الذي طالما ساعده وأعانه في أوقات الضيق، إلّا أنّ عبارة «لم تتعاون معنا» ظلّت ترنّ في رأسه كجرس إنذار.

استوقفه ما إن ركب القطار النازل إلى مركز المدينة ملصقٌ إعلانيّ مثبّتٌ على جدار العربة، يزيّنه وجه مهرّج ضاحك يعلن عن افتتاح سيرك مكسيم في (بارك هَدَن).

آثر سالم النزول في موقف (فولاند)، فلقد دهمته رغبة في إطفاء عطشه بكأس بيرة، ذاك حينما طالعته واجهة مشرب (جيمسون بوب)، اللافتة بألوانها الخشبيّة وزجاجها المزخرف.

شملته عتمة خفيفة لـمّا دخله، ورمقه الزبائن بفضول. اتّجه نحو البار وطلب كأس بيرة كبيرة.

تبدّد الفضول المرتبط بحضوره المفاجئ، وعادت الوجوه إلى ما

كانت عليه عاكفة على كؤوسها تحتسي منها، أو تحملق في الفراغ بحكم العادة، بينما سارع الساقي إلى تلبية طلبه.

على الجدران تنتشر فوضى مواد زينة ذات طبيعة متنافرة: كتب، فانوس، إبريق شاي، بوق، مذياع قديم، صورة فريق رياضيّ، مكبّرة صوت، صور سفن شراعيّة.. إلخ.

قربها تنتصب مقصورة هاتف خشبيّة حمراء اللون بالحجم الطبيعيّ، كتلك التي نراها في الشوارع.

تداعى إلى ذهنه لربّما بتأثير الملصق الإعلانيّ، حديث أمه عن سيرك حلّ في إحدى ساحات مدينتهم ذات يوم، لعب فيه أكروبات هنود ألعاباً خطيرة على الحبال العالية من دون شبكة حماية أرضيّة. ارتكب أحدهم مرّةً خطأً فهوى من شاهقٍ ومات.

غادر المشرب وتحرّك على هوى تلك الحكاية إلى سيرك مكسيم في منطقة (هَدَن).

كان شبّاك التذاكر مقفلاً. تركه وتقدّم ناحية إحدى الخيم الكبيرة. أزاح الستارة ودخل. كمشته يدٌ من ذراعه اليسرى وسمع اعتراضاً بالسويديّة:

ـ تذكرتك؟!

فردّ بالإنكليزيّة مخمّناً طبيعة الاعتراض:

ـ شبّاك التذاكر مقفل.

ـ تعال غداً!

ـ جئت أبحث عن أسرتي لأسباب طارئة، دعني وشأني!

تراخت اليد وأفلتته، فتحرّك باتجاه الجمهور. كانت ثمة خيول تعدو، تعتليها كلاب، ومدرّب يشير بعصاه.

الحلبة مضاءة، وجهة المقاعد مظلمة. تلمّس طريقه بصعوبة بين المشاهدين إلى أن استقرّ في مقعد شاغر وحيد قرب الحلبة. الخيول تدنو من الحافة فتزدّ حوافرها التراب عليه. التفت علّه يجد مقعداً آخر ينتقل إليه.

غالب نفسه حتّى انتهى مشهد الخيول. ارتخى ولبث يتابع البرنامج بفصوله المتتالية: أكروباتيك وبهلوانات، نمور وأسود، فيلة وسحرة، أقزام وحسناوات، وفي الختام لعلع صوتٌ يدعو الأطفال الراغبين في امتطاء الفيلة إلى البقاء.

تأنّى سالم أيضاً، إذ لا يودّ التسكّع في الطرقات أو العودة إلى البيت في مثل هذا الوقت، وأخذ يتابع الأطفال المبتهجين الجالسين على ظهور فيلةٍ تدور في محيط الحلبة بمساعدة بعض المدرّبين.

فإذا هو يشاهد طفلاً يُفلِتُ يده من يد أمه وهي ساهية عنه ويجري نحو قوائم فيل يمشي متثاقلاً. صاح سالم منبّهاً، وركض بسرعة البرق وسحب الطفل بعيداً عن الخطر.

شكرته الأم على صنيعه بينما أوشك أن يوبّخها على غفلتها، لكنّه لم يكن راغباً في جرح مشاعرها. خطا باتجاه المدخل وغادر الخيمة إلى الدروب المعتمة.

كان الظلام ينتشر في المدينة، فالليل يهبط باكراً في مثل هذا الفصل من السنة.

أخذ القطار قاصداً مأواه وقد ساوره شعور بالفرح لإنقاذه روحاً صغيرة. مدّ بصره عبر النافذة العريضة إلى معالم المدينة المارّة أمامه في تعاقبٍ سريعٍ من الظلمة والضوء.

الليل يرخي أستاره على المدينة. الشوارع مضاءة. بعض السابلة يتسكّع، والبعض الآخر يغذّ السير إلى مهجعه.

ترجّل سالم في محطّته وتوجّه إلى شقّته الكائنة خلف مرتفعٍ صخريّ.

جذب عينيه ضوء شموع يتلألأ بين الأشجار. تملّكه فضول فقصده على هدى أنوار المصابيح، فرأى أمامه امرأة تشعل شموعاً وتضعها على الأرض قرب باقة ورد، وعندما اقترب منها التفتت إليه فعرفها: إنّها إحدى موظّفات المكتبة العامّة. سلّم عليها واستفسر عمّا حدث.

ـ البارحة وجدوا صديقتي هنا مطعونة بسكّين، ماتت في ما بعد في المستشفى.

ـ آه. أنا آسف جداً، كيف وقع الحادث؟

ـ طعنها صديقها وعافها هنا لمصيرها. فتاة جامعيّة في العشرين من عمرها.

ـ أنا آسف حقّاً، أود أن أشعل شمعة أنا الآخر، هل أبتاع واحدة منكِ؟

أعطته شمعة في جفنةٍ معدنيّة. أشعلها من شمعةٍ أخرى ووضعها بين الباقة وشموع أخرى. دسّ يده في جيبه.

ـ لا أريد نقوداً، بالله عليك لا تحرجني!

غمغمت بصوتٍ خافت.

ـ أنا أسكن في الأعلى، خارج الغابة تماماً، هلّا شربتِ فنجان قهوة معي.

ـ لا. شكراً.

أطرق وقال كأنّما ليواسيها أكثر مما يصدّق نفسه:

ـ وأنا أيضاً سأموت.

ـ لا. يا إلهي مازلتَ صغيراً.

ـ المرض لا يعرف صغيراً و لا كبيراً.

ـ هل تلقّيت علاجاً؟

ـ لا.

ـ غير معقول، لماذا؟

ـ لم يتم تشخيص المرض بشكلٍ كاملٍ حتّى الآن.

ـ كيف ذلك؟

حكى لها قصّة العبارة الواردة في رسالة الطبيبة، فأشرقت ابتسامة على محيّاها:

ـ يا سيدي إنّ العبارة تلك روتينيّة، يسطّرها الأطبّاء لأي مريض

ينوون معرفة حالة رئتيه لا أكثر ولا أقل، ريثما تظهر نتائج الفحص، وأنت لم تتسلم أية نتائج كما تقول.

ـ لا، لم أتسلّم شيئاً.

اتّسعت ابتسامتها.

ـ إذاً أبعد عن رأسك هذه الأوهام المخيفة!

ـ آ، قد تكون مبالغة منّي.

ثمّ سألها:

ـ ماذا قلتِ؟ أتحتسين فنجان قهوة معي؟

ـ أين تسكن قلت؟

ـ وراء الأجمة مباشرة، ثمّ أنتِ ألستِ موظّفة في المكتبة العامّة؟

ـ نعم، وكيف عرفت؟

ـ أنا أرتادها دائماً.

ـ لم أنتبه لك. يزور المكتبة يومياً عشرات الناس، هل تدرس في السويد؟

ـ أنا؟ لا. أنا لاجئ فقط، وأقضي وقتي في المطالعة. أشعر بالملل أحياناً.

ـ الملل جزء من حياة الناس هنا.

بَسَمَ لها وقال حاسماً الحديث:

ـ تعالي نحتسي فنجان قهوة ونثرثر في البيت، فالجوّ أصبح بارداً.

ـ لا بأس سأبقى لفترةٍ قصيرةٍ عندك.

بسطت يدها وقالت:

ـ كريستينا يوهانسون.

صافحها وقال:

ـ سالم السعد.

الفصل الثالث عشر

كريستينا تفتح قلبها

كان سالم يختلس النظر إلى وجه المرأة بين الحين والحين، وهما يسيران باتجاه الشقّة. فطنت له وابتسمت.

إنّ ملامحها الطفوليّة، وخدّيها الحمراوين كتفّاحتين، وشعرها الأشقر، لتجذب النظر، وتحبّب المرء إلى تأمّلها، على الرغم من تجاوزها سن الشباب.

درب الحارة الضيّق المحفوف بالأشجار، ينتهي بمبانٍ تنيرها كرات ضوئيّة. عندما ألمّا ببوّابة البناية أنبأها سالم بوصولهما.

المدخل يبقى مُناراً، وثمّة تحت الدرج يلمح المارّ في الليل أحياناً متشرّداً نائماً.

صعدا إلى الطابق الأوّل ودلفا إلى الشقّة. تخفّفت كريستينا من معطفها ثمّ اتجهت إلى الغرفة، واقتعدت أريكة منفردة.

علا صوت سالم في المطبخ وهو يعدّ القهوة:

ـ وهل ألقوا القبض على القاتل؟

ـ نعم وهو الآن في السجن.

بعد لأي جاء بفنجانين، حطّهما على الطاولة، واستوى على كرسيّ في مواجهتها.

ـ والفتاة، من وجدها؟

قال مستقصياً.

ـ المارّة. كانت لا تزال على قيد الحياة، ولكنّها ماتت في المستشفى لاحقاً.

ـ وما سبب كلّ هذا العنف؟

ـ الغيرة على الأرجح. كانت على وشك أن تتركه.

ـ ولماذا وقع الحادث في حيّنا؟

ـ القاتل يسكن على مقربةٍ من شقّتك.

لم يعقّب سالم مؤثراً عدم مواصلة الحديث في موضوع الجريمة.

لاحظ أنّها بدت أنحف بلا معطف، بينما بان ثدياها كبيرين وفخذاها بيضاوين شهيّتين، وهي في الحقّ لم تلمّهما وإنّما لفّتهما رجلاً على رجل، فانحسر ثوبها عن أعلاهما. لم يُبعد ناظريه عن جسدها.

انتبهت لذلك ولم تأبه.

ـ لماذا لم تتعلّم السويديّة؟

قالت مستوضحة.

ـ قد أتعرّض للترحيل من البلد إذا لم تجدّد دائرة الهجرة إذن إقامتي القصيرة.

ـ لسوف يجدّدونه، في مَ التشاؤم؟

ـ حتّى ذلك الحين سأدبّر أمري بالإنكليزيّة.

أجالت بصرها في أثاث الغرفة الفقير وهي تحتسي قهوتها متمهّلة بسبب سخونتها. استفسرت كأنّها محرجة:

ـ في القهوة توابل؟!

ـ آ، هال. قهوة عربيّة.

ـ وثقيلة أيضاً.

ـ دعيها! سأعدّ لك شاياً بدلاً منها.

ـ لا بأس بها، سوى أنني لم أتعوّدها.

قال سالم باثّاً هواجسه وظنونه:

ـ الموظّفون في المكتبة يحدّقون إليّ باستغراب، أو لأقل بلا ارتياح؟

ـ أمر طبيعيّ، بعضهم يظنّك متشرّداً، وآخرون يكرهون الأجانب والمهاجرين.

ـ لماذا لا يُطرَدون إذاً مادام القانون يحرّم العنصريّة؟

ـ أنت لا تملك الحق في طرد موظّفٍ من وظيفته لأنّه يكره

المهاجرين. هل لديك دليل على ذلك؟ ولكنّنا نكتشف بعضنا بعضاً حينما نلتمّ ونتحدّث، لا تهتم لذلك! هل أنت مهتم؟

ـ لو كنت مكاني لعانيتِ من المسّ بكرامتك.

ـ أتّفق معك، ولكنّ القانون بصراحة لا يملك أن يمنع الناس من معاداة المهاجرين، بيد أنّه يردعهم ويحدّ من شرّهم.

ـ لكنّ العنصريّة نهجٌ ينافي المزاعم الديموقراطية التي تدّعون تطبيقها؟

ـ الديموقراطيّة ياسيّدي شكليّة، بدليل أنّ العنصريّة تشكّل بناءً قويّاً في المجتمع السويديّ، وفق كلّ التقارير الحكوميّة. في بلدنا منظّمات عنصريّة ونازيّة منظّمة تنظيماً جيّداً، ولها قواعد جماهيريّة واسعة.

رفعت فنجانها إلى شفتيها فوجدته فارغاً. أعادته إلى مكانه. سارع سالم إلى المطبخ وأتى بالركوة، غير أنّها قالت معتذرة:

ـ لا شكراً. الإكثار من القهوة يجعلني أتأرّق ليلاً.

ـ هل يضيرك شيء لو أخذتِ زجاجة بيرة؟

رمقته بنظرةٍ ضاحكة.

ـ لا، أبداً، لماذا يضيرني؟

ـ عندي بيرة بكحول قويّة (بلو بريبس)، أم تحبّذين الويسكي؟

ـ لا بأس بكأس ويسكي.

ـ بعض النقول وفاكهة؟

ـ كما تحب.

أعاد سالم عدّة القهوة إلى المطبخ، وبقي فيه منشغلاً.

تناولت كريستينا من حقيبتها علبة ليلكيّة، لغطائها مرآة داخليّة. تفحّصت ملامحها، عاينت كحلها، وانقبض قلبها إذ لمحت التجاعيد الخفيفة التي بالكاد سترتها المراهم وذرور (البودرة).

سوّت شعرها، ومرّت بفرشاةٍ صغيرة على شفتيها بطلاءٍ ورديٍّ لمّاع.

كلّ ذلك تمّ بسرعة، وبحذاقة امرئ يختلس الوقت للتستّر على شيءٍ ما.

فكّرت كريستينا: «إذا شرعت في الشرب فلن أتوقّف، وسيتأخّر بي الليل، ولكن ما ورائي؟ هذا الشاب طيّب السريرة، ساذج نوعاً ما.

من يتكهّن ما يضمره الشرقيّون؟ بالنسبة إلى المرأة، يريدون النوم معها، ما العيب في ذلك؟ أنا في الأربعين الآن، والرجال ينظرون إليّ كما لو أنني جدّة.

إذا أخذني هذا الشاب إلى فراشه، ألن يصبح رأيهم مخالفاً للواقع؟ ثمّ ماذا سينقص من شأني لو نمت معه؟».

أحضر سالم صينيّة موسقة بزجاجة ويسكي وقدحين وصحني نقول وشرائح تفّاح وسطل ثلج صغير، ووضع ما فيها على الطاولة

ثمّ أتى بعلبة مناديل ورقيّة ومنفضة وعلبة دخان (كريفن) وقدّاحة.

ـ أراكَ تدخّن وأنت قيد المراقبة الصحيّة؟

ـ السجائر لكِ، أنا تركت التدخين، السيجارة طيّبة مع الكحول، خذي واحدة!

ـ في ما بعد.

والحديث بين غريبين يحاكي الطواف في الظلام وتلمّس الجهات، حتّى إذا أصبح الدرب سالكاً، أقلع المرء موغلاً في أماكن بعيدة الغور، يفكّ فيها المشروب مغاليق القلب، محرّراً النفس من ثقل القلق والوساوس، فتتواتر الأسئلة، ويسود التعاطف، سابغاً جوّاً من الإلفة والتفاهم.

عرف سالم أنّ كريستينا مطلّقة، وأنّ لها ابنة تدعى مارينا، تدرس في كوبنهاغن، وأنّ زوجها السابق إيريك طُرِدَ من وظيفته الدبلوماسيّة لإدمانه الخمر، وبات يعتمد عليها في إقامة أوده، مع مرّ الوقت تدهور الوضع، واضطرب البيت، وانتهت الحال إلى استحالة أن يعيشا معاً.

ـ وابنتك؟ هل تتصلين بها؟

ـ أسبوعيّاً.

ـ ماذا تدرس؟

ـ التاريخ، وهي على علاقة ببعض الحركات الاجتماعيّة والسياسيّة اليساريّة.

ـ لماذا لم تدرس في جامعات البلد؟

ـ أظنّها رغبت في النأي بنفسها عن الجوّ بمجمله، أنت تعرف أنّ القلق البيتي ينعكس بقوّة على الطفل، ويؤثّر فيه سلباً. تردّدتُ في الطلاق خوفاً على مارينا من الإرباك والضياع، إلّا أنّ أباها لم يكن يحفل بذلك. الاستغراق في الشرب صيّره لامبالياً، وأيّ بنت تحبّ أن ترى أباها في تلك الحالة من التردّي؟

ـ وهل تتصل به؟

ـ بالتأكيد، فهي تحبّه وتشفق عليه، وتساعده بين الفترة والفترة. ترك المدينة هو الآخر، ويقيم حاليّاً في مدينة لينشوبنغ.

ـ أكان عنيفاً؟

ـ لا، كان لطيفاً ومرحاً، غير أنّه يغرق في بكاءٍ مرير حين يكون وحده، أنا أشفق عليه لا أكثر، حاجته إلى السكر جعلته يؤثر نفسه على عائلته.

ـ ألم يخضع للعلاج؟

ـ بلى، لكنّه أضحى منكسراً، ونزّاعاً إلى الوحدة، وكئيباً جدّاً.

أبدى سالم تأثّره، واعتذر عن فضوله في معرفة أمور قد يكون من المؤلم استعادتها عند الشرب، بيد أنهّا أوضحت له أنّ تلك هي حياتها، وأنّ الماضي لا يني يعيش معها، في ذهنها وروحها في كلّ لحظة.

مدّت يدها إلى علبة السجائر، استأذنته في التدخين، وقامت متجهة إلى الشرفة، فقال لها:

ـ في مقدورك التدخين في الغرفة هنا.

ـ لا. ليبق الهواء في الداخل نقياً.

يسعدها عالم الليل وهي تتأمّل الأضواء، ظلمة الفضاء، الصمت الذي يغلّف الكائنات والأشياء.

سكر خفيف يخامرها. السماء حالكة السواد. تتراءى في أمدائها نجوم خافتة.

الدروب مُنارة بمصابيح البيوت والشوارع، والحرج المطوّق بالبنايات يظهر موحشاً وغامضاً.

تناهى إليها صوت طائرة هليكوبتر، دلّ على حركتها ضوءان نابضان: أحمر وأبيض. ما لبثت أن ابتعدت واختفت في أغوار الظلام.

فكّرت كريستينا: «أكان من العدل أن أترك أمّي تموت في مأوى العجزة؟ كم كان ذلك قاسياً. لم يكن إيريك معارضاً لإقامتها معنا، ماذا إذاً؟ أهي خشيتي من تفاقم الاضطراب في البيت؟ أم أنّ تردّد أمّي في السكن معنا شجّعني على رميها في المأوى، لأنني كنت خائفة من أن تلومني على زواجي؟

لم أرد مواجهة الحقيقة، لم أرد لها أن ترى بعينيها حقيقة ما يجري بيني وبين إيريك، لأنني أخجل من فشلي، أخجل من نفسي.

لم يكن في وسعي تفهّم إيريك، ولماذا انحدر إلى هذا الدرك. أنا الملومة على ذلك، كما تشير مارينا: ابنتي التي تركتني أخيراً.

لكم أنا وحيدة، لكم أنا قليلة حيلة إذ لم أكتشف شخصيّة إيريك مبكّراً.

لو لم أتزوّج، لو لم أنجب، فهل سأكون سعيدة؟ والندم، ألن يتآكلني بعد أن يتقدّم بي العمر؟

لم يبق سوى أن أقبل بكلّ ما حصل، لا أستطيع أن أفعل شيئاً الآن، لن يتغيّر شيء، ما جرى قد جرى، وعليه أن يستمر، كما تستمر الأيام والسنون».

نظرت إلى حيث قُتِلَت صديقتها وتنهّدت بأسى، وقالت: ما جرى قد جرى، لا أستطيع أن أفعل شيئاً الآن.

رمت عقب سيجارتها في الفضاء، فرسمت جمرته قوساً في القتام، وقفلت راجعة إلى سالم.

استغرقا في الشرب، وتقلّبت بهما الأحاديث، تكشف عمّا خفي تارةً، وتقارب الاعتراف طوراً، حتّى قال سالم وقد أدركه السكر والجوع.

ـ سأهيئ شيئاً نأكله!

أبدت كريستينا حماسة في مساعدته. أعدّا صحون «نقانق» وسلطة ولحم بارد وزيتون.

رقّة جلدها، ليونة نهدها، لدونة ردفها، دغدغة شعرها على وجهه، تولّد في نفسه البهجة حين يتماسّان، فيطيل أمد الملامسة حتّى أوشك، غير مرّة، أن يقبّلها على رقبتها، إلّا أنّه أحجم خشية ألاّ تكون راغبة في ذلك.

بعد انتهائهما من الطعام، قالت كريستينا:

ـ عليّ أن أعود إلى البيت.

ـ لماذا لا تنامين هنا؟

ثمّ أشار إلى فراشه وتابع:

ـ هذا السرير لكِ، وأنا سأفرش فراشاً لي على الأرض.

ـ ينبغي لي الذهاب إلى عملي غداً صباحاً.

ـ وما المانع؟ ترتاحين الليلة هنا، وغداً صباحاً تتحمّمين، تفطرين، وتمضين إلى عملك.

ـ ألا يضايقكَ أن تنام على الأرض؟

ـ أبداً، وفي استطاعتك استخدام بيجامتي للنوم.

ضحكت.

ـ شكراً، الثياب تعوق نومي.

كانت متعبة من الكحول، ورغبتها في الراحة والاستلقاء أقرب إلى ذهنها من الذهاب الآن، فالحال لن تختلف كثيراً هنا أو هناك، فعلام التردّد في المبيت، ومحاولة الانسحاب اللبق حيال كرم سالم وودّه ولطفه؟

طوى سالم لحافاً إضافيّاً ثلاث طيّات، مدّه على السجّادة، وفرشه بملاءة وبطّانيّة ومخدّة.

خلعت كريستينا ملابسها، واندسّت في السرير.

قالت:

ـ هل أطفئ الضوء؟

ـ ألا تحبّين العتمة؟

ـ تصبح على خير.

ـ وأنتِ من أهله.

أطفأت النور فغاب المكان، وتنفّس الظلام.

لم يدرِ سالم كم انقضى من الوقت، إلّا أنّ بشائر نور راودت ستائر النافذة، حين شعر بها تلتصق به عارية وتحتضنه، فتملّكته سورة شبق، وغمره فرح لرغبتها فيه، واجتاحت أحاسيسه رائحة جسدها، وتنفّسها، واحتكاكها به احتكاك الملهوف إلى النزوِ.

تجرّد من بيجامته مأخوذاً بالإثارة، مهتاجاً.

اندمج عريهما، وتمرّغا يتبادلان القبل ويجسّان أعضاء بعضهما البعض.

كان جسدها حارّاً شهيّاً، متفتّحاً له، وهو يعانقه، ويفرك شقّها، مهيّجاً لحمها. انحدر ودسّ وجهه في أسفل بطنها، آخذاً وهدتها بشفتيه، يداعبها ويمتصّها، وهي تتأوّد منتعظة، تحاكيه في مداعباته، مستسلمة لإيقاع جسديهما، مستمتعة وسادرة في ابتلاعه والامتلاء به.

لمّها بين ذراعيه، وولجها مندفعاً فيها وهي تحته مبلّلة، مفتوحة، تدعوه إلى إشباعها، تئنّ وتحثّه على دكّها وطحنها.

أنينها يتصاعد، وجسدها يختلج ملتهباً، متلهّفاً.

طوّقته برجليها، عقدتهما شادّة بطنه إلى بطنها. مضى غائراً في لحمها، حارثاً أعماقها، حتّى أنزل في جوفها، غامراً تلافيفها بماء امتزج بفيض مائها.

ارتفع نور الصباح، سقسقت الطيور على الشرفة، واستيقظ العالم ساعياً في يومٍ جديد.

الفصل الرابع عشر

المشي يساعدك على النسيان

كان سالم ينقّل عينيه بين عناوين الكتب العربيّة بقسم اللغات الأجنبيّة في المكتبة العامّة حين لاحظ شابّاً غير حليق، مهمل الثياب، يعلّق على كتفه حقيبة عتيقة، يتفحّص هو الآخر الكتب من وراء عويناته. لم يلبث أن قال له وعلى وجهه ابتسامة متكلّفة:

ـ تعوز هذا القسم كتب أدبيّة جيّدة، معظم الموجود إمّا قديم أو بلا قيمة.

توقّع سالم حديثاً مثل هذا، فقال بلا رغبة حقيقيّة في المواصلة:

ـ ألا ترى أنّ العثور على كتابٍ عربيٍّ في هذا البلد النائي أمرٌ مهمّ بحدّ ذاته.

ـ مهاجرون عرب كثرٌ يعيشون هنا، ولابدّ من أخذ حاجتهم إلى القراءة بنظر الاعتبار.

وكما هو مألوف في أحاديث كهذه في مكان غريب تنحو

الأسئلة بين شخصين غريبين تجمعهما لغة واحدة نحو المسالك الشخصيّة.

ـ لهجتك عراقيّة، من أيّة مدينةٍ أنت؟

سأله الشاب.

تردّد سالم للحظة، إذ لم يعجبه هذا الفضول، لكنّه قال بنبرةٍ تنمّ عن الضيق:

ـ البصرة.

ـ حقّاً؟

ردّ الشاب وقد شابت صوته رنّة فرح فواصل:

ـ وأنا بصريّ، من منطقة القرنة.

ـ القرنة بعيدة نسبيّاً عن المدينة.

ـ ساعة في السيّارة، هل زرتها يوماً؟

ـ مررت بها مرور الكرام.

بسط الشاب كفّه بحيويّة زائدة إلى سالم وصافحه:

ـ رمزي إسماعيل.

ـ سالم السعد.

ـ أين في البصرة؟

ـ منطقة العشّار، محلّة مقام علي.

ـ أعرفها، فلدى أبي علاقات طيّبة مع التجّار في تلك المحلّة. مَنْ تعرف مِنْ قاطنيها؟

ـ أنا قليل الاختلاط بالناس، ولكنّني أعرف مالِك بيتنا، وهو تاجر خضروات كما أظن، إلّا أنني نسيت اسمه: الحاج علوان، سلوان، بهلوان.. أو شيء من هذا القبيل؟

ضحك رمزي:

ـ قد يكون الحاج صفوان، صفوان البدر.

ـ لابدّ أن يكون هو إذاً، وأنت ماذا تفعل في هذا الصقع البارد؟

ـ لا شيء محدّداً، هل أقول إنني جوّاب آفاق في بلاد الله الواسعة؟ أنا أسكن في شارع (غود فدرز غاتان)، زرني الليلة!

ـ شكراً على الدعوة. بيتك قريبٌ من حيّنا وسأحاول هذا المساء، إن لم يعترضني عارض.

□□□

اعتاد رمزي احتساء مزيج من الويسكي والبيرة: مشروبه المفضّل، بينما يطالع التلفزيون دونما تركيز، لانشغال باله في كيفيّة تدبير إيجار الشقّة المُشتَحَق، عقب الخسارة الفادحة التي مُني بها على طاولات القمار في الكازينو.

أمّا حالة الشقّة فرثّة، يتداعى أثاثها كلّ حين: الأريكة مخسوفة، السجّادة مهترئة، زجاج النافذة مهشّم، المغطس مكسور، شاشة التلفزيون مثقوبة، الخزانة مفتوحة، تتدلّى منها الثياب، وثياب أخرى مكدّسة على الكرسي، والكرسي بلا ظهر، الشرفة مغطّاة

بذرق الطيور، وهواء البيت يعبق بروائح دخان السجائر والطبيخ وعيدان البخور التي يشعلها أحياناً بِنيّة التعطير.

ولا يستغرب الزائر تناثر أحجار شطرنج في أكثر من مكان، إذما يعرف أنّ الشطرنج هو ولع رمزي الأكبر وهوايته المفضّلة.

ولأنّه مشّاء فلقد جاب ضواحي المدينة، ورقي التلال المحيطة بها، حتّى حملته قدماه ذات يوم إلى ذلك المبنى المتوهّج بالأضواء، والعاج بالناس المحدّقين بترقّب وتوتّر إلى قماش الطاولات الأخضر، فغدا يقضي لياليه بينها حتّى الهزيع الأخير من الليل، ولم يكف إلى أن أفلس وأعياه الجوع، فراح يشتري طعامه ودخانه بالدين من أحد الدكاكين.

قفز إلى خاطره اسم سالم حينما سمع جرس الباب يُقْرَع.

وكان سالم فعلاً. دلف مسلّماً ثمّ اتّخذ مكانه في الأريكة، وعندما استقرّ فيها غطس في حفرتها فاستعان على الهوّة بمخدّة.

الطاولة الزجاج الواطئة المبقّعة بآثار سوائل أمامه موسّقة بالمتروكات والمنسيّات: صحن غير مغسول، لفّة ورق تواليت، علبة بيرة فارغة، شمعة نصف محترقة، منفضة سجائر، أحجار شطرنج، قاموس سويديّ دانماركيّ، علبة دخان (كاميل) وقدّاحة، ملعقة، حاوية سكّر.. إلخ. قصد رمزي المطبخ وصوته يعلو متسائلاً:

ـ كيف تحبّ الويسكي؟ بالماء؟ بالثلج؟

ـ بيرة فقط.

قام سالم من جانبه بترتيب الطاولة. سمع رمزي يهتف:

ـ إذا لم تكن مرتاحاً أجلب لك مخدّة ثانية تعينك على الخروج من الوادي.

ـ لستُ متضايقاً، هل أرفع هذه الأشياء عن الطاولة؟

ـ افعل ما يحلو لك!

ثمّ واصل رمزي مستفسراً حالماً ولج الردهة حاملاً صينيّة مثقلة بكأس ويسكي وزجاجة بيرة وصحن فستق:

ـ قلت إنّك تسكن قريباً من هنا؟

ـ نعم على مسافة خمس دقائق.

وأشار سالم بيده إلى الطريق التي يتعيّن على المرء اتخاذها لبلوغ شقّته.

ـ مقيم منذ زمن في هذا البلد؟

قال رمزي وهو يضع الصينيّة على الطاولة.

ـ منذ بضعة أشهر، جئت من الاتحاد السوفياتي.

ـ هل أنت شيوعيّ؟

ـ كنت كذلك، تركت الحزب مؤخّراً.

ـ لماذا؟

رفع سالم قنينته في صحّة محدّثه فجاراه صاحبه، ثمّ احتسى جرعة من البيرة وقال:

ـ لم أعد أطيق الديكتاتوريّة الحزبيّة السائدة في صفوف التنظيم الحزبيّ: تلك التي يطلقون عليها تسميات مختلفة لتبريرها.

ـ مثل؟

ـ الانضباط الحزبيّ، الالتزام بوحدة الحزب، المركزيّة الديموقراطيّة، النقد الذاتيّ، الالتزام بقرار الأكثريّة، مبدأ نقّذ ثمّ ناقش.. إلخ

ـ هذا والحقّ سجن.

ـ وأنت تمارس عملاً ما، نشاطاً معيّناً؟

ـ أنا كنت فعلاً في السجن بكوبنهاغن. حبسوني سنة لاستخدامي العنف المفرط ضد الخائنة زوجتي، هذه هي السنة الثانية التي تمرّ عليّ وأنا طليق. تركت الدانمارك بعد إطلاق سراحي وعشت في ألمانيا فترة طويلة. أقوم أحياناً ببعض الأعمال الحرّة لإعالة نفسي.

ـ أما كان بإمكانك اللجوء إلى الطلاق بدلاً من العنف؟

ـ بلى، إلّا أنني لم أتحكّم بأعصابي.

ـ أمرٌ مؤسف.

ـ عندي طفلتان، مازالتا مع أمّهما.

ـ وهل تستطيع زيارتهما؟

ـ ممكن، ولكن بحضور الشرطة.

ـ والآن؟

ـ أمشي طول الوقت قاطعاً أرجاء المدينة، أحبّ صعود التلال بخاصّة.

ـ المشي يساعدك على النسيان.

ـ أنا أحبّ المشي منذ طفولتي.

لزم الصمت برهة ثمّ استفسر:

ـ عندك إقامة دائمة؟

ـ لا، مؤقّتة، وأخشى ألاّ تُجَدّد.

ـ وتُسفَّر.

ـ نعم.

ـ عليك أن تسعى إلى الزواج ببنت سويديّة.

ـ تعرّفت مؤخّراً إلى امرأة سويديّة مطلّقة.

ـ حلوة؟

ـ لا بأس بها.

ـ نمت معها؟

ضحك سالم ولم يعقّب، فقال رمزي:

ـ السويديّات يحببن الجماع، كلّما أكثر الرجل منه صارت حظوته لديهنّ كبيرة، بخاصّة إذا كانت آلته ضخمة وطويلة؟

قال سالم ضاحكاً:

ـ حكي مهاجرين. نعود إلى موضوع الزواج.

ـ قبل أن تعرض على المطلّقة الزواج، أشبعها من آلتك، واجعلها عبدة لفراشك، بذلك تضمن حبّها لك، وإلاّ فالإسكندنافيّة حذرة من المهاجر، ولا تثق به، فهو في نظرها، كما في نظر مجتمعها،

غشّاش وكذّاب ومحتال.

ـ لأنّه يحاول الالتفاف على القانون بسبب ضعفه وحاجته، وخوفه أيضاً: الخوف من عدم الاستقرار يدفعه إلى بذل كلّ ما لديه من حيل ليؤمّن إقامته واقتصاده.

ـ خصوصاً في السنوات الأولى. الروتين وصعوبة اللغة يجعلانه مذعوراً من القوانين. لذلك ترى مهاجرين كثراً يعانون حصراً نفسياً، علاوة على العزلة الناجمة عن الشتاء الطويل.

ـ دع عنك العنصريّة!

ـ على حدّ قولك.

ـ حمّى المنفى خير من الموت في الوطن. الذعر يحمل الناس على التشبّث بالبقاء هنا.

ـ لا تنسَ المساعدات الاجتماعيّة!

ـ المساعدات لا تجعل المهاجر سعيداً.

ـ لا، بيد أنّها تحميه، لذا فهو يتحمّل الذلّ لإدراكه أنّه في نهاية المطاف لن يموت جوعاً هو وعائلته، أو يسقط قتيلاً بقذيفة طائشة، أو يُقْتَل، أو يُخْتَطَف ويُسْجَن من قبل غزاة وميليشيات.

ـ ولكنّي أنا لي أسبابي الخاصّة بالهجرة.

ـ المثقّفون لهم أسبابهم دائماً، سوى أنّهم يُعامَلون هنا مثل الباقين، ولا ميزة خاصّة تميّزهم عن غيرهم.

ثمّ راحا يشربان ويتجاذبان أطراف الحديث والوقت يمرّ وهما لا يحسّان.

الفصل الخامس عشر

حرائق

ضوء الشمس يشعّ في باب السطح المفتوح. كان سالم يبصره من مكانه وهو جالس قدّام المروحة ورائحة الطعام تملأ أنفه. لقد أوصته أمّه أن يبقى هادئاً حتّى تنهي عملها.

يعرف أنّها في السطح تخبز في التنّور. اشتاق إليها وأوشك حقّاً على الصعود إليها ليكون في جوارها، ولكنّه تردّد، لأنّها ستجبره على النزول ثانية إلى الحوش خوفاً عليه من الشمس الحامية.

شمّ رائحة دخان قويّة وبلغت سمعه صرخة، لا بدّ أنّها صرخة أمّه. انفجر لدى باب البيت قرعٌ وصياح. جرم أمّه يقطع شعاع الضوء المغبر بالدخان. ها هي تهبط هلعة، جزعة، مهووشة الشعر، تكاد تقع على وجهها من فرط سرعتها.

احتضنته، رائحتها دخان وخبز، وجرت به إلى الباب الخارجيّ الذي ما إن فتحته حتّى اجتاح الجيران فناء البيت: رجال ونساء

وأطفال يحملون السطول والأواني الملأى بالماء متوجّهين إلى السطح.

لغط ونداءات. سمع أمّه تهتف: التقط السعف شرارة من التنّور.

دخان. دخان. صدره يضيق. أمّه تهرع به خارجاً. الهواء حارّ. السماء زرقاء، تدور فيها دوائر من ضوء الشمس الساطع.

رأسه يلتصق برقبة أمّه، وعرق وجهها ورقبتها يبلّل وجهه ورقبته. صدرها يخفق محتدماً، وسرعان ما تسلّل خوفها إليه.

استيقظ سالم من نومه إثر نوبة سعال دهمته. الغرفة مضبّبة بالدخان. الشبّاك منوّر بضوءٍ غريبٍ، أصفر برتقاليّ. هبّ من فراشه وأسرع متوجّساً نحو النافذة. كانت النار تندفع من نوافذ البناية الملاصقة لبنايتهم، وألسنتها تندلع أمامه بشراسة، تكاد تدنو من شقّته.

قُرع جرس الباب. أنار مصباح الغرفة وغادرها. أضاء الممر. البيت كلّه دخان. سار إلى الباب وفتحه، فإذا بشرطيّ يواجهه:

ـ أغلق الشبابيك جيداً ولا تقترب منها، فقد ينفجر زجاجها!

ـ بالإنكليزيّة رجاءً!

قال سالم وقد تولّاه الاضطراب.

ـ أوه. آسف.

أجاب الشرطي وكرّر تحذيره بالإنكليزيّة.

ثمّ راح يطرق أبواب الشقق الأخرى منبّهاً ومحذّراً.

رجع سالم إلى النافذة وأخذ يحدّق إلى النيران، فأحسّ لمرآها بخطرٍ حقيقيّ، فهي تتأجّج بسرعة وألسنتها تتراقص متطاولة شيئاً فشيئاً باتجاه شرفته.

لم يرَ رجال إطفاء، بل بضعة أنفار من الشرطة فحسب. لبس ملابسه وترك الشقّة. لقي رجالاً ونساءً وأطفالاً في طريقهم إلى مغادرة البناية الملأى بدخانٍ كثيف.

بعضٌ يتأفّف وآخر يشتم. سأل أحدهم إن كان يعرف شيئاً عن الحريق فهزّ رأسه نفياً. وقف مع الجميع قبالة البناية يتطلّع إلى النار التي تلتهم الطابق المنكوب.

عادة يرين السكون على الحي حينما ينتشر الظلام، إلّا أنّ الحريق بلبل هدوءه وطفقت الحركة تعمّه. وقف ناس لدى الشرفات والأبواب والنوافذ يدخّنون وينظرون إلى النار مستمتعين ولا شك بمشهدها.

وصل رجال الإطفاء بأقنعتهم الواقية من الدخان، وبعبوات الأوكسجين على ظهورهم. وجّه نفرٌ منهم خراطيم المياه إلى النوافذ المشتعلة، فيما اجتاح آخرون البناية.

بعد فترة غادروها مسرعين وهم ينقلون امرأة مُغمى عليها إلى سيّارة إسعاف صفراء تقف في الجوار، ثمّ لا شيء آخر.

توجّه سالم إلى الشرطي الذي قرع بابه، وكان مشغولاً بالحديث في هاتفه النقّال، ثمّ انضمّت إليه شرطيّة، ألقت على سالم نظرة متسائلة فبادر مستفسراً:

ـ هل الحادث مفتعل؟

ـ سنعرف ذلك بعد إجراء التحقيقات اللازمة، هل أنت بخير؟

ـ نعم أنا بخير.

كان يسترق السمع إلى الحديث الجاري بالإنكليزيّة رجل عجوز يلتحف بمعطف واسع أسود ويعتمر طاقيّة صوف. في عينيه ومضة صلف وجسارة، وعلى محيّاه المحتقن بفعل السكر آي الاندفاع والتهوّر، كأنّه بصدد افتعال مشكلة ما.

قال متدخّلاً، موجّهاً كلامه إلى سالم، وغامزاً من قناة الشرطيّة:

ـ الشرطة آخر من يعلم في هذا البلد.

ـ حقّاً؟

ردّت الشرطيّة غاضبة.

ـ هاهو ثاني حريق يندلع في المنطقة نفسها، وستندلع حرائق أخرى قريباً.

ـ ومن أدراك؟

ـ لأنّ بيننا مشعلي حرائق، ولم تكلّف الشرطة نفسها عناء القبض عليهم.

ـ الحريق الأوّل لم يكن مدبّراً.

ـ ولكن هذا الحريق مدبّر.

ـ لا أحد في إمكانه حتّى اللحظة تأكيد ذلك أو نفيه قبل إجراء التحقيقات اللازمة.

وهكذا جرى اللغو بالإنكليزيّة والسويديّة، لغو لم تعد الشرطيّة تطيقه، كما لم يكن في طوقها إرغام صاحبه على إطباق فمه الذي فاحت منه رائحة حامضة مقرفة، وإنما جعلت تصغي إليه وقد لزمت الصمت.

ـ مجرمون يجوبون الأحياء، يُسقطون جرائد مشتعلة عبر فتحات البريد في الأبواب، أو يرمون قنابل حارقة في أبهاء البنايات، يشعلون كلّ شيء مستمتعين بموتنا حرقاً واختناقاً. ماذا فعلت الشرطة لنا ونحن ندفع ضرائب باهظة كي نعيش براحةٍ وأمان؟

احتقن وجه الشرطيّة بالغضب. تفرّست فيه بكراهية، عنّفته وطردته.

أُرْتِجَ على العجوز وانسحب متوارياً عن الأنظار في الظلام.

أخذ رجال الشرطة بعض السكّان إلى مساكن أخرى لايوائهم، فيما عاد الآخرون وسالم من بينهم إلى شققهم بعد إخماد النار.

□□□

صباحاً استيقظ سالم على رنين الهاتف.

رفع السمّاعة:

ـ ألو؟

ـ أنا الطبيبة مارغاريتا، أنت سالم؟

ـ نعم.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

ـ أودّ أن أقول لك إنّ أشعّة (رونتغن) لم تُظهر أيّة علّة عندك.

ـ وما سبب البلغم والدم؟

ـ إنّك تعاني مبدئيّاً من حساسيّة ناجمة عن التدخين. سأعطيك (بريكانيلْ): دواء تستنشقه إذا تعرّضت لنوبات اختناق.

ـ ألستُ مصاباً بالربو؟

ـ لا. مجرّد حسّاسيّة لم تتطوّر إلى حالة ربو كاملة، يجب أن تقطع التدخين!

ـ سأحاول.

ـ حظّاً سعيداً.

ـ في أمان الله.

أعاد السّماعة إلى موضعها. أطلّ غريزيّاً من الشبّاك فرأى نوافذ الشقّة المحترقة سوداء، وثمّة هباب كثيف على شرفتها.

على الأرض تحت البناية: برك موحلة، أشياء محترقة، وقطع خشب متفحّمة.

مرّ عابر سبيل، تفحّص آثار الحريق، التقت عيناه بعيني سالم فحيّاه مبتسماً ثمّ مضى في طريقه لا يلوي على شيء.

□□□

نظّف سالم الأواني والصحون مما يحسب قد علق بها من رائحة دخان، ومسح أرضيّة المطبخ والغرفة، وأجّل تنظيف الشرفة إلى وقتٍ آخر، فهو لا يميل إلى الأعمال البيتيّة ويمارسها للضرورة فقط.

التقط من تحت فتحة البريد في الباب (شيكاً) أرسلته دائرة الشؤون الاجتماعيّة لتغطية نفقاته اليوميّة. طواه ودسّه في جيب بنطاله المعلّق.

أرسل ناظريه عبر النافذة لرؤية حالة الطقس وتبيّن ما يرتدي المارّة من ثياب مناسبة. فالجو في الخريف محيّر. لبس ما وجده مناسباً وخرج.

لدى بوّابة البناية شمّ رائحة دخان قويّة، فالهواء لا يزال يعبق بآثار الحريق. مشى قاطعاً كتل البنايات السكنيّة ميمّماً وجهه شطر المركز التجاريّ. دخل مقهى تركيّاً. طلب سندويشة جبن وقدح شاي. وأنشأ يرقب حركة الناس عبر الواجهة الزجاج، وأصوات الزبائن تتهادى إليه: تحايا وتعليقات بالتركيّة التي عرفت أذنه نبراتها من أيّام اتّصاله باليساريين الأتراك في موسكو.

بعد الفطور ابتاع الدواء من الصيدليّة وصرف (الشيك) في مكتب البريد، ثمّ أخذ القطار إلى مركز المدينة وهو لا يدري كيف يقضي يومه، ولا يودّ في آن أن يفعل أيّ شيء، سوى التسكّع في الشوارع، والجلوس في المقاهي، وقتل الوقت بالنوم أو الحملقة في التلفزيون. هاهو يصبح ضحيّة عزلة، هي إلى الإقامة الجبريّة أقرب، بينما صدره يضيق بالوساوس. ها هو يصير بمرور الأيام عبداً حقيقيّاً لأساليب مديريّة الهجرة وأمزجة موظّفيها.

تلك المؤسّسة الغامضة التي لا يعرف أحدٌ كيف تعمل، وكيف تجمع الرأي على قرار قد يودي بحياة إنسان[١٤].

تذكّر نصيحة كاتارينا غوستافسون بزيارة مقر اتحاد الأدباء الواقع في ساحة (يرن توريت): ملتقى الهيبيين والفوضويين والكحوليين، وملاذ العشّاق وطالبي الراحة والتأمّل.

ساقته قدماه عقب مسير طويل على هدى خارطة محليّة إلى مقر الاتحاد فوجده مقفلاً.

عاد إلى شارع (لينيه غاتان) فإذا بحركة السير معطّلة، وقرع طبولٍ يعلو، وحشدٌ من الشباب الغاضب يقطع الطريق متّجهاً إلى ساحة (يرن توريت) في مسيرة احتجاجيّة.

لم يفهم سالم، أوّل وهلة، ماذا يريدون، وعلام يصرخون؛ إلّا أنّ الأعلام الحمر والرموز اليساريّة التي رفعوها: النجمة الحمراء، المنجل والمطرقة، صور البطل اللاتينيّ تشي غيفارا وكارل ماركس، دلّت على هويّتهم.

بعضهم يتلفّع بالكوفيّة الفلسطينيّة، وآخر ملثّم يرتدي ملابس سوداً.

شباب تملؤهم الحماسة الثوريّة والرغبة في تغيير العالم. وثمّة في

---

(١٤) رفضت دائرة الهجرة السويديّة في الثمانينيات السماح للفنّان التشكيليّ العراقيّ البَصْريّ عبّاس مكطوف بالإقامة في السويد، وأعادته بالقوّة إلى العراق، حيث جُنّد وأُرسِل إلى جبهة القتال العراقيّة ـــ الإيرانيّة، ليلقى بعد فترةٍ وجيزةٍ حتفه في إحدى معاركها الطاحنة.

مقدّمهم قارعو طبول يقرعون في رتابة إيقاعات تنذر بهبوب الثورة القادمة بلا ريب، لتدمير العالم القديم وبناء آخر جديد على أنقاضه.

دورياتِ الشرطة السيّارة والخيّالة متأهّبة عند نواصي الدروب، تراقب الوضع عن كثب ولا تتدخّل.

في الساحة كان الحشد يتعاظم بوجوه حانقةٍ وقبضات مشرعة. الصراخ يشتدّ والأذرع تلوّح بالأعلام.

راح نفرٌ من رجال الشرطة يثبّتون بعزمٍ وهدوءٍ حواجز حديد في بعض الأماكن، لحجز الجمهور، وإعاقة اندفاعه، ما يسهّل السيطرة على حركته.

شاهد سالم مسيرة حاشدة أخرى قادمة من جهة كنيسة (هاغا)، أكثر تنظيماً وانضباطاً: فتية صامتون، حليقو الرؤوس، بملابس سود وأحذية عسكريّة، يسيرون بزهوٍ وخيلاء، وجوههم صلبة، ونظراتهم قاسية تُنذِر بالعنف والشرّ، وفوق رؤوسهم ترتفع الشارات النازيّة، والأعلام السويديّة في نسقٍ احتفاليّ مرتّب، على غرار الاستعراضات العسكريّة.

تحرّكت مفرزة من الشرطة الخيّالة، وحجزت ما بين الحشدين: خيول ضخمة عالية، يعتليها رجال شرطة بخوذٍ ودروعٍ، تتّقد قسماتهم بالحزم والإقدام.

تفاقم الهياج، وتصاعد الصخب، واضطرم الحشد مثل مرجلٍ يغلي.

وطارت القناني والحجارة، وظهرت إلى العلن الهراوات.

تسرّبت جمهرةٌ من اليساريين من بين الشرطة، وهجمت على النازيين، مشتبكة معهم بالأيدي والعصي وسواري الأعلام. سرعان ما توسّع نطاق العراك والضرب والتكسير حافلاً بالشتائم وصرخات التهديد والتنديد، ورشق الطرفان الشرطة بالحجارة المُقْتَلَعة من أرض الساحة، فتراجعت، ثم هجمت بالهراوات والكلاب والخيول على الفريقين المتقاتلين.

دمّر المتظاهرون واجهة أحد المطاعم واستخدموا كراسيه ومواسيره في الهجمات ضدّ سيّارات الشرطة وخيولها وكلابها.

ودار القتال بين كرٍّ وفرٍّ، استعمل فيه المتناحرون كلّ ضروب العنف، بكلّ ما يملكون من قوّةٍ وعنادٍ وشراسة.

أغلقت المتاجر المحيطة بالساحة أبوابها وفرّ المارّة. أطلّت رؤوس من نوافذ البنايات تتفرّج، وبرز صحافيّ يحمل كاميرته يصوّر غير آبه بالعنف المحدق به، وتقاطرت أعداد أخرى من رجال الشرطة بالسيّارات والخيول.

كان سالم ينتبذ زاوية في دربٍ جانبيّ يرقب الاشتباك، مثلما الأمر في فيلمٍ سينمائيّ.

مُزِّقَت الأعلام، وهُشِّمت العظام والرموز، وطافت على ماء النافورة الخرق وقصاصات الورق وكسر الخشب.

أجبر رجال الشرطة النازيين على التراجع، تحت ضغط الهراوات وهبّات الخيول والكلاب، حتّى تشتتوا، ووقع بعضٌ منهم رهن الاعتقال، فسيق إلى السيّارات أو جُرّ إليها جرّاً.

ظلّ اليساريّون يجولون ويصولون فترة، ثمّ تفرّقوا جماعات وفرادى في الأزقّة، وتواروا بعد اعتقال عدد منهم.

غادرت الشرطة المكان، وعاد الخيّالة من حيث أتوا.

في الساحة الفارغة: أشلاء مقاعد، هشيم زجاج، حجارة مُقتَلَعة، أعلام مخرّقة، شظايا خشب، مواسير، وروث خيل.

شعر سالم بالجوع، فانطلق في طريق يصعد ناحية المتحف البحريّ.

السماء باهتة الزرقة، تزيّنها رقائق غيوم بيض مندوفة كالقطن، وتسبح فيها طيور (الغاق) البحريّة.

الشمس حاضرة لكن واهنة. عادت حركة السير إلى طبيعتها. وجوه السابلة كدأبها حياديّة. وإحساس يترسّخ لدى المتجوّل بشدّة خضوع الناس للنظام، خضوع نابع من إرادتهم فحسب، ما يجعلهم عبيداً لشروط المدينة التي أنشأوها بحرصٍ وحب.

دخل سالم مطعماً إيرانيّاً، طلب كباباً ورزّاً، وسأل الخادم العجوز بالإنكليزيّة عن مناسبة الصدامات في الساحة.

طافت ابتسامة عريضة على وجهه الشائخ المتهدّل، وردّ بهشيم كلمات إنكليزيّة، تعتورها أخرى فارسيّة، ما معناه:

«لا أدري سيّدي، يحصل هذا العراك أحياناً، هل تريد اللبن بالثوم أم بالنعناع؟».

في أعقاب وجبته عاد سالم قاطعاً دروباً أخرى تؤدّي إلى الساحة، لم يسبق له أن مرّ بها.

في بداية شارع يدعى (لونغ غاتان) استوقفته لافتة محل تعلن عن نفسها بكلمة (تابو). واجهة المحل منكفئة على نفسها كما لو أنّها تخبّئ شيئاً ما.

لا معرض زجاج، إنّما مدخل فقط على غرار مداخل الملاهي، يحلّيه رسم فتاة تعرض مفاتنها.

لدى منصّة البيع تقف امرأة تتخايل على وجهها أمارات عهر.

لم يكن المكان غير متجرٍ لبيع السلع الجنسيّة: أفلام، مجلّات، أعضاء تناسليّة من المطّاط والزجاج والفولاذ، دمية تمثّل امرأة عارية، ملابس داخليّة جلديّة خاصّة بالمضاجعة الفنيّة، مجهّزة بأسواط وكلبشات وقفّازات وكمّامات وأقنعة وحبال وأشياء أخرى مما يتعاطاه المهووسون والمهووسات في غرائب المداعبة والجماع، لاجتلاب اللذّة، وإدامة المتعة، وتكثيف الشهوة بالعضّ والجَلدِ والضربِ والوخز والتقييد والتعليق والقرص لبلوغ ذروة النشوة في قلب الألم.

خلال طوافه في عجائب المنتجات الجنسيّة، مستغرقاً في تأمّل خيال صانعيها المتطرّف، شاهد فتاتين تطالعان فروجاً بلاستيكيّة باهتمام. ثمّ انتقلت إحداهما إلى الأعضاء الذكريّة، وجعلت ترمقها طويلاً وعلى وجهها سهومٌ وتَفَكر.

مدّت يدها وتحسّست مفتونة واحداً كبيراً أسود، وزلقت أناملها على تكويراته وعروقه برقّة، كأنّها في انجذابها تنزع إلى المقارنة بين خبرتها وبين الرغبة في خبرات جديدة.

لفتت المداعبات نظر سالم فتعلّقت عيناه بأناملها مُسْتَثاراً، تنبّهت

له، وابتسمت ابتسامة فتاة أفاقت للتوّ من حلمٍ لذيذ.

تحوّلت بعدُ إلى معروضات أخرى بهدوء، مشدودة إلى ما فيها من لذائذ وبهجة، وملامحها تشي بأنّها تتنقّل بين واقع وواقع، بين اللحم والمطّاط والزجاج والفولاذ، مأخوذة بالشكل والسُمك والطول ودقّة الصنعة.

لمّا غادر سالم المحل جاس خلال الشارع، مدقّقاً النظر في الواجهات واللافتات وما تحمل من دلالاتٍ ومعانٍ، فأدرك أنّ حوانيت الشارع بمعظمها تتخذ من الجنس سلعةً وتجارة.

كان المساء قد خيّم للتوّ، وخلت الدروب المُنارة من المارّة.

سار جهة الساحة حتّى ألمّ بها. بعض الأكشاك فتح أبوابه، حيطان دورة المياه العامّة مرشوشة بشعارات اليساريين.

الهدوء يغلّف الأنحاء، وآثار العراك ما برحت مكانها.

لا يدري لماذا يداخله أحياناً توقّع بأنّ أحداً ما سيهتف باسمه، كما كان يحصل له في بلده، فيلتفت وهو في طريقه ماشياً، أو وهو واقف في مطرح ما صافناً، وكم سمع صوت أمّه يناديه في أيّام اغترابه الأولى، فيمسّ الصوت الخافت المُتْعَب أوتار الشوق والحنين في روحه.

ها هو الآن وحيد وحدة مطلقة، في منفى لحمه أقرب إلى الزجاج والمطّاط والفولاذ منه إلى أيّ شيء آخر، حتّى جاء قطار الضواحي، فركبه عائداً إلى مأواه.

□□□

في الشقّة لفّته حالة من السأم، فأخذ يدور هنا وهناك، لا يدري ماذا يفعل، لم يكن في وضع يساعده على الوحدة، ففي نفسه ضيق شديد، والسكر هيّج عواطفه.

رفع السمّاعة وهتف إلى كريستينا بلهجةٍ راودتها اللهفة:

ـ كريستينا، مشتاق، تعالي!

ـ الآن؟

ـ مشتاق أن أضع رأسي في حضنكِ العاري وألعقكِ.

واستغرب هو نفسه طول لسانه، فجاء صوتها ضاحكاً:

ـ أنت سكران بلا شك.

ـ تعالي، أودّ أن أحرثكِ حتّى الصباح!

وكانت نبرته قويّة أقرب إلى سلوكه الفظ حيال روزالي في حفلة الرقص.

فردّت كريستينا وقد خامرها الفرح:

ـ حتّى الصباح؟

ـ بلا انقطاع، وستكونين سعيدة وراضية.

لزمت الصمت هنيهة، فسمعت سالماً يستفهم ملهوفاً:

ـ ألو؟ كريستينا؟

أتكون ضجرة من الحديث كلّه. سؤال جال في خاطره.

ـ أحتاج إلى وقتٍ لتغيير ملابسي.

قالت.

ـ هل أضايقكِ؟

ـ ليس هذا ما أقصد، وإنّما يعوزني الوقت فعلاً.

ـ خذي راحتكِ!

ـ سأكون عندكَ بعد قليل، أغيّر ملابسي ومسافة الطريق.

بدت جادّة وحاسمة.

ـ أنا في الانتظار، إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

ردّت بصوتٍ ثابتٍ وأغلقت الخط.

الفصل السادس عشر

مدينة السليمانيّة

في ذلك الصباح انتهى المطاف بزكي وخاله في حومة الزحام والضجيج إلى محطّة النهضة، حيث ودّعه خاله وذهب إلى عمله.

قلّب زكي عينيه في ما حوله فتبيّن الركن الذي يقصده الناس بملابسهم الكرديّة وسار إليه.

الحافلة المتّجهة إلى مدينة السليمانيّة صغيرة قياساً بتلك التي أتى بها من البصرة، وهي متوقّفة حاليّاً ريثما يكتمل عدد الركّاب. أمّا الوقت فمن يأبه له.

اختار زكي مكاناً قرب النافذة لمشاهدة ما يمرّ به، قضاءً للوقت ودفعاً للملل، فيما حمل السائق حقيبته إلى الصندوق الخلفيّ.

بعد طول عناء تخلّصت الحافلة من الازدحام في بغداد واستقام لها الطريق ممهّداً، فأقلعت خفيفة سريعة والريح تحفّ وجه زكي فتشعره بالخفّة والحريّة.

اختفت التجمّعات السكنيّة حالما تجاوزوا الضواحي، وعانقت البراري المدى تخالطها بين الفينة والفينة مزارع وقطعان ماشية.

شرعت البساتين تكثف وتتسع مع اقترابهم من مدينة بعقوبة، بعدها وصعوداً إلى الشمال طالعتهم سلسلة جبال حمرين البادية للناظر من بعيد عارية، إلّا أنّ بطونها كما أخبره أبوه ملآى بالشجر وحيوانات الغاب.

توقّفوا للغداء في مطعم طريق ببلدة طوزخورماتو، لا يختلف في شيء عن مطاعم الطرق الأخرى: زحام وذباب، أزبال وكلاب شاردة، روائح لحم مشوي وكراسي بلاستيك بيض.

لدى مدخل مدينة كركوك أوقفهم حاجز ثابت للشرطة العسكريّة. فتح الباب جهة الركّاب جندي وأطلّ بسحنته المهدّدة. تفحّص الوجوه والهيئات واستقرّ نظره على زكي. ثبّت عينيه عليه كأنه عثر على ما يبحث عنه وطلب بطاقة هويّته، فلبّى زكي طلبه.

ـ وماذا تفعل في الشمال وأنت من أهل الجنوب؟

سأله الجندي متفاصحاً مشكّكاً بعدما ألقى نظرة سريعة على البطاقة.

ـ أنا في طريقي إلى جامعة السليمانيّة لزيارة أخي في كلية الهندسة.

أعاد البطاقة إليه وأخذ يرمق الركّاب بعينين مرتابتين.

ـ هؤلاء كلهم من مدينة السليمانيّة؟

خاطب السائق مستوضحاً.

ـ نعم كلّنا ذاهبون إلى هناك.

ردّ السائق باهتمام وانتباه.

ـ تحرّك الله معك!

تباينت التضاريس بعد مدينة كركوك، تكاثرت الهضاب والمرتفعات الصخريّة فسادت الطبيعة الجبلية، وغلبت على الناس أزياء الجبال من شراويل وأغطية رأس وأحزمة قماشيّة، وظهرت في الأودية أجمات بلّوط وحور وصنوبر.

لقد بدأ الشمال الكرديّ يحتلّ المشهد.

عند تقاطع طرق سليمانيّة ـ دوكان أوقفتهم نقطة عسكريّة ثانية، ولم يتحقّقوا إلّا من هويّة زكي، ثمّ سمحوا للسيّارة بالمرور إلى المدينة.

إنّ فتوّته لتحملهم على الشكّ في أمره، فهو في ظنّهم إمّا هارب من الجيش أو متخلّف عن أداء الخدمة العسكريّة، أمّا باقي الركّاب فخليط من نساء وأطفال وعجائز فحسب، ولا شباب في أعقاب اعتقال عددٍ منهم على هذا الخط بتهمة التعاون مع الميليشيات الكرديّة المسلّحة المتمرّدة على الحكومة العراقيّة.

غادر زكي الحافلة في محطّة السليمانيّة وسعى إلى قلب المدينة بحثاً عن فندق.

وجد واحداً قديماً منزوياً في منطقة مكتظّة بالمطاعم وباعة الخضروات واللحم والخبز واللبن. ألفى نفسه حين دلف إليه في باحةٍ ضيّقةٍ تتسع بالكاد للطاولة التي يتكوّم وراءها رجل بدين

مخمور. ثمّة درجات تفضي إلى أعلى، وباب غرفة موارب.

استأجر زكي سريراً في إحدى الغرف العلويّة وصعد الدرج إليها بعدما دلّه السمين عليها، وكانت لغته العربيّة لا غبار عليها، وإن اعتورتها ميوعة السكر.

الغرفة نظيفة ومرتّبة وتضمّ ثلاثة أسرّة، ينفتح شبّاكها على السوق العاج الضاج بالسيّارات والناس والباعة. حطّ زكي حقيبته تحت السرير وتمدّد عليه.

دقائق وبلغ مسمعه صوت خطوات في الخارج. قام وألقى نظرة عبر فرجة الباب الموارب فرأى شابّاً بسحنةٍ سمراء، وخدّين عظميين ناتئين، وثياب رقيقة، يحمل شراشف.

خرج إليه وخاطبه بالعربيّة، فالعامّة تفهمها أو تفهم بعد تلكّؤ بعضاً من معانيها:

ـ الله يساعدك.

ـ ويساعدك، شكراً.

ـ تعمل في الفندق؟

ـ نعم.

ـ سأترك متاعي في الغرفة وأنزل.

ـ الإدارة غير مسؤولة عن الأموال والمصوغات والمجوهرات، أمّا ما تبقّى ففي أمان.

ردّ بعربيّة سليمة. ولـمّا سأله عن عنوان الجامعة دلّه بإسهاب على موقعها في منطقة شورش. أعطاه زكي درهمين ونزل إلى أسفل.

لقي البدين مستغرقاً في النوم على الكرسي، وعلى الأرض، في جواره، زجاجة عرق.

استقبلت الشمس زكيّاً ودهمه صخب السوق، فأسعده ذلك وأراحه. سار على غير هدى في الشارع الصاعد إلى أن انتهى إلى السرايا.

الجادّات بعامّة نظيفة، الأرصفة سليمة ومنظّمة، وحركة المرور سلسة، وهناك في العمق يشرف على المدينة جبلان أجردان[١٥].

الشوارع لا تستقيم فهي في صعودٍ وهبوط لأنّ المدينة مقامة على وادٍ وسفح. دخل مطعماً وطلب كباباً. ولـمّا كان قد أضاع الجهات في تسكّعه سأل الخادم عن أقرب السبل إلى منطقة (شورش) فدلّه. أكرمه زكي ببعض الفكّة وعرف منه أنّه تعلّم العربيّة إبّان خدمته العسكريّة في الجيش العراقيّ شأن أغلب الأكراد.

بعدما أنهى وجبته سلك الشارع الرئيس حتّى وصل إلى الجامع الكبير.

الهواء يميل إلى البرودة على رغم حضور الشمس التي لا تني تشيع دفئاً لطيفاً، هكذا الحال دائماً في أيلول.

يسود الهدوء الجامع، لا مصلّون، إذ لم يكن الوقت وقت صلاة، ولا دراويش يقيمون حلقة ذكر، ولا فقراء عند مدخله. بابه مقفل، ومنارته تهب انطباعاً بالجمال.

---

(١٥) هما (أزْمَر) و(كوَيْشَه).

مشى في الطريق المحفوف بالدكاكين ومحال إصلاح السيّارات إلى أن بلغ مدخل الجامعة.

تفحّص موظّف الاستعلامات بطاقة هويّته. ارتاب فيه، فللطلّاب زيّ جامعيّ موحّد: بنطلون رماديّ وسترة زرقاء، وسأله عن بغيته.

وهو ليس غير رجل أمن، نظرته قاسية وملامحه ضارية.

ـ جئت أزور الأستاذ غسّان موعد.

ـ وماذا تعمل؟

ـ أنا طالب في المرحلة الثانويّة.

ـ أين تقيم؟

ـ في فندق بالمدينة.

ـ أي فندق؟

ـ لم أفطن والله لاسمه.

نسخ المعلومات الواردة في البطاقة في سجل خاصّ بالزيارات، أعادها إليه وسمح له بالدخول.

طاف زكي في المباني القليلة المتفرّقة القائمة على أرضٍ غير مستوية كما هي حال المدينة، فجذبت انتباهه لافتة مبنى كليّة الهندسة. كان الطلّاب يتمشّون من حولها في الممرّات بين المروج ومساكب الورود، فيما توجّه بعضهم صوب مطعمٍ مقامٍ على نشزٍ من الأرض.

صعد زكي درج الكليّة ودخل. كان المكان هادئاً وأبواب الصفوف مغلقة.

خطا داخل رواق قصير، فاسترعت نظره لافتة كتب عليها (الهيئة التعليميّة).

طرق الباب ثمّ فتحه بمجرّد أن سمع صوتاً يدعوه إلى الدخول. سأل عن الأستاذ غسّان موعد، فقال له أحد الأساتذة إنه في المختبر بالمبنى المجاور. فحثّ زكي الخطى إلى هناك.

في المختبر نماذج لموتورات ومكائن وشبكات كهربائيّة تتدلّى منها أسلاك ملوّنة، وفي الطرف القصيّ طاولة يشغلها رجل نحيف مفلفل الشعر وشديد السمرة، يتمعّن في أوراق بين يديه، ما لبث أن رفع رأسه لمّا اقترب زكي منه.

ـ الأستاذ غسّان موعد؟

سأل زكي.

تفحّصه الرجل بعينين متسائلتين وقال:

ـ تفضّل!

ـ أنا زكي السعد أخو سالم السعد.

فشعّت ابتسامة كبيرة على وجهه.

ـ آه. أهلاً وسهلاً، شرّف اجلس.

سحب زكي كرسيّاً من الجوار وجلس.

ـ كيف حال سالم؟

ـ بخير.

ـ أما زال في الاتحاد السوفياتي؟

ـ نعم.

ـ سالم شاب شجاع، ذكي وموهوب.

ثمّ تأمّله وقال:

ـ سأجلب شاياً.

ـ لا شكراً.

ـ أيّة خدمة، أنا حاضر؟

طالعه زكي بعينين متردّدتين، ثمّ أطرق كأنّما ليستجمع شجاعته. رفع رأسه وقال:

ـ جئت أستاذ لتساعدني في الوصول إلى سورية.

غمرت وجه الأستاذ أمارات تفكير وحلّ الجدّ محلّ الابتسامة، وسأله:

ـ وكيف أساعدك؟

ـ عبر إحدى المنظّمات الفلسطينيّة.

ـ ومن قال لك إنّ ذلك ممكن؟

ـ سالم.

صفن الأستاذ. حرّك الأوراق بيديه كأنّ ارتباكاً أصابه:

ـ وما الذي يمنعك من السفر كباقي المواطنين؟

ـ الحكومة، بسبب موقف سالم المعارض لها، كما حرمتنا من إصدار وثائق سفر خاصّة بنا.

ـ ولماذا تريد ترك البلد؟

ـ توقّفت الدراسة في البصرة بسبب القصف الإيرانيّ. وأنا أسعى الآن إلى الالتحاق بأخي لمواصلة الدراسة بعونٍ من مكتب الحزب الشيوعيّ العراقيّ في دمشق.

ـ ألا يستطيع الشيوعيّون في البصرة تقديم يد العون لك؟

ـ لا، ذلك مستحيل وخطر.

ـ كم عمرك زكي؟

ـ ستة عشر عاماً.

ـ أنت إذاً دون السن القانونيّة اللازمة للخدمة العسكريّة، ثمّ إنّك طالب، وهاتان النقطتان لصالحك.

صمت برهة ثمّ واصل:

ـ ولصالحنا أيضاً، أين تقيم؟

ـ في فندق بالمدينة.

ـ هل تحدّثت مع أحدٍ بهذا الأمر؟

ـ أمّي وأبي.

تلكّأ ثمّ أكمل قلقاً:

ـ وخالي أيضاً.

ـ لا بأس. أنت تعرف أنّ هذا الموضوع قد يجلب عليّ وعليك وعلى أهلك متاعب كثيرة إذا عرفت الجهات الأمنيّة به.

ـ أنا أدرك خطورة الوضع.

ـ هل عندك أحد في بغداد؟

ـ خالي، وأقيم عنده حاليّاً.

ـ عُدْ إلى بيت خالك وسوف أبلغ أصدقائي في بغداد بوضعك، وسنرى كيف نجد وسيلة لمساعدتك، لا عليك.

ـ شكراً أستاذ، ولكن هل أعرف عنوان الجهة التي سأراجعها في بغداد؟

ـ بالتأكيد.

أخرج من أحد الأدراج نشرة إعلاميّة إخباريّة، وأشار إلى عنوان في أسفل صفحتها الأخيرة.

ـ هذا هو العنوان، وسلّم لي على أخيك إذا اتصلت به!

صافحه زكي بحرارة وغادر المختبر والفرح يعمر قلبه، ثمّ توجّه فوراً إلى مكتب البريد لإرسال برقيّة إلى أهله يبشّرهم فيها بنجاح مساعيه.

□□□

مساءً بارح زكي الفندق للبحث عمّا يسدّ رمقه. الليل المُستَبدّ بالمدينة يشبه مياهاً عكرة. أضواء المصابيح تنوّر العزلة. الطرقات فارغة، يسودها الصمت.

المدينة مقفرة تختلج بالترقّب والحذر. الأبواب مقفلة، والشبابيك مسدودة.

ثمّة توتّر يسري في الجو، ويلفّ الدروب والبيوت.

كان زكي ينقّل عينيه في مسالك السوق علّه يجد مطعماً أو حانوتاً مفتوحاً، لكن الأمكنة خالية، والحوانيت مغلقة.

أخذه العجب وتفاقمت في نفسه التساؤلات.

حثّ خطاه صاعداً باتجاه السراي ودور السينما والمقاهي والمطاعم، حتّى إذا وصل إلى المنطقة تلك ألفى حالها كحال السوق تحت.

لا أحد، لا نأمة، وكلّ شيء يغرق في السكون ويلتحف بالوحشة.

كان زكي يسمع وقع قدميه وحده، وقد استحوذت عليه مشاعر التنبّه والحذر. نظراته تتابع الدكاكين المرتّجة، وتتفحّص الحنايا والسبل، كأنّ مفاجأة ما ستطبق عليه.

دهمه هدير سيّارة منطلقة بجنون فأجفل. شعر لمرآها بالذعر، ودخل في روعه أنّ أمراً ما جللاً يقع في مكان ما من أرباض المدينة.

كانت شاحنة عسكريّة عارية، وقد استقرّت على جانبيها ثلّة من

الجنود الملثّمين، الشاكي السلاح، في حالةٍ من الجهوزيّة القصوى والاستعداد العالي.

ما لبثت الشاحنة أن غاصت في لجّة الليل. اختفى الهدير، ولاحت طرق المدينة مبهورة الأنفاس من مرورها السريع الخطر كحدّ السكّين.

صعّد زكي ناظريه نحو الدرب المتفرّع من دوّار السراي جهة الأحياء القديمة، وأخذ يسير إلى هناك، غير أنّ العتمة في الدرب الذي تعوزه الإنارة جعلته يُحْجِم عن المواصلة، فانكفأ راجعاً إلى السراي وفي نيّته العودة إلى الفندق بعدما تولّاه اليأس.

في تلك اللحظة، وعلى حين فجأة، صكّ أذنيه صخب إطلاق نار، وانهمر الرصاص ممزقاً الفضاء، وتهدّم السكون فوق المدينة.

جرى راجف القلب، وهمّ بالاختباء في مدخل حانوت لبيع الكتب مغلق، منخفض عن مستوى الشارع بدرجتين اثنتين، فإذا هو يرى شخصاً يقعي في المنحدر، تحت الباب.

تبادلا النظرات الحذرة الخائفة، ولكن المتضامنة، واندسّ حدّه، وكان شاباً نحيفاً يتسربل بشروال وصديريّة وقميص، ويشدّ وسطه بنطاقٍ من القماش أسود.

ظهر على ضوء أنوار الشارع مرتعد القسمات، بعينين صغيرتين خائفتين، وبأنفٍ طويلٍ يمتدّ أمام وجهه كمنقار دجاجة.

همس شيئاً بالكرديّة، فلم يحر زكي جواباً، فكرّر همسه بالعربيّة:

ـ عربيّ؟

فأجابه زكي بصوتٍ خافتٍ أنْ نعم.

دوّت الرمايات من جديد وبقوّة، تخلّلتها انفجارات قذائف، ثمّ توقّفت.

أرهف الشاب السمع ثمّ قال سائلاً زكيّاً بالنبرة الهامسة ذاتها:

ـ طالب؟

ـ لا. جئت أزور أخي في الجامعة.

قال زكي ضاغطاً صوته قدر استطاعته.

وكان الكرديّ يمدّ في الحديث دفعاً لخوفه، وكبحاً لاضطرابه، وذهنه مشغول بالجهة التي يتوقّع أن تُسْتَأْنف منها الرمايات.

ـ ما الأمر؟

تساءل زكي.

ـ معركة بين الأكراد والجيش، ألا تدري؟

ـ لا.

استوى الشاب في نصف وقفة، وأطلّ مختلساً النظر يميناً وشمالاً.

ـ اذهب الآن، أسرع قبل أن يشتبكوا من جديد!

حثّه الشاب بلهجةٍ تكتنف الإصرار، وجرى فارّاً ناحية الأحياء القديمة.

انفلت زكي بدوره راكضاً في الشارع النازل نحو فندقه، فلمّا ابتعد مسافة معقولة، أخذ يمشي بخطىً سريعة، لاهثة، في جوار

الحيطان، ولم يتوقّف إلّا عند سماع صوتٍ يأمره بالوقوف.

تلفّت جهة الصوت، فرأى ضابطاً مسلّحاً مقنّعاً يختبئ وراء مدخل السوق الرئيس ويلوّح له بمسدّس في يده أنْ اقترب. دنا منه وقلبه يخفق هلعاً:

ـ هويتك!

أعطاه زكي بطاقة هويّته.

ـ ماذا تفعل هنا؟

استفهم الضابط وعيناه تتنقّلان بقلق في ما حوله.

ـ جئت أزور أخي في الجامعة.

ـ في هذا الليل؟

ـ لا. خرجت بحثاً عن عشاء.

ـ أين تقيم؟

ـ في الفندق.

ـ أيّ واحد؟

ـ ذاك.

وأشار زكي بيده إلى بوّابة الفندق.

أعاد إليه البطاقة قائلاً:

ـ اذهب الآن، ولا تخرج ليلاً!

ـ أنا عائد غداً إلى بغداد.

ـ ذلك أفضل، الله معك.

قال وحوّل بصره عنه، ولم يعد ينظر إليه.

فاستأنف زكي سيره مسرعاً، ودلف إلى الفندق. كان المدخل معتماً وخالياً، يخيّم عليه الصمت مثلما غادره.

راودته فكرة، فطرق الباب الموارب في حوش الدرج طرقّة خفيفة. سمع من يقول بصوتٍ وانٍ: نعم.

دفع الباب برفق، ورمى بصره، فإذا بالعامل ذاته مستلقٍ على حشيةٍ، على الأرض.

ـ الله يعطيك العافية.

ـ الله يعافيك.

ردّ العامل وهو يحدج زكيّاً بنظرة متسائلة، ثم استجلى:

ـ تفضّل! أمر؟ خدمة؟

فدخل زكي قائلاً كأنّه يبرّر أمر دخوله:

ـ بحثت عن عشاء في المدينة، غير أنّ السوق مقفل، والمدينة خالية.

ـ لا أحد يفتح في الليل، لا تهتم، سأحضر لك عشاءً!

نقده زكي مائةً وخمسين فلساً، ثمّ ارتقى الدرج عائداً إلى غرفته.

لم يكن فيها أحدٌ سواه، لا نزلاء. ألقى نظرة من الشبّاك: الشارع مكفهرّ، موحش، والخوف يغشي المدينة.

خلع حذاءه واستلقى على السرير بملابسه، مشمئزّاً بعض الشيء من البقع الباهتة في الشرشف.

أنشا ينظر إلى السقف، وشعور مريح يتملّكه لإنجازه جزءاً مهمّاً من رحلته، على رغم رجّات الرعب التي هدّت روحه.

بعد مضي فترة وجيزة، تناهت إليه خطوات تدنو من الغرفة. جاء الخادم بصينيّة عليها خبز، وأغصان نعناع مورقة، وصحاف زيتون وجبن وعسل، وإناء من الصفيح مملوء لبناً.

سحب زكي نضداً واطئاً، فوضع الخادم الطعام عليه، وتريّث وعلى وجهه ابتسامة مجاملة:

ـ هذا كلّ ما استطعت الحصول عليه.

فردّ زكي بحبور:

ـ شكراً جزيلاً، إنّه كثيرٌ جدّاً.

ثم أضاف مستفسراً:

ـ الوضع ليس على ما يرام في الليل؟

ـ المسلّحون ينزلون من الجبال تحت جنح الظلام. يكمنون للجيش، ويشتبكون معه.

ـ كنت أظنّ أنّ الحرب تدور بعيداً في الجبال؟

ـ هو ما تقول، ولكنْ في الآونة الأخيرة صارت شوكة المسلّحين أقوى، وأخذوا يتسلّلون إلى المدينة، ويقتلون أكبر عددٍ ممكن من أفراد الجيش.

ـ كنت قرب السراي، وحصل اشتباك.

ـ لا أحد يتجوّل في الليل، في هذه الأيّام.

ـ تظهر المدينة صباحاً آمنة ومسالمة؟

ـ لأنّ المسلّحين ينسحبون حالما ينفّذون عمليّاتهم القتاليّة، ولا يبقون حتّى الصباح.

ـ شكراً مرةً أخرى.

ـ أهلاً وسهلاً، أنا في خدمتك، نادني فحسب! تصبح على خير.

ـ وأنت من أهل الخير.

ثمّ مضى وردّ الباب وراءه.

«إنسان لطيف» قال زكي لنفسه.

عقب انتهائه من وجبته، خرج زكي إلى دورة المياه، فلم يشاهد أحداً من النزلاء.

أبواب الغرف مغلقة، والهدوء يرين على الفندق.

أرهف السمع قليلاً. ترامت إليه نفثات أنفاسٍ بشريّة من وراء الأبواب، وذبذبات شخير تترجّع مطردة، خافتة.

سعل أحدهم سعلة قصيرة، وما لبث أن سكن، وعاد الهدوء إلى مجراه.

في دورة المياه: المغسلة مصفرّة، المصباح عارٍ بلا مظلّة، والمرآة أكلها الصدأ. مزيج من رائحة المرحاض والمطهّر (أسفنيك) يفوح في الهواء.

برم زكي الحنفيّة على آخرها، فحصل على خيطٍ رفيعٍ من الماء، وبصابونة محليّة الصنع، خضراء، لها رائحة الغار، غسل يديه ووجهه.

لم يجرؤ على استخدام المنشفة الكالحة، المعلّقة على مسمار في الحائط، إلى جانب المغسلة، فجفّف نفسه بملابسه، ثمّ آب إلى غرفته.

رمى بالشرشف جانباً، واستلقى على الفراش.

أغمض جفنيه، وفي ذهنه إصرار على ترك المدينة فجراً من دون إبطاء.

مدّ أصابعه إلى رجله وحكّها. انتقل الحكاك إلى أجزاء أخرى من جسمه. لبث فترة يهرش ويتململ حتّى أصابه الإنهاك واليأس. أثقل النعاس والتعب جفنيه، فاستسلم للنوم.

الفصل السابع عشر

أقبلت وشعرها الأشقر يشعّ

في المطعم الصينيّ، بمحاذاة الواجهة الزجاج، يجلس سالم متأمّلاً المارّة والسيّارات. يحبّ هذا المكان ويتردّد إليه أحياناً، لهدوئه، وقلّة روّاده، ورقّة صاحبته الصينيّة التي تبالغ في تزيين نفسها، لتواضع جمالها، حتّى لتبدو كالدمية.

لديها يومياً طبقان رئيسان تقدّمهما بسعرٍ مناسب: أرز بالدجاج المتبّل بصلصة الكاري، وأرز مع سلطة خضار متبّلة بصلصة الصويا.

والناس يجلسون ويأكلون ساهين، وإذا ما تحدّثوا بعضهم مع بعض همسوا همساً، بينما تقبع الصينيّة وراء طاولتها مثل طائر مستعدٍّ لتلبية نداء صغاره لدى أدنى إشارة، وحين تكون الحركة خفيفة، ولا تجد عندها شيئاً تفعله، تقضي وقتها في مطالعة القصص البوليسيّة.

قبالته ينحدر شارع (برازيلي غاتان)، المحاذي للمكتبة العامّة،

ليلتقي بشارعٍ آخر يعجّ بمطاعم الطلبة، القريبة من منطقة الجامعة.

في هذا الوقت من ساعة الظهيرة، تأتلق شمسٌ ذهبيّة، رقيقة، بلا حرارة، فتوشّح السماء بزرقةٍ خفيفة، وتسطع الغيوم القليلة المتفرّقة ببياض يلفت النظر،كأنّ الضوء ينبثق من داخلها.

في ظهيرة الأحد وفي كلّ أحد، تخفّ حركة المرور والسابلة، فالناس يلازمون بيوتهم من تعب السهر والشرب الذي يبدأ في السبت مساءً، ويستمرّ حتّى الهزيع الأخير من الليل.

أقبلت كريستينا تقطع الشارع بمشيتها المنتصبة الواثقة، وشعرها الأشقر يشعّ.

كانت ترتدي ثوباً بسيطاً، قطعة واحدة، لكنّه جميل وأنيق، يتلاءم وسنّها.

وقف حالما دخلت وقبّلها. اقتربت منهما الصينيّة بعدما استقرّا في مجلسيهما، وعلى فمها ابتسامة مشرقة، وعيناها تومضان كعيني طفل اكتشف للتوّ شيئاً مفرحاً. فهي تراه للمرّة الأولى بصحبة امرأة.

لبّت رغباتهما بأدبٍ جمٍّ كدأبها، وابتسامتها ترافقها.

راح سالم يطري جمال كريستينا وألوان ملابسها الورديّة الليلكيّة، وسألها عن ابنتها وعملها في المكتبة، وهي تبادله الحديث، ويحمرّ وجهها لخصوصيّة بعض الأسئلة.

كان سالم يسعى إلى جعل اللقاء طبيعيّاً لا غرض وراءه، حتّى تحين الفرصة الملائمة لطرق الموضوع الأساس الذي يتمنّى ألّا

يحدث لديها صدمة ما.

أخيراً سألها وإن لاح سؤاله ساذجاً وشائعاً إلى حدٍّ ما:

ـ ما رأيك في الزواج كريستينا؟

تطلّعت فيه بعينين ضاحكتين مندهشة، لعلها أدركت للفور سبب هذه الدعوة التي أخذت شكلاً من التكلّف والرسميّة.

ـ ألهذا السبب دعوتني اليوم؟

ـ ألم يجُل بخاطرك هذا الموضوع مثلاً؟

ـ يخطر على بال كلّ النساء.

ـ وأنتِ؟

ـ تجربتي السابقة في الزواج جعلتني أتجنّب التفكير فيه.

ساد بينهما الصمت، وأخذا يأكلان ببطء، كأنّهما يخشيان أن تصطدم أسنانهما بحبّة رمل.

رفعت كريستينا إليه عينين ودودتين، وافترّ ثغرها عن ابتسامة مجاملة، وسألت تلاطف مشاعره ليس إلّا:

ـ أنت تعرض الزواج عليّ، أليس كذلك؟

قال سالم من غير تردّد:

ـ نعم.

لم تعقّب بشيء، ما أربك سالماً، وهو في وضعٍ كهذا يندفع إلى الإلحاح لشدة خوفه من فقدان ما يريد:

ـ ما لكِ ساكتة؟

فقالت، ولاحظ سالم ارتعاشة خفيفة في زاوية فمها اليمنى:

ـ أنا أفضّل أن نبقى أصدقاء، سالم.

ـ لماذا؟

ـ إذا تزوّجنا اليوم، فسنقتتل غداً، ونخسر بعضنا بعضاً.

ـ ألأنّي مهاجر؟

ـ لا. لم يكن زوجي مهاجراً، غير أننا اقتتلنا، لأنّي لا أتقن فنّ الزواج، أو المعايشة الدائمة.

ـ كان زوجك مدمناً.

ـ لكلٍّ عيوبه.

ـ ولكنّي لم أختبره.

ـ ما الذي لم تختبره؟

ـ الزواج.

ـ ما زلت يافعاً، ومن المبكّر الآن التفكير فيه، لم يحن الوقت بعد.

اتّخذ وجهها سمتاً جادّاً، وتملّكها تفكير عميق في كيفيّة التساؤل عن موضوع طرأ على بالها من دون أن تسبّب له حرجاً أو تجرحه حتّى، فاستقصت بحذرٍ:

ـ أيتعلّق الأمر بالإقامة؟

فكّر سالم: «أنا في الحقيقة أشعر بانجذاب عاطفيّ نحوها، أأقول

أحبّها؟ نعم أحبّها. وإذا ارتبط حبّي لها بموضوع الإقامة، فهل أكون ملوماً على وضع لا يد لي فيه، حيال قوانين كالجبال لا تتزحزح، ترغمنا على ألّا نكون نحن أنفسنا؟».

فقال سالم بكلّ وضوح:

ـ أنا والحقّ كريستينا أحبّك، غير أنّ الحصول على الإقامة الدائمة يشغل حيّزاً واسعاً من تفكيري أيضاً، ما يعني أنّني أسعى إلى الاستقرار. ألا ترين أنّنا نعيش في عصرٍ تتحكم فيه قوانين لا تحفل بأحلامنا ورغباتنا وعواطفنا؟

شمّت شيئاً من العفن في حديقة العواطف التي تزهر أمامها، سوى أنّها لم تشأ أن تبدي امتعاضاً، فقالت مدارية خاطره:

ـ لا تزعل منّي سالم، ولكنّك ستحصل على الإقامة الدائمة كما قلت لكَ مراراً. فلماذا كلّ هذا القلق الذي يداخلك كلّ حين، وقبلذاك قصّة السرطان.

ـ وإذا تعرّضت للطرد؟

ـ ولماذا يطردونك؟ فهل لديهم سببٌ لذلك؟

فكّر سالم: «يظنّونني جاسوساً للاتحاد السوفياتي، أأخبرها؟ ليكن، ماذا سأخسر؟».

فقال بلا مبالاة:

ـ يظنونني جاسوساً للاتحاد السوفياتي.

فضجّت فجأة بضحكةٍ مجلجلة، وقالت:

ـ لا بدّ أنّك تمزح، ما بك؟ ما لك وللتجسّس أنت؟

ـ لا. أنا جاد.

واستمرّت في مرحها:

ـ وكيف تريدني أن أتزوّج جاسوساً؟

ثمّ استدركت:

ـ أنا أمزح فحسب.

فقال سالم، والكآبة تعلو قسماته:

ـ أعرف.

ـ لنؤجّل هذه الحكاية إلى وقتٍ تكون فيه الأمور قد نضجت.

ـ أيّ حكاية؟

استقصى سالم في بله، وقد ذهب فكره إلى عقدة الإقامة.

ـ الزواج

ـ آه، لا بأس، لستِ مجبرة على شيء كريستينا.

آلمها كلامه.

ـ هل أنت مستاء منّي؟

فارتجفت على فمه ابتسامة مغتصبة.

ـ لا، أبداً.

أوصى على بيرة، وأخذا يشربانها بتؤدة وقد فقدا رغبتهما في العودة إلى الحديث نفسه مرّةً أخرى.

الفصل الثامن عشر

الطفلة الألمانيّة

أدمنت كاتارينا غوستافسون الاستغراق في التفكير بما آل إليه وضعها من جمود ومن حدٍّ لا تستطيع أن تتجاوزه، وهي تتناول رقائق البطاطا بأناة، وتشرب البيبسي على مهل، لدى طاولة لصق الشبّاك في المطبخ.

وأصبحت مقتنعة في أحايين كثيرة بأنّ الوحدة ليست سيّئة تماماً عندما يألفها المرء، ثمّ أنّها لم تعد تشعر بتأنيب ضمير حينما يتعلّق الأمر بالحصول على شريكٍ لحياتها.

لقد بذلت ما في وسعها، وأعياها أنّ الرجال يتبخّرون حالما ينالون ما يريدون.

إنّ ما يعزّيها أنّ العديد من النساء المتزوّجات اللواتي تعرفهنّ يعشن في تعس، مع ذلك فإنّ ما يعتصر قلبها ألماً أنها لم تضع طفلاً ولو سفاحاً.

إنّ كهولتها المبكّرة، وثقل جسمها، وعنوستها، لتحبطها وتجعلها بطيئة وكسولة.

تحبّذ كاتارينا العيش في الظلال، تشعل شمعة أو شمعتين، وهو ميلٌ شعوريّ ناجمٌ عن العزلة.

إلى ذلك فهي تعشق الأثاث الثقيل المعتم اللون: خزانات من الخشب البنيّ القاتم، ستائر هائلة من المخمل الفستقيّ الغامق، ثريّات مشنشلة من النحاس المنطفئ، أرائك من الجلد الأسود، وسجاجيد سميكة قرمزيّة بزخارف سود.

إنّ حبّها للفخامة يتأتّى من إحساسها بتبوّئها مركزاً وظيفيّاً مرموقاً، وبأنّها تنتمي إلى الطبقة الراقية، على الرغم من نشوئها في ميتم خاصّ بالأطفال النرويجيين الذين لجأوا إلى السويد في الحرب العالميّة الثانية هرباً من الحرائق التي أشعلها النازيّون في بلدهم.

ويُقال إنّ أباها جنديّ ألمانيّ مجهول اغتصب أمّها بعد احتلال القرية التي كانت تقيم فيها. فعاشت الأمّ منبوذة قبل أن تهاجر إلى السويد، ثمّ عادت وهاجرت مرّة أخرى من السويد إلى أميركا، واختفت تماماً تاركةً ابنتها كاتارينا في الميتم السويديّ.

كانت كاتارينا تُدعى في الشارع (الطفلة الألمانيّة) احتقاراً وسخريةً، شأن كلّ الأطفال النرويجيين الذين نشأوا في وضع مماثل، فلقد نالوا نصيبهم فادحاً من الكراهيّة والتمييز والاضطهاد آنذاك، إذ كانوا يعاملون في أروقة الميتم بقسوة: طعام قليل، إذلال، ملابس حقيرة، عمل إجباريّ شاق.

لكنّ كاتارينا أصرّت على نيل شهادة عالية تؤهّلها لتحقيق

طموحها في احتلال مركزٍ وظيفيّ محترم، فكان لها ما أرادت في رئاسة دائرة الشؤون الاجتماعيّة بمنطقة (بيسكوب غوردن).

لقد كرّسها أصلها الأجنبيّ في خانة المهاجرين الأجانب المنبوذين، غير أنّها لم تنسجم مع أولئك المهاجرين الذين حُسِبَت عليهم عنوةً، إذ لا لغتها، ولا دينها، ولا ثقافتها تسمح لها أو تساعدها على إنشاء علاقات معهم، بل كانت تشعرُ بتفوّقٍ عليهم لبياض بشرتها، وزرقة عينيها، وقبل كلّ شيء لثقافتها الأوروبيّة، ما دعاها إلى احتقارهم، الاحتقار الذي تحوّل بمرور الزمن إلى كراهيّة، لذا عاشت وحيدة وطوق العزلة يزداد إحكاماً حولها يوماً تلو يوم.

وكانت حين يطرق سمعها صراخ الأطفال الأفارقة الذين يركضون ويلعبون في الشقّة فوقها، تفخّ بكراهيّة:

ـ لم يألف هؤلاء القرود السكن في بيوتٍ عصريّة، لابدّ من إعادتهم إلى الغابات التي جاءوا منها.

إنّ نظرة السويديين إليها لكنها (طفلة ألمانيّة) حملتها على التعامل مع الموظّفين بحزم وتعالٍ، ولا تتردّد في اتخاذ أقسى العقوبات بحقّ أي موظّف يتناول سيرتها بسوء.

وإذا كان الحظّ لم يحالفها بنسج علاقة عاطفيّة ثابتة مع أي رجل فلأنّها، بالإضافة إلى وضاعة أصلها وفصلها، تمتاز بالخشونة والشراسة والقبح، والنزوع إلى الشكّ والوسواس. ولطالما أفسدت هذه الخصال علاقاتها مع الناس.

وبما أنّها تعتبر نفسها منصتة جيّدة للشائعات، فالأقاويل والقصص

السائدة عن استعداد المهاجرين للمضاجعة مقابل قدرٍ بسيطٍ من المال لم تغادر بالها، وفي إمكانها استغلال هذه النقطة لصالحها إذا ما عرفت كيف تدبّر حالها معهم، دونما غفلة. لأنهّم كما تعتقد إمّا مصابون بأمراض تناسليّة أو ميّالون إلى النشل والسرقة والاعتداء.

ويا ما سمعت الموظّفات في دائرتها يتحدّثن عن ميل المهاجرين إلى الجريمة، وهو ما تؤكّده الصحف العاجّة يوميّاً بأخبار الجرائم التي يرتكبونها.

غير أنها عرفت أيضاً من هاتيك الخبيرات أنّهم هائلون في الفراش، ويُشبِعون المرأة تماماً.

قالت كاتارينا لنفسها: فليكونوا قذرين وملوّنين وأشراراً ولكنّهم ماهرون في الركوب، وما على المرء إلّا أن يسايرهم مع بعض الحذر، وكلّ شيء عندئذٍ سيسير على ما يرام.

رفعت سمّاعة الهاتف. دقّت رقماً. طلبت بيتزا وأعطت عنوانها للمتحدّث.

خطر لها اللجوء إلى الأسلوب التقليديّ المعروف في الغواية، وإن كان يشي بانطباع أكثر فداحة.. بالعهر مثلاً.

اختارت غلالة شفّافة تشفّ عن ملابسها الداخليّة السود، إلّا أنّ لذلك الخيار جانباً سلبيّاً، فهو يفضح سمنتها وتهدّل جسمها.

لم تأبه، فالمهاجر كما قالت لنفسها لا يحفل إلّا بالثقوب.

تناولت قنينة بيرة من الثلّاجة، ومكثت تكرع منها بين الفينة

والفينة، على الأريكة قبالة التلفزيون، منتظرة وصول البيتزا.

قُرِعَ الجرس. فتحت الباب، فإذا بشابٍ أسمر وسيم يرتدي بنطلوناً عاديّاً أسود، وقميصاً أبيض، ينتصب تجاهها حاملاً بيده اليمنى علبة بيتزا.

ابتسمت له:

ـ تفضّل ادخل!

تردّد، أوسعت له مشجّعة فدخل.

ـ خُذْ راحتك، اجلس!

ـ شكراً، عليّ أن أعود إلى عملي.

ـ في مَ العجلة؟ بيرة؟

ـ لا أستطيع.

ـ مسلم؟

ـ نعم.

ـ قدح شاي؟

لم يشأ أن يرفض لئلّا يجرح مشاعرها.

ـ لا بأس.

ـ من أين أنت؟

ـ تركيا.

ـ إستانبول حلوة، زرتها مرّة.

تحسّست يده فتولّاه الارتباك، أمسكت بها ورافقها إلى المطبخ.

ـ تعال نعدّ الشاي معاً!

لم يشأ أن يفلت يده من يدها كيلا يبدو فظّاً، لكنّه ما انفكّ متشنّجاً.

ـ ما اسمك؟

ـ كمال.

ـ كمال أتاتورك؟

ـ لا، كمال فقط.

ـ أنا أمزح.

ثمّ أخذت تلتزّ به وتلتصق. فساوره بعض الحرج.

ـ لا تخف كمال فأنا لا أعض! قل لي كم تكسب يوميّاً؟!

ـ ما بين المئتين والثلاثمائة كرون.

ـ أعطيك خمسمائة كرون إذا بقيت الليلة معي، فأنا أشعر بالوحدة حقّاً.

ـ سيغضب رئيسي إذا لم أعد، وقد يطردني.

ـ أنا أتحدّث معه.

ـ لا داعي يا سيّدتي، أريد أن أعود إلى عملي.

ـ ما الذي يدعوك إلى القلق كمال؟

ـ لست قلقاً.

ـ هل تجدني مقرفة؟

ـ لا أبداً، لا أريد أن أخسر عملي، ولكنّي سوف أزورك في وقتٍ آخر.

ـ قلت لك أنا أقنع رئيسك.

ـ قد يقبل مجاملة لك، ولكنّه سوف يستغني عن خدماتي في ما بعد، فهو رجلٌ متديّن.

فقالت بجسارة:

ـ خذني الآن تَنَلْ مالاً كثيراً!

فلّما وجدته في حيرة من أمره، طوّقته بيديها، شدّته إليها بقوّة، وباست شفتيه وعنقه بلهفة، ثمّ غمزت ما بدأ ينتأ منه.

تجاوب معها ومدّ يده إلى أنوثتها.

أخذته إلى غرفة النوم. استلقيا على السرير وهما يتباوسان.

خلعا ما عليهما.

دسّ وجهه بين فخذيها، وداعبها بلسانه وأصابعه، وهي تموء وقد التهب جسدها بالشهوة.

جذبته إليها تضمّه وتقبّل شفتيه، ثمّ أمسكت عريه، مسّدته وغيّبته في فمها، فامتلأت به ملتذّة، فيما عاشقها يدعكها ويلعق لحمها، قبل أن يعتليها ويباشرها، وهي تحت ضرباته المتواترة ترتج فيختضّ نهداها، حتّى كبسها بكلّ ثقله وأنزل فيها، فرواها وأشبعها.

□□□

أفاقت من غفوتها، لا أحد غيرها في الصالة، لا بيتزا ولا تركيّ، لقد نامت على حين غرّة وهي مضطجعة، فسحبتها مياه أحلامها إلى عمق رغبتها.

التلفزيون مفتوح، يدها بين فخذيها، وسروالها مبلّل.

همست لنفسها: يا له من تركيّ!

□□□

صباح اليوم التالي وجدت بين بريدها رسالة من مديريّة الهجرة تقول:

إلى السيّدة كاتارينا غوستافسون

تحيّة طيّبة

نظراً إلى قرارنا بترحيل المدعو سالم مالك السعد إلى الاتحاد السوفياتي، يُرجى التعاون معنا في تنفيذ هذا القرار، وشطب اسمه من لوائح اللاجئين المشمولين بمساعدة دائرتكم، وشكراً.

مدير دائرة الهجرة
أولف نيلسون

فقالت وهي تحتسي قهوتها:

ـ قرد بالناقص.

الفصل التاسع عشر

شوارع مشمسة ورفاق

بعد عودته من السليمانيّة أخذ زكي سيّارة أجرة إلى العنوان الموجود في النشرة الإعلاميّة.

ترجّل من السيّارة أمام مبنى من طابقين، ذي سياج واطئ، وهو ليس غير فيلّا قديمة تعود إلى العهد الملكيّ.

بوّابة السياج القصيرة مشرعة على دهليزٍ ينتهي بغرفةٍ مفتوحةٍ، ومنخفضة عن مستوى الأرض. لمّا دخلها أضحى قبالة شاب أجعد الشعر يرتدي سترة جلديّة، ويقعد وراء طاولة عليها هاتف وعلبة دخان وركوة قهوة. وعلى الجدران ملصقات لعمليّات فدائيّة، صورٌ لشهداء، شعار الجبهة الفلسطينيّة، وعلم فلسطين.

بادر زكي إلى التحيّة فردّ الشاب بحرارة.

– هذه الاستعلامات؟

سأله زكي.

ـ نعم.

ـ أودّ أن ألتقي مسؤول المكتب.

ـ الرفيق أمين في اجتماع، كيف نخدمك؟.

ـ والله أنا هنا بصدد موضوع لا يعرف تفاصيله إلا الرفيق أمين.

ـ شرّف اجلس!

اتخذ زكي مجلسه في أريكةٍ جلديّةٍ تشغل الجهة اليسرى من الباب.

بعد ذلك أقبل رجل كثّ الشاربين في نحو الثلاثين من عمره، غزير الشعر، يلبس كنزة مقلّمة وبنطلون جينز. تلوح على وجهه أمارات مرح أو قُلْ سخرية وذكاء، ما لبث أن خاطب شاب الاستعلامات:

ـ رفيق إبراهيم، اتصل بالمطبعة واسألهم أين وصلوا في طباعة النشرة!

ـ نعم رفيق.

ألقى الرجل نظرة فضوليّة على زكي وسلّم ثمّ تساءل:

ـ الأخ؟

ـ عراقيّ.

ـ تشرّفنا، أنا الرفيق سعيد، هل في استطاعتي مساعدتك؟

ـ أريد مقابلة مسؤول المكتب.

ـ الرفيق إبراهيم يرتّب لك لقاء معه.

ثمّ أكمل وهو يشير إلى الجهة التي جاء منها:

ـ تجدني في الغرفة تلك إذا احتجت إلى شيء آخر.

وما عتم أن آب إليها.

كان شاب الاستعلامات يجري مكالمات ويجيب على أخرى وزكي يتململ قلقاً. تردّدت جلبة من الطابق الثاني.

ـ انتهى الاجتماع.

قال الشاب مع ابتسامة مطمئنة ثمّ سأل:

ـ الاسم الكريم؟

ـ زكي مالك السعد.

ـ سأصعد إلى الرفيق أمين وأكلّمه بشأنك.

لم يطل غيابه حتّى رجع إليه وأعلمه بالموافقة على استقباله.

مضى زكي عبر باب عريض إلى بهو المبنى فشاهد ما يذكّره بطفولته، فهذا الطراز من البيوت استخدم آنذاك كعيادات طبيّة لطالما زارها برفقة أبيه.

تنفتح على البهو حجرات عديدة، لأبوابها الخشبيّة أكرات من خزف. البلاط يماثل رقعة الشطرنج، ودرفات الشبابيك عالية.

صعد الدرج إلى الطابق الثاني. لفتت انتباهه حجرة مفتوحة فقصدها.

استقبله رجلٌ قصير، ممتلئ الجسد، ذو شاربين خفيفين على وجهٍ

مبتسم علّته آي الترحيب والاستعداد للتفاهم والاستماع، ودعاه إلى الجلوس.

اقتعد زكي كرسياً حدّ الطاولة التي تتناثر على سطحها الزجاجيّ أوراق وأقلام وهاتف وعلبة دخان، ثمّ ما فتئ أن جلس وراءها الرفيق أمين.

على الجدران صور شهداء، وشعار الجبهة، وملصقات لعمليّات فدائيّة.

ـ أنا على علم بموضوعك زكي، لقد أخبرنا به رفيقنا الأستاذ غسّان، ولكن يعوزنا الوقت لإنجازه، وأودّ ان تكون كتوماً بشأنه.

ـ بالتأكيد.

قال زكي وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة مشرقة.

ـ ثمّ نريد منك صورة فوتوغرافيّة لإصدار بطاقة الجبهة، لا بدّ منها كجواز مرور عند عبور الحدود.

ـ عندي واحدة.

وكان زكي يحملها احتياطاً، تحسّباً للطوارئ في ظروف سفرٍ كهذي.

ـ أين تقيم زكي؟

سأله الرفيق أمين وهو يتسلم الصورة.

ـ عند خالي في منطقة البيّاع.

ـ وكيف نتّصل بك؟

ـ لا هاتف عند خالي، سأمرّ بالمكتب من حينٍ لآخر.

ـ عظيم، هكذا تصبح الأمور أسهل.

شكره زكي وقفل راجعاً إلى مكتب الاستعلامات.

كان إبراهيم يحتسي القهوة والركوة أمامه.

قدّم فنجاناً له وهو يرحّب به مرّة ثانية.

□□□

يقضي زكي النهار متسكّعاً في شوارع بغداد، فهو لا يحبّ المكوث بين الجدران ولا البقاء في مكانٍ واحد، تحدوه على التجوال رغبة دائمة، لذا كان يغادر بيت خاله كلّ صباح متفتّحاً للشمس والهواء والأماكن والناس.

ولطالما أبدى لخاله إعجابه بالعاصمة وأجوائها، بالذات شوارعها التي لا تنتهي إذا تمشّى فيها: شوارع تنبثق من أخرى فتتفرّع عنها مثيلاتها في دورةٍ أبديّةٍ، تبدو إزاءها شوارع البصرة قصيرة، ضيّقة، متربة، وشبه ساكنة، فهي ليست غير دروب ومسالك.

في بغداد تتنوّع المشاهد وتتغيّر من آنٍ لآن.

بيوت وأزقّة وساحات وجسور وأسواق وخانات عبّاسيّة ومغوليّة وسلجوقيّة وعثمانيّة ومعاصرة، فيها وبينها يحتشد الناس، يزدحمون ويضجّون، حتّى لتحسّ بأنّك حرّ، غير مرئيّ، ومتخفّف من الضغوط والمراقبة والمساءلة.

شعر زكي بأنّه أصبح مجهولاً، لا يعرفه أحد ولا ينتبه له مخلوق،

فهو كأيّ واحدٍ يمشي مع الجمهرات الماشية في حركةٍ تتكرّر كأمواج البحر.

يبقى الجو لطيفاً والشوارع مشمسة في هذه الأيام من أوائل شهر تشرين الأوّل. وهو طقس يناسب التسكّع والتمشّي.

أمّا المنطقة التي أحبّها فهي تلك الواقعة بين ساحتي (الميدان) و(الرصافيّ)، يلمّها شارع الرشيد، يشكّلها ويشدّ أحياءها حيّاً حيّاً في تكاوين معماريّة عثمانيّة، كانت في عهد سلاطين بني عثمان مركزاً للإدارة والقضاء والتعليم والثقافة والصحافة والملذّات.

من هذه الأحياء القديمة اندلعت أعنف المظاهرات ضدّ النظام الملكيّ، وفي مكاتبها ولدت الجرائد والمجلّات والدوريّات، وعلى تخوت مقاهيها قضى الشاعر معروف الرصّافي أغلب وقته.

وثمّة على مقربةٍ من ساحة (الميدان) تقع مقهى (البرلمان)، مقصد لاعبي الشطرنج ومدخّني النارجيلة والكتّاب والشعراء مثل موسى كريدي، ومحمّد شمسي، وغالب المطّلبي، وجنان جاسم حلاوي، ورعد عبد القادر.

وعندما يتوغّل زكي عميقاً صوب السرايا تأخذه رهبة الحلول في زمنٍ ناءٍ، منسيّ وغابر، حيث الجدران الشاهقة، والأبنية العثمانيّة الصامتة، والأبواب العريضة المرتّجة، والنوافذ المسدودة، كأنّما الزمن توقّف هنا، أغلق على نفسه المنافذ والطاقات، ولبث يعيش في ماضيه وعزلته بعيداً من الضجّة والحركة، ومن التغيّر الضارب أطنابه في نواحي المدينة.

وإذا شاء زكي الخروج من المنطقة بأسرها سلك الدرب المعتم

في سوق (السراي)، بدكاكينه المتهالكة، وباعته نصف الممحوّين والغارقين في الظلال، حتّى إذا انتهى من السوق واجهته شمس مُبْهِرة، وطرق مكتظّة بالسيّارات والحافلات والمارّة والعربات الخشبيّة.

□□□

ولـمّا تمض فترة قصيرة على عودته إلى بغداد حتّى تسلّم برقيّة من أهله تؤكّد ارتياحهم للتطوّر الحاصل في موضوع الرحلة.

□□□

غدا زكي شيئاً فشيئاً وجهاً مألوفاً في مكتب الجبهة الفلسطينيّة، إذ كان بعد كلّ جولةٍ نهاريّةٍ يقضي ما بعد الظهر هناك ولا يعود. ينام في المكتب، وخاله على علمٍ مسبقٍ بذلك الاحتمال.

أخذ زكي يخاطب رفاقه بكلمة رفيق بدلاً من أخ، وهي عادة اكتسبها حديثاً، كما اعتاد استخدام مفردات اللهجة الفلسطينيّة في التفاهم اليوميّ.

وكان كلّ يوم يقطع ذلك الرواق المعتم الواصل بين الاستعلامات والغرفة الداخليّة. وهي غرفة رحبة، تشغل جزءاً منها ماكنة ضخمة تتلقى باستمرار أخباراً من كلّ وكالات الأنباء في العالم وتطبعها على الورق مصدرةً صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة.

وهنالك بالطبع طاولة الرفيق سعيد، وقربها طاولة تخصّ الرفيقة منى: وهي فتاة قويّة الجسد، في نحو التاسعة عشرة من عمرها، بيضاء، وبعينين يعتورهما جحوظ خفيف، غالباً ما تلبس بنطلون جينز وقميصاً أبيض فضفاضاً وحذاءً رياضيّاً.

أوّل مرّة لـمّا دخل الغرفة على سبيل الفضول سأله سعيد:

ـ ما اسمك رفيق؟

ـ زكي.

ـ هلّا ساعدتنا رفيق زكي في قصّ الأخبار المدلاة من لفافة الورق المتكوّمة على الأرض من أجل فرزها.

ثمّ عاد وعكف على الورقة يكتب ويصحّح. قصّ زكي شريط الأخبار الورقيّ ومنى تنظر إليه، ثمّ سرعان ما تركت مكانها وخاطبته:

ـ تعال رفيق مع القصاصات، خذ مكاني! سأذهب لأعدّ ركوة قهوة.

ـ وكيف أفعل؟

استفهم زكي محتاراً والقصاصات بين يديه، فقال سعيد:

ـ افرز الأخبار الفلسطينيّة وضعها جانباً! تقدر؟

ـ نعم.

ـ طيّب، هذا كلّ شيء.

ثمّ تساءل وعيناه تجريان على أوراقه:

ـ ماذا تفعل في حياتك اليوميّة رفيق زكي؟

ـ أنا طالب في الصف الرابع الثانوي.

رفع سعيد رأسه، رنا إليه وسأله:

ـ ولماذا تركت المدرسة؟

ـ لم أتركها، إنّما المدارس أُغْلِقَت بسبب القصف.

ـ أمرٌ مؤسف، إليك عملاً لطيفاً تمارسه كهواية، وقد يفيدك في المستقبل كمهنةٍ اسمها الصحافة.

ـ ذلك ما يسعدني.

بذل زكي جهداً في عمله. بدا مقبولاً وفق ملاحظات سعيد وإرشاداته: مثل التركيز على جوهر الخبر، صياغة العنوان، وتغيير بعض المصطلحات المغرضة كتلك التي يطلقها الإعلام الغربيّ على النضال الوطنيّ الفلسطينيّ.

جاءت منى تحمل ركوةً وفناجين، وجعلوا يحتسون القهوة ويعملون، وفي ما حولهم على الجدران تطلّ عليهم صور شهداء فلسطين كوجوه القدّيسين.

ـ ماذا تفعلون بهذه الأخبار؟

استفسر زكي بعد فترة، فردّت منى:

ـ نصوغها في نشرةٍ إخباريّة يوميّة، تُوزّع على المكاتب الفلسطينيّة وعلى الفلسطينيين المقيمين في المخيّم، فنحن جزء من الوكالة الفلسطينيّة للأنباء.

ـ أيّ مخيّم؟

ـ مخيّم البلديّات، أنا وأهلي نقيم فيه.

ـ هنا في بغداد؟

ـ نعم.

□□□

قبل يوم من رحيله ودّع زكي خاله وامرأته وترك عنده أوراقه الثبوتيّة العراقيّة، وتحدّث طويلاً في الهاتف مع أبويه، وبقي في المكتب ينتظر.

وحينما حلّت لحظة السفر نصحه أبو النصر: وهو رجل ضخم الجثّة، حادّ القسمات، بالتزام الصمت لدى توقّفهم في النقطة الحدوديّة العراقيّة السوريّة، وإذا وجّه إليه حرّاس الحدود أيّة أسئلة حول هويّته فعليه أن يجيب بوضوح، بحسب المعلومات الواردة في بطاقة عضويّة الجبهة الفلسطينيّة. وسلّمه تلك البطاقة.

ها هي صورته إلى جانب شعار الجبهة: نجمة حمراء وبندقيّة وخريطة فلسطين مع اسمه الجديد وليد يوسف، أمّا المهنة فمقاتل.

ودّع الجميع وصعد إلى الشاحنة الصغيرة متّخذاً مكانه في جوار سائقها أبي النصر، الذي سبق أن وضع حقيبته في صندوقها الخلفيّ المغطّى على نحوٍ محكمٍ بغطاء خاكيّ.

□□□

عقب انقضاء بعض الوقت من إقلاع الشاحنة، اتّضحت خبرة سائقها في القيادة ودقّة معرفته بشوارع بغداد.

أعاقهما الازدحام إلى حين، غير أنّ المركبة انسابت بسهولة عندما استقرّت في الشارع الدوليّ خارج العاصمة، مخلّفة وراءها مظاهر العمران.

دارت ساعات عديدة والصحراء تسيطر على مشهد الشارع العريض، المسفلت، الممتد نحو الأفق بأعمدة الكهرباء، بشارات الطرق، وبالسيّارات المنطلقة بسرعةٍ فائقة.

خفتت الشمس وحلّ العصر، ولكنّ ضوء النهار لا يني ماكثاً، واضحاً.

الجو يميل إلى الاعتدال، الهواء لطيف، والسماء حريريّة الزرقة.

الصمت يلفّ مقصورة قيادة الشاحنة، وسربٌ من سيّارات متوقّفٌ يتراءى على البعد، فأدرك زكي أنهما قد بلغا أخيراً الحدود العراقيّة السوريّة.

الفصل العشرون

خبز

ساعة العصر، الظلال تكثف. البيت تغلّفه عتمة خفيفة وسكون. الخفافيش تتململ في مخابئها، في خشب السقف، تحدث جلبة كتلك التي تسبّبها الفئران.

أخذت زينب سلّة التسوّق من زاوية المطبخ. على وجهها أمارات تفكير، وفي عينيها نظرة حزينة، من جرّاء أفكارها على الأرجح.

بم تفكّر زينب؟ بولديها؟ بزوجها؟ بتوفير الخبز؟ بالحرب؟ طالت عباءتها من فوق الأريكة. غرفة مالك مُنارة. ضوء أصفر ينسلّ من خصاص الباب. دفعته برفق. مالك جالس يقرأ في أحد كتبه، على طاولة الزينة العتيقة، طاولتها. رفع عينيه إليها وقال:

– أجيء معك.

– لا.. خطفة رجل، أحضر الخبز وأرجع.

– عجّلي قبل حلول الظلام!

ـ حان الوقت، أنا ذاهبة.

ـ وإذا بدأ القصف؟

ـ أدبّر نفسي، خلّيك مطرحك!

ردّت الباب. الضوء الذي أنار الطرقة انحسر. عباءتها السوداء اندمجت والظلال. بدت جزءاً من ظلال البيت يتحرّك. ضوء العصر يلقي بنوره من خلال نافذة المَشْرَفَة المطلّة على الزقاق. نزلت الدرج الحلزونيّ الحجريّ الضيّق بتؤدة. ثقل جسمها يجذبها إلى أسفل. في حوش الدرج أطبق الظلام عليها.

الباب الخشبيّ الثقيل الكبير موصد. نقطة نور فحسب في ثقب القفل.

غمرها ضوء العصر حين فتحت الباب. حطام آجر وخشب يتناثر في الزقاق: الآثار الناجمة عن القصف. أصوات قصف بعيد تتناهى إليها. مرّ بضعة جنود، نظروا إليها ومضوا في طريقهم إلى جسر الخندق. الدرب المفضي إلى الجسر حجارة ووحل ونفايات. المتاجر مغلقة، بعضها مدمّر ومسروق. في الهواء رائحة عفن ودخان وعوادم وقود. تخطو متمهّلة كأنّها متعبة. تلفّها العباءة ما عدا وجهها، وبيدها سلّتها تقبض على علّاقتها بشدّة من غير وعي. عند مفرق درب الخندق ـ الداكير انعطفت إلى داخل سوق (الهنود)، في السبيل المختصر الذي درجت على سلوكه للوصول إلى ساحة (أمّ البروم)، حيث تقف شاحنات التموين العسكريّ (الميرة).

أزقّة السوق تخلو من المارّة، إلّا من الجنود، وهم يرمقونها فتخاف، وتسرع في خطوها.

واجهات بعض المتاجر مخرّقة بالشظايا، وعلى الحيطان ترى من حين لآخر لافتات سوداً مكتوبة بالأبيض تنعى قتلى الحرب، وملصقات ملوّنة عديدة لرئيس الجمهوريّة في هيئات مختلفة: بخوذة حربيّة، بالكوفيّة والعقال، مع أطفال، بنظّارات شمسيّة كبيرة، بملابس إفرنجيّة قاتمة، يحمل بندقيّة. بعض الصور هرّأته الشمس والريح والأمطار.

لا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل الجنود في السوق؟ قسم يقيم في الخانات المهجورة، وآخر يقوم بدوريّات حراسة لمنع السرقة، وهي تشاهد أحياناً أنفاراً منهم يقعدون تحت أفاريز الدكاكين، يأكلون أو ينظرون بلامبالاة إلى أيّ شيء أمامهم ويتثاءبون.

كانوا يعتمرون خوذاً، وبنادقهم إلى جانبهم. وجوههم شديدة السمرة، حليقة الذقن، بشوارب غليظة، أحذيتهم مدهونة، وملابسهم نظيفة وجديدة.

السوق غير مسقوف على خلاف الأسواق القديمة. لمحاله طابقان، الأعلى يشغله حرفيّون: خطّاطون، وصاغة، وخيّاطون، وحذّاؤن. والأرضيّ دكاكين بيع ومخازن ومقاهٍ.

وهي تعرف أنّ قسماً من التجّار يفتح أبواب حوانيته ومخازنه في أوقات معيّنة في النهار لبيع ما تيسّر للعامّة، ثمّ يعود فيغلقها.

ضوء النهار لا يزال يعمّ العالم، على رغم أنّ وقت العصر صار في آخره.

برزت من حيث لا تدري مجموعة من النسوة المتسربلات بالعباءات، وانحدرن في الطريق ذاته، إلى ساحة (أم البروم). هنّ

على ما يغلب الظن ذاهبات للغرض نفسه التي تذهب هي من أجله: الحصول على الخبز.

لا تعرف واحدة منهنّ، فهي لا تختلط بالنساء في الحي، ولا صديقات عندها، (غير اجتماعيّة) كما يقولون. سألها مالك عن عزلتها ذات مرّة، فلم تحر جوابًا. لديها دائماً ما يشغلها، فما شأنها وثرثرة النساء.

تحبّ زيارة أمّها وأخواتها لأمّها في منطقة الجمهوريّة. تفتح صدرها. تضحك وتثرثر بما طاب لها.

كان مالك يجدها أحياناً جالسة وحيدة، في نظرتها كآبة دفينة. أمردّ ذلك إلى أنّها عاشت في بيت عمّتها بعد انفصال أبويها، وذهاب كلّ منهم إلى حال سبيله، ليتزوّج ثانية وينجب، غير أنّه ودّ أن يخفّف عنها بتمتين أواصر الصداقة والتقارب بين بيته وبيت أمّها؟ ها هي ساحة (أمّ البروم) تنفتح أمامها.

كانت هذه الساحة في أوّل الأمر مقبرة، ثمّ استحالت مركزاً للمواصلات المحليّة.

كتب عنها الشاعر الأسطورة بدر شاكر السيّاب قصيدة بالاسم نفسه في ديوانه (المعبد الغريق)، عام ١٩٦١.

في زمن الحرب اكتظّت بالعساكر وشاحناتهم، وبناقلات مدنيّة صغيرة تقلّ الجنود إلى ثكنهم ومواقعهم العسكريّة، إضافة إلى عربات لباعةٍ مدنيين يبيعون اللحم المشوي والكباب والبيض المقلي والسمك وسندويشات الفلافل.

كلّ هذه الضجّة خفّت كثيراً وانتقل من بقي من الباعة إلى الأزقّة الخلفيّة، مع اشتداد القصف وبلوغ الحرب إحدى ذراها.

أجالت زينب بصرها في الساحة، ومشت باتجاه شاحنة، لمحت قربها ثلاث نساء يتحدّثن مع جندي. تريّثت ريثما ينسحبن بسلالهن.

الخبز العسكريّ صلب، غير مستساغ، لكنّ إقفال الكثير من الأفران أبوابه، دفع ما تبقّى من سكّان المدينة إلى الحصول على كفايتهم منه، من الجيش.

استفسر الجندي الصغير لـمّا أبصرها واقفة تنتظر:

ـ ها إختي؟ خبز؟

ـ إيْ.

أعطته السلّة. صعد إلى الشاحنة. عبّأها وهتف:

ـ أختنا!

دنت من جهة الشاحنة الخلفيّة.

ـ تفضّلي!

أخذت السلّة فوجدتها ثقيلة بعض الشيء فداخلها فرح، إذ من عادة جنود التموين أن يضعوا، في كلّ مرّة، بعضاً من الفواكه وعلب اللحم والفاصولياء والجبن مع الخبز.

ـ شكراً أخي، الله يطوّل عمرك.

ـ في أمان الله.

قال ذلك ونطّ من الشاحنة. بيريّته على نقرة رأسه، وعلى وجهه

علامات الإرهاق. إلّا أنّه لا يزال يتمتّع بنشاطٍ ملحوظٍ في حركته وردود أفعاله.

مشت زينب متحاشية برك الماء، والنفايات التي تنبشها كلاب سائبة بخطومها ومخالبها.

ما برحت في السماء بقيّة من ضوء، وزينب لا تحبّذ اجتياز السوق في الظلام، فهي تخاف، كما أنّ أيّ واحد آخر يخاف. فمسالك السوق خالية من الإضاءة. لذا أسرعت بخطوها، فالمسافة بين بيتها والساحة لا تأخذ منها أكثر من عشر دقائق مشياً، بينما لو سلكت الطريق العام المحاذي لنهر العشّار، لاحتاجت إلى نصف ساعة لقطعها في أقلّ تقدير، مع أثقالها وعباءتها التي تعيقها: عباءة من الحرير الأطلس الثقيل، تنسدل على جسدها، فتلمّها بيدها حين تمشي ساترة نفسها.

غير أنّها في حالات الضرورة القصوى، وضيق الوقت تلجأ إلى ارتداء الحجاب فحسب.

دوّى إطلاق نار كثيف في مكان ما قريب. اضطربت زينب وجرت طلباً للحماية. وتراكض الجنود مشرعين أسلحتهم الرشّاشة ومسدّساتهم. وجوههم متجهّمة، وثمّة من يوجّههم. هتفت سائلة أحدهم عن الوضع وعمّا إذا كان في استطاعتها أن تواصل السير، فأشار عليها بالتريّث، هناك اشتباك مع اللصوص، والسوق مطوّق، ثمّ مضى يعدو.

آثرت الانتظار لبعض الوقت في زقاق قصير، أمام واجهة محل (موبيليا) مغلق، قبالة حانوت لإعداد الشاي وبيعه، مغلق هو الآخر، وتفوح منه رائحة شاي.

ضوء السماء يخبو شيئاً فشيئاً، وساعة الغروب تلقي بظلالها على المدينة، فعراها ضيق وخوف من حلول الظلام.

قعدت على الأرض وسلّتها إلى جانبها، تنتظر هدوء الوضع. وزينب نادراً ما تفترش الأرض الخلاء، لا تعتبر ذلك لائقاً إذ تبدو كالشحّاذات وبائعات الخضر والسمك. انقطعت الرمايات وساد السكون.

خُيّل إليها أنّها سمعت أصواتاً خافتة صادرة من داخل محل (الموبيليا). وقفت وأرهفت السمع، وخوف من أن يكونوا لصوصاً مسلّحين يخامرها.

إلى يسارها، في مستوى كتفيها نافذة لها قضبان. هشّم القصف زجاج مصراعيها، فحُجِبَتا بستارة ارتجاليّة: محض قماشة سوداء مرخاة. ألصقت وجهها بالقضبان، شنّفت أذنيها، وأخذت تسترق السمع.

إنّه صوت امرأة ورجل يهمسان.

شدّها الهمس فواصلت التنصّت باهتمام.

ـ آخ. لا. على مهل!

قالت المرأة متوجّعة.

ـ مالك؟

ـ القعدة غير مريحة. آي.

ترامى إلى مسمع زينب صوت تسوية أثاث.

ـ استلقي على ظهرك! والآن؟

ـ خذني!

وتصاعدت تأوّهات أنثى ملتذّة.

ـ سعيدة؟

لهاث.

ـ جدّاً.

بصوتٍ متهدّج.

ـ حلو؟

ـ أعبده، املأني!

وشوشت باشتهاء وفحش.

ـ هو لكِ كلّه، على آخره.

ـ ما أروعه، أقوى!

لهجت متوتّرة محترقة بالشهوة.

ـ كيف الآن؟

ـ إيْ هكذا، ما أقساه!

وأنين الانتشاء يتصاعد.

ظهرت علامات الاستياء على وجه زينب وقالت لنفسها:

ـ العمى، صحيح ناس لا تستحي.

ثمّ جال في بالها سؤال، وكأنّما لجوابه أهميّة:

ـ ولكن كيف دخلا المكان؟

دوّى انفجار قنبلة في منطقة مبنى المحافظة، وتردّد صداه قويّاً. ثمّ طفق القصف يتواصل شاملاً نواحي السرّاجي، والمنّاوي، والذّاكير، ومقام علي، والخندق، حتّى وصل إلى السوق. فعصفت به الانفجارات، وأصمّت الضوضاء الآذان.

تلقّفت زينب سلّتها وفرّت نحو الجهة المؤديّة إلى شارع (بصرة ـ عشّار) المتاخم لنهر العشّار.

الدروب خالية إلّا من سيّارات الجيش المسرعة، وجنود يتّخذون أماكن دفاعيّة في المنعطفات. ومضت تغذّ السير بحذاء الحيطان، حتّى بلغت الشارع الرئيس.

سمعت أحد الجنود يهتف بها:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ ذاهبة إلى البيت.

ـ هيّا أسرعي، اخرجي من المنطقة!

والأمكنة هذه بين جسر مبنى المحافظة وجسر سوق (الهنود) مكشوفة إلى حدٍّ ما. فقرّرت قطعها ركضاً.

جرت فتعثّرت بعباءتها وكادت تقع، فحثّت الخطى وهي تلهث. أعصابها مشدودة، وقلبها يخفق بشدّة.

بلغها صوت مالك وهو يناديها، وكان راكضاً باتجاهها. أخذ

السلّة منها، وانطلقا يعدوان صوب جسر سوق (الهنود)، حتّى وصلا إلى شرفات المقاهي والدكاكين المتّصلة بجامع مقام علي. صارا على مقربة من حيّ المقام. جازا سوق الحبال، فألمّا بزقاق البيت.

فتح مالك الباب ودلفا إلى الخان الجوّاني، وصارا في الغرفة ـ الملجأ.

نزعت زينب عباءتها ورمتها على الفرشة المطويّة، وأشعلت شمعة موضوعة في حاملها على الطاولة. حطّ مالك السلّة على الأرض وطلب يشرب. أعطته زينب مطرة الماء الاحتياط على الطاولة، ثمّ شربت بعده وغدت تفرد الفراش وتسوّيه.

قعدا، التقطت زينب أنفاسها وزفرت:

ـ أف، اللعنة!

استقصى مالك وهو يمسّد رجليه المتعبتين:

ـ لماذا تأخّرتِ؟

ـ اشتبك الجيش مع لصوص في السوق، فتمهّلت خوفاً من الرصاص الطائش. قلت أنتظر حتّى ينجلي الحال، ثم بدأ القصف، فهربت حينئذٍ ناحية النهر.

ـ لم أجرؤ على دخول السوق بسبب العتمة. خمّنت أنك في مكانٍ ما، في طريق بصرة عشّار، أو أنّ مكروهاً قد حصل لكِ، لا سمح الله.

ندت عن زينب ضحكة خافتة، كأنّها تضحك من فكرةٍ خطرت

لها، أو حادث تذكّرته. رمقها مالك مستغرباً، وافترّ ثغره هو الآخر عن ابتسامة كبيرة، وبان طلق المحيّا.

ـ ما بالك؟

استفهم.

ـ في محل موبيليا (عرائس البحر) في الزقاق المقابل لدكاكين الذهب، عرفته؟

ـ عرفته.

ـ هناك اختبأت.

ـ لا بأس.

ـ سمعت اثنين: رجلاً وامرأة.

ـ ما بهما؟

ضحكت وكرّرت السؤال:

ـ ما بهما؟

ـ ما الغريب فيهما؟

ـ كانا يمارسان الحرام.

ـ في الخلاء؟

ـ لا. داخل المحل.

ـ وما علاقتنا بهما؟

ـ أليس عيباً؟

ـ طيّب، ليتمتّع الناس قبل أن يموتوا.

ـ ولكن كيف دخلا المكان؟

ـ وما أهميّة ذلك؟

ـ ليس مهمّاً مجرّد خاطر خطر لي.

ـ قد يكونان على صلةٍ بصاحب المحل، أو هو التاجر نفسه، أو يكونان كسرا إحدى النوافذ ودخلا.

ـ العمى، في عزّ القصف وإطلاق النار؟

ـ عندما تستبدّ اللذّة بالإنسان، لن يأبه لشيءٍ آخر.

سكت ثمّ واصل ساخراً:

ـ لعلّ اللذّة تصير أحلى في عزّ القصف.

ـ تمزح؟

ـ إيْ أمزح، السلّة ثقيلة؟

ـ تموين مع الخبز.

ـ جميل.

أخرجت زينب الخبز والعلب والفاكهة، وصفّتها على الفرشة، وجعلا يتأمّلان النعمة على نور الشمعة الخافت.

ـ سأعدّ لك لقمةً.

قالت زينب.

ـ لست جائعاً.

ـ انقطعت الماء؟

ـ لا أدري، لم أقرب الحنفيّة، عندنا ماء، الأواني معبّأة.

ـ أسأل فقط.

في أعقاب خفوت حدّة القصف، وقبل أن يبارحا الغرفة، طوت زينب الفراش، وغطّته بعناية.

ارتقيا الدرج إلى بيتهما في هدوء وأناة، على هدى ضوء الشمعة المتراقص.

في الخارج تدلّت في الفضاء قنابل ضوئيّة، راحت تهبط ببطء، وتسقط على المدينة فتنوّرها، كما لو أنّ آلاف المصابيح تشتعل مرّةً واحدة، إلاّ أنّ الضوء لا يلبث أن ينطفئ، فيعمّ الظلام.

الفصل الواحد والعشرون

من يصدّق حكايتي؟

انفجر الصمت فجأة. جرس الباب يرنّ بجنون وخبط يعلو. أحدهم يقرع الباب بشدّة. صخب سافر ينبثق من أعماق الظلام.

هبّ سالم من نومه فزعاً مشوّش الأحاسيس مضطرباً. أضاء الغرفة وتوجّه إلى الممر.

ألقى نظرة عبر الناظور فرأى شرطيين مدجّجين بالهراوات والأسلحة وقد رفعا أكمامهما مستنفرين متأهّبين للقتال.

أيقن أنّ ساعة إبعاده عن البلاد وإعادته إلى الاتحاد السوفياتي قد حانت. فتح الباب وقال:

ـ نعم؟

ـ لدينا أمرٌ بترحيلك.

خاطبه أحدهما بجفاء.

ـ سأغيّر ملابسي فقط.

دخل الشرطيّان وراءه على عجل، وبمجرّد أن ارتدى ثيابه هجما عليه، أمسكاه من ذراعيه وساقاه إلى سيّارة شرطة رابضة بسائقها قدّام البناية.

أصعده الشرطيّان إلى المقعد الخلفيّ وجلسا إلى جانبيه.

قطعت السيّارة الشوارع وسالم ساكن، يداه في حجره، يحاول لملمة أفكاره والسيطرة عليها لمواجهة المجهول المقبل عليه بخطى ثابتة وأكيدة.

لا أحد ينظر إليه، ولا أحد يتحدّث معه، وهو بينهما محض شيء غير مرغوب فيه يجب التخلّص منه بسرعة.

لم يبالِ كثيراً بسلوكهما معه، فلقد أَلِفَ الفظاظة السويديّة في التعامل مع المهاجرين، غير أنّه أحسّ بمغالاتهما في تطويقه واقتياده كما لو أنه مجرم يحاول الإفلات والهرب، على رغم أنّ شيئاً من ذلك لم يبدر منه، فهو على علمٍ مسبقٍ بقرار دائرة الهجرة القاضي بإبعاده إلى الاتحاد السوفياتي.

وصلوا إلى المطار. أنزله الشرطيّان من السيّارة ومضيا به سريعاً عبر الردهات والأروقة والسلالم المتحرّكة إلى الممر المفضي إلى الطائرة، والمسافرون يرمقونهم مستغربين.

استقبلهم الطيّار وحفنة من المضيفات بوجوه متجهّمة، وتقدّمتهم إحداهنّ إلى حيث سيجلسون.

أحدق به الشرطيان كما في السيّارة. كان سالم صامتاً طوال الوقت، إلّا أنه قال بغتة بنبرةٍ واثقةٍ لإزعاجهما:

ـ أنوي تقديم شكوى ضدّكما.

ـ افعل ما تشاء!

ردّ أحدهما بجفاف.

ـ أريد قهوة وفطوراً ومشروباً.

أشار الشرطي القريب من ممر المشاة إلى المضيفات اللواتي ما فتئن يختلسن النظر إليهم. أقبلت إحداهنّ مسرعة، فطلب إليها أن تجلب طعاماً وقهوة وبيرة.

ـ لِمَ الخشونة والفظاظة؟ هل حاولت الفرار؟

ـ لدينا أوامر بذلك.

نبر الشرطي الذي إلى يمينه وكأنه ماكنة تسجيل.

ـ من يتحمّل مسؤوليّة أمتعتي المتبقّية في الشقّة؟

ـ أمتعتك مشحونة معنا في هذه الطائرة.

ـ وجوازي؟

ـ تتسلّمه عند المغادرة.

انشغل سالم بالأكل وشرب القهوة وشعور بالإحباط يهدّه.

وكان أكثر ما يؤذي مشاعره هو مرافقة أحدهما له آن ذهابه إلى دورة المياه، إذ يضحي فرجةً حقيقيّةً للركّاب.

بعد انقضاء نحو ساعتين في صمت ممل وتوتّر ووجوم، والمسافرون يسترقون النظر إليهم بفضول وقلق، والمضيفات يلقين عليهم نظرات خاطفة متى مررن بهم، وطيّار شاب أتى غير مرّة

وهمس في أذن الشرطي الذي إلى يساره، هبطت الطائرة في أحد المطارات، واقتاده الشرطيان خارجاً إلى سلّم الطائرة.

أبصر سالم ثلّةً من الجنود السوفيات يحيطون بالمكان. سلّمه أحد الشرطيين جواز سفره ورجعا إلى الداخل.

بوغت عندما وطأت قدماه أرض المطار بالجنود يهاجمونه ويسوقونه إلى ردهة انتظار خالية، جدرانها زجاج، تقع في قلب المطار.

رمى بجسده على أريكة جلديّة سوداء والجنود المدجّجون بالأسلحة يحدقون بالحوائط الزجاج، فيما المسافرون والموظّفون والمستخدمون يحدجونه بنظرات ملؤها الدهشة والرهبة.

لاح مثل حيوان حبيس سيحطّم الزجاج اللحظة ويهجم عليهم.

جاء جندي بحقيبته، ألقاها على الأرض قدّامه وأخذ ينبشها مبعثراً محتوياتها. صادر الكاميرا وقميصاً أعجبه ثمّ غادر الردهة، تاركاً الحقيبة مفتوحة والأغراض في فوضى كاملة.

أتى بعد ذلك ضابط يتبعه حارس مسلّح بكلاشنكوف، سرعان ما تقدّمه وشدّ سالم من ذراعه وأوقفه حدّ حقيبته المنتهكة. قال الضابط بالإنكليزيّة:

ـ أنت غير مرغوب فيك في الاتحاد السوفياتي.

ـ هل أنا مُعْتَقَل؟

ـ لم نعتقلك، ولكن يحقّ للسويديين أن يعيدوك إلى البلد الذي جئت منه.

ـ أعيدوني إلى السويد إذاً!

ـ السويديون لا يريدونك.

ـ هذه مشكلتهم.

ساد صمتٌ متوتّرٌ، تساءل بعده سالم قائلاً:

ـ ترى هل في وسعي التحدّث مع مسؤول ما في السفارة السويديّة؟

ـ نعم.

طوّقه عددٌ من الجنود السوفيات بمجرّد أن غادر الردهة الزجاج وشيّعوه جميعاً إلى مقصورة الهاتف. قام أحدهم بالاتصال وناول سالماً السمّاعة:

ـ ألو، أنا سالم مالك السعد، لاجئ في السويد، طردتني حكومة بلدكم إلى الاتحاد السوفياتي. أنا الآن في المطار تحت حراسة الجنود السوفيات. وقد أفضى إليّ أحد الضبّاط بعدم رغبتهم في استقبالي في بلدهم.

ـ وأين أنت الآن؟

ـ لا أدري بالضبط، بإمكانكم سؤال أحد الجنود هنا.

ثمّ أعطى الجندي السمّاعة فشرع هذا يتحدّث بالروسيّة، ثمّ أعاد السمّاعة إلى سالم فقال من فوره:

ـ ما العمل؟ إذا أعادني السوفيات إلى العراق فسأتعرّض للتحقيق والتعذيب، وللمحاكمة، وقد أُعْدَم لأنني أنتسب إلى حزب معارض هو الحزب الشيوعيّ العراقيّ.

ـ لماذا يرفض السوفيات استقبالك ما دمت شيوعياً؟

ـ إنني الآن مطرود من الحزب الشيوعيّ العراقي، ومن دون تزكية حزبيّة من الشيوعيين العراقيين لا أستطيع دخول الاتحاد السوفياتي والإقامة فيه.

ـ مادمت كذلك فلماذا تريد الحكومة العراقيّة إعدامك؟

ـ من يصدّق حكايتي هذي برمّتها؟ فالدولة العراقيّة لا تزال تعتبرني شيوعياً، والشيوعيّون لا يعتبرونني كذلك، والسوفيات محكومون بقرار الحزب الشيوعيّ العراقيّ، وأنتم تشكّون فيّ وتحسبونني كاذباً وعميلاً، وحتّى إذا صدّقت الحكومة العراقيّة قصّتي، سترغمني تحت التعذيب على كشف أسماء كافّة الشيوعيين الذين أعرفهم، ما يعرّض عوائلهم لخطر الأذى والموت، وهذا ما لا أحبّذه، وإذا صمدت فسأعذّب حتّى الموت.

ـ سنفعل ما في وسعنا خلال الساعات القادمة.

وضع السمّاعة في مكانها وعاد مع الجنود إلى الردهة الزجاج.

كان الضابط قد اختفى والناس الفضوليون المحملقون فيه بدهشة وخوف قد ولّوا.

راح ينظر بكآبة إلى أغراضه المبعثرة: ملابسه، كتبه، أدوات حلاقته، فرشاة أسنانه، ولوازم الحمّام.

تمدّد على الأريكة وأغمض عينيه شاعراً بأنه ضائع، يدور في متاهة، وألّا شيء يربطه بهذا العالم.

لا أحد يريده، ماذا يفعل بكيانه؟ أين يذهب به؟ وكيف يحمي نفسه إذا غدت مواجهة الواقع أمراً لا بدّ منه؟

تمنّى أن يتلاشى، أن يغيب، وأن يمسي خارج الزمان والمكان دونما شرطة حدود، ولا وثائق سفر، ولا أوراق هويّة، ولا تحقيق، ولا خوف.

خطر بباله أن يخابر رفاقه السابقين في الحزب، محاولة يائسة، وهو يدرك ذلك، إلّا أنه سيقوم بها متمسّكاً ولو بخيطٍ واهٍ من الأمل.

عنده رقم هاتف منظّمة الحزب الشيوعيّ العراقيّ في موسكو.

سأل الجنود السماح له بالمكالمة، فأحضروه إلى المقصورة مقابل التنازل لهم عن بعض الثياب.

رفع السماعة ودقّ الرقم. تناهى إليه صوت أحدهم:

ـ ألو؟

ـ تحيّاتي رفيق.

ـ تحيّاتنا.

ـ أنا الرفيق سالم السعد، هنا في أحد مطارات الاتحاد السوفياتي، والسوفيات يرفضون استقبالي.

ـ من؟ من أنت؟

ـ سالم السعد.

ـ الرفيق المسؤول غير موجود.

ـ مع من أستطيع التحدّث؟

ـ لحظة.

غاب الصوت، ثمّ انبرى صوت آخر يقول:

ـ رفيق سالم، لا نقدر أن نفعل شيئاً لك، فأنت وحدك تتحمّل مسؤوليّة تصرّفك بمغادرتك أراضي الاتحاد السوفياتي من دون علمنا. لقد أوقعتنا في إحراج شديد مع رفاقنا السوفيات.

ـ رفيق..

انقطع الخطّ فجأة وحلّ مكانه رنين متّصل ما فتئ أن تقطّع.

رجع سالم أدراجه إلى الردهة الزجاج واضطجع على الأريكة وهو يسبّ المنظّمة وأهلها.

لبث زمناً يتطلّع إلى الجنود والمسافرين وقد بلغ به الإعياء مبلغاً كبيراً، كما أنّ الجوع قد هدّ حيله، إذ لا يُسمح له بالذهاب إلّا إلى دورة المياه.

نمت إلى أذنيه ذبذبات ضجّة واضطراب، ثمّ رأى امرأة رشيقة شقراء تتقدّم وسط حفنة من الجنود صوبه، وهي تجيل بصرها في ما حولها بذهول واستغراب. أدرك أنها إحدى موظّفات السفارة السويديّة.

خطت داخل الردهة وقد أشرقت ابتسامة مرتبكة على وجهها، مدّت يدها، صافحته وقالت:

ـ مادلين أولسون، موظّفة في مديريّة العلاقات الخارجيّة في السفارة السويديّة.

ـ شكراً مادلين على مجيئك.

ـ لم أرَ مشهداً مثل هذا من قبل. الجنود يحرسونك شاكّي السلاح، ماذا فعلت؟

ـ لم أفعل شيئاً. طردتني حكومة بلدك والسوفيات يرفضون استقبالي.

تركت الردهة. تحدّثت مع الجنود فابتعدوا مسافة.

أجرى أحدهم مكالمة في جهاز يحمله.

ما لبث أن جاء أحد الضبّاط منزعجاً وراح يناقش المرأة ثمّ توارى مع الجنود.

قفلت راجعة، جلست إلى جانبه وقالت:

ـ منظر يثير الأعصاب، من يستطيع التفكير والحراب مشرعة من حوله؟

ـ وماذا أقول أنا المهدّد بالتسفير إلى حبل المشنقة؟

رنت إليه وفي ذهنها تجول أصداء الفضيحة التي سوف يتعرّض لها بلدها في حال حصول ذلك، ثمّ لا بدّ من تعديل مسار التسفير ومخاطبة وزارة الخارجيّة بذلك.

فقالت بنبرة تأكيد:

ـ سوف أعيدك إلى السويد.

علت وجه سالم علامات الراحة والحبور، فيما أنشأت مادلين تتفرّس في الحقيبة المنتهكة والأغراض المبعثرة مستاءة.

الفصل الثاني والعشرون

دمشق

نزل زكي من الشاحنة الصغيرة في شارع يحاذي حي ركن الدين في دمشق، وكان الوقت مساءً. الجو بارد، غيوم متقطّعة تغمز بينها النجوم، وريح خفيفة تهبّ، إنها رياح الخريف.

قال له أبو النصر مشيراً إلى بيتٍ من طابقين، مظلم الواجهة، محشور بين مجموعة من البيوت المُنارة الأبواب والمشرعة على الشارع.

ـ هذا هو مكتب الحزب الشيوعيّ العراقيّ، عُدْ إلى مكتبنا إذا لم توفق في مسعاك!

ثمّ كتب على ورقة عنوان مكتب الجبهة الفلسطينيّة وناوله إيّاها.

جذبت البيوت والمباني المتشاهقة والممتدّة على مساحات واسعة ناظري زكي، ولاح الليل منوّراً بالمصابيح، يتلألأ في عتمات المدينة، فآنسه جمال ذلك.

تبدّى التناغم والانسجام في كتل المباني وتوزيعها مختلفاً عمّا عهده في بلده من تراكمٍ للبيوت والبنايات، هذا فضلاً عن انخفاضها وقدمها.

قرع جرس الباب الحديديّ. كانت الستائر مسدلة على الشبابيك المغلقة، ولا إضاءة على واجهة البيت إلّا مما يُلقى عليها من إنارات قريبة؛ كأنّ أهل الدار يعيشون بين الظلال والعتمة متحاشين الظهور قدر الإمكان.

السيّارات في الشارع قليلة، تمرق مسرعة، وبعض المارّة يحثّ خطاه إلى منزله.

انفتح الباب عن رجلٍ متجهّم الوجه، أشيب الشعر، خفيفه، تطلّع إلى زكي مستغرباً وقال بانزعاجٍ ظاهر:

ـ ماذا تريد؟

ـ أنا قادم توّاً من العراق، وأودّ أن أتحدّث مع مسؤول المكتب.

ـ لا مسؤول عندنا، امشِ من هنا!

ردّ بفظاظة وهمّ بإغلاق الباب فصاح زكي:

ـ مهلاً أخي!

تريّث الكهل على مضض وكرّر سؤاله بالنبرة ذاتها:

ـ قل لي ماذا تريد؟!

ـ أنا أخو سالم مالك السعد، وهو رفيقكم في الحزب ويعيش في موسكو، وأرغب في الاتصال به عن طريقكم.

فكّر الكهل مليّاً ثمّ قال وهو يرمقه بعينين مرتابتين:

ـ انتظر لحظة!

سدّ الباب فران على المكان صمت تام لايقطعه إلّا مرور السيّارات بين آنٍ وآن.

بعد حينٍ من الزمن قصير خاله زكي دهراً انفرج الباب عن شاب جادّ الملامح، هادئ، تنمّ تعابير وجهه عن استعداد للتفاهم أكثر من ذاك الكهل النحس، العكر المزاج.

ـ أسعدت مساءً رفيق.

قال الشاب مرحّباً ودعاه إلى الدخول.

اطمأنّ زكي حال سماعه كلمة (رفيق) وازدادت ثقته بنفسه، فلقد درج الشيوعيّون العراقيون على مناداة أهالي رفاقهم ومعارفهم بالكلمة ذاتها.

تقدّمه الشاب إلى بهوٍ فيه أرائك ومحاط بغرفٍ مسدودة.

الإضاءة ضئيلة، تهب انطباعاً بالكآبة والعزلة والحذر.

لا صور على الجدران، والستائر مسدلة كأنها على هذا الوضع منذ زمنٍ بعيد.

المكان مشوبٌ بروح التكتّم والسرّ والسكون، وهنالك طابق ثانٍ يرين عليه الصمت أيضاً.

اقتعد زكي إحدى الأرائك وقد عراه ضيق، لعلّ الجو المكتوم المكفهر كان سبباً في ذلك.

جلس الشاب تجاهه وقال:

ـ نحن لا نستطيع أن نساعدك في شيء لأننا لا نعرف عنوان أخيك، فلقد غادر الاتحاد السوفياتي ولم يُعْلِم منظّمة الحزب في موسكو بسفره.

ـ هل أنتم متأكّدون من ذلك؟

ـ نعم، لدينا معطيات تقطع بسفر أخيك من موسكو منذ أشهر.

ـ ألا تعلمون أين هو حاليّاً؟

فكّر الشاب مقلّباً المعلومات في ذهنه ثمّ قال:

ـ في إحدى الدول الإسكندنافيّة، في السويد على الأرجح. هذا كلّ ما لدينا في مكتب دمشق عن وضع أخيك، وقد تأتينا تفاصيل أخرى لاحقاً.

ـ أنا أنوي السفر إلى الاتحاد السوفياتي لمواصلة الدراسة بمساعدتكم، لأنّ المدارس أُغلِقَت في مدينة البصرة بسبب القصف.

ـ الأمر متعلّق باللجنة المركزيّة للحزب، فهي التي تتخذ القرارات الخاصّة بإيفاد الرفاق وعوائلهم إلى الدول الاشتراكيّة للدراسة.

ـ والآن؟

ـ أرى أن تتصل بأخيك في السويد عبر السفارة السويديّة، وإذا تعذّر الأمر فالعودة إلى العراق أفضل.

ـ وكيف أعود؟

ـ عبر الطريق نفسه الذي جئت منه.

ـ وماذا أفعل إذا رجعت؟ قلت لك إنّ المدارس مغلقة من جرّاء الحرب، وأنا أزوركم لهذا السبب.

ـ أنا آسف حقّاً، لكنّي أنصحك بتقديم طلب إلى اللجنة المركزيّة للحزب إذا كنت راغباً في الحصول على منحة دراسيّة في إحدى الدول الاشتراكيّة.

ـ ترى هل في ذلك فائدة؟

ارتسمت على محيّا الشاب علامات حيرة وقال:

ـ ربّما!

ـ لا بأس، سأكتب طلباً مناسباً.

ـ أتمنّى لك النجاح.

وتلك إيماءة منه إلى أنّ الحوار قد انتهى.

قام زكي وفي ذهنه أنّ الشاب سيدعوه إلى المبيت في المكتب الليلة في الأقل حتّى يدبّر أمر سكنه صباح غد، كونه قادماً من العراق توّاً ويعوزه الوقت لمعرفة سبل المدينة الجديدة عليه، في مثل هذه الساعة من الليل.

إلّا أنّه لم يسمع منه أيّ شيء، فلقد أطبق الصمت على وجهه مثل ستارة حديديّة.

صافحه مودّعاً وخطا إلى الخارج، ونفسه تحدّثه بأنّ مغامرته قد انتهت هنا، في هذا البيت المعتم، الواجم، والكئيب.

لبث واقفاً في الشارع ومشاعر يأس قاتمة تجتاحه وتهيمن عليه، حتّى إذا تبدّت له سيّارة أجرة أشار إليها، فأسرعت ناحيته وتوقّفت عنده.

فتح الباب وصعد، أعطى السائق عنوان مكتب الجبهة الفلسطينيّة، فانطلق للفور قاطعاً الشوارع المضاءة، المقفرة، في ذلك الليل الخريفيّ الموحي بالنأي والمجهول.

الفصل الثالث والعشرون

عاصفة القصف

فزّت زينب، لا بل نطّت نطّاً من نومها حين رجّ البيت انفجار مهول، هُيِّئ لها معه أنّ السقف سيسقط عليها، فتملّكها فزعٌ شديد وجرت فوراً إلى حجرة زوجها.

أضاءت النور فوجدته قاعداً في فراشه والغبار يغشي الغرفة بعدما انتشر وتصاعد في كلّ الأرجاء، لابدّ أنّ الانفجار قريب.

هتفت بزوجها:

ـ مالِكْ!

قال بصوتٍ متعبٍ:

ـ اللعنة! من يستطيع العيش على هذا النحو، أطفئي النور زينب!

أطفأته وحثّته بصوتٍ مضطرب:

ـ هيّا إلى أسفل!

لحظة سقوط القذيفة في الزقاق المؤدّي إلى البيت اهتزّت الجدران وتخلّعت الأبواب والشبابيك، فتطايرت الخفافيش في هبّةٍ واحدةٍ مذعورة، وأنشأت تدور بجنون تحت السقف فاقدة السيطرة على حواسها.

وفرّت الحيّات والعقارب والفئران والصراصير من أوكارها ومكامنها.

لبست زينب كنزةً فوق ثياب النوم، وملأت مطرةً ماءً، وتناولت بعضاً من الفاكهة من الثلّاجة، بينما اشتمل مالك بمعطفه وفارق غرفته.

ـ أين أنتِ؟

ـ قادمة، ماء وفاكهة.

ـ من يشتهي الأكل في هذه المعمعة؟

جاءت مسرعة حاملة مع أغراضها فانوساً مضاءً.

ـ هيّا! هيّا بنا!

نبرت مستعجلة:

دوّى انفجار قويّ تلاه قصفٌ متقطّعٌ طال الأسواق المترامية من منطقة (مقام علي) حتّى ساحة (أم البروم).

هرعا جزعين إلى أسفل حيث الغرفة ـ المتراس.

ـ مالهم جنّوا الليلة؟

سأل الأب مستاءً.

ـ لعلّ المعارك باتت على أبواب المدينة.

ردّت الأم ثمّ انتبهت لفرار حيوات العالم المظلم من جحور الخان وثقوبه.

ـ في الأقل تخلّصنا من الفئران والثعابين.

قالت ساخرة.

أحدّ الأب بصره في الأرض لئلّا يدوس على إحدى الحيّات، بينما كان متشبّثاً بذراع زوجته كالأعمى.

لم يكن مالك عجوزاً متهالكاً، ولا ضعيفاً غير قادر على المشي والسعي، بيد أنه يجد نفسه أكثر تماسكاً حين يتعلّق بذراع زينب القويّة، الشجاعة، والعنيدة.

ضوء الفانوس المحمول يلقي نوراً متحرّكاً متذبذباً على العتمة في الخان، فينير أجزاء من الأشياء المتراكمة من حدائد وأخشاب وبراميل وصناديق وحبال، فيما تتوقّف جلبة هروب حيوانات الظلام لحظة مرور النور عليها، كأنه يباغتها، فيستولي عليها ذعرٌ يجمّدها ويشلّ حركتها، حتّى إذا توارى الضوء واصلت عدوها، تقودها حواسها إلى ملاذات أكثر أمناً.

ألمّوا بالغرفة، كان التراب قد غطّاها. وقف مالك عاجزاً حائراً. وضعت الأم الفانوس والفاكهة ومطرة الماء على الطاولة، قبل أن تزيح الحصيرة المتسخة بالتراب ونثار الآجر وفتات الجصّ عن الأفرشة المطويّة التي تجلّت نظيفة إلى حدٍّ ما، لم يتلوّث منها شيء سوى حوافها.

جلس مالك على الفراش، بينما مضت زينب إلى خارج الغرفة، فهتف بها:

ـ إلى أين؟

ـ أكياس الرمل.

ـ وما حاجتنا إليها؟

لم تردّ عليه، وأخذت على ضوء الفانوس المتسرّب إلى أرض الخان تسحب الأكياس التي كان زكي قد عبّأها رملاً احتياطاً وتضعها وسط الغرفة أمام الفراش، فهبّ زوجها يساعدها حتّى صنعا ساتراً يمتدّ من الحائط إلى منتصف الغرفة، وبعلو ثلاث أقدام.

قالت زينب بصوتٍ متهدّجٍ من بين أنفاسها المتسارعة:

ـ هكذا أفضل. الوضع ينذر بالخطر.

أخذت مطرة الماء وكيس الفاكهة معها إلى الفَرْشَة.

قعد زوجها حدّها وصدره يخفق باللهاث، ثمّ بلّ ريقه من المطرة.

مسح فمه بيده وقال من بين أنفاسه المختلجة:

ـ ما بالك قلقة هكذا؟

ردّت الأم وقد ارتسم شرود وترقّب على محيّاها:

ـ لعلّ أمراً جديداً طرأ على الجبهات، ثمّ نحن في حاجة إلى هذا المتراس.

ـ وهل يحمينا إذا انهمرت القذائف علينا؟

ـ الله أعلم.

ـ أرى أن نترك هذا البيت.

ـ سنرى حتّى الصباح.

صعق الفضاء انفجار قنبلة فوق منزل الجيران، ودوّت ضجّة شديدة انكمش إثرها الزوجان مروّعين. عجّ غبار كثيف وتكسّر الطابوق والخشب والحديد، تصدّعت الجدران والأساسات، وسُمِعَت صيحات وهتافات، ثمّ توالى القصف أشدّ وأشد شاملاً المدينة برمّتها.

أصمّت الانفجارات الكائنات الحيّة، واندلعت حرائق لبّدت السماء بالدخان.

ارتعشت الأرض كأنّ زلزالاً ضربها، ومُحِقَت في صخبٍ مخيف منازل وبنايات ومتاجر ومخازن، فتناثرت شظايا القنابل مع هشيم الحجارة والخشب والحديد والملاط في كلّ مكان، وسدّت الأنقاض المسالك والأزقّة والدروب.

دُمِّرَت بساتين النخيل، وخُرِّبَت الأرصفة، وانبثق الماء من الأنابيب المتفجّرة والمجاري الجوفيّة، فطاشت في الهواء روائح عفن وبارود وحريق.

أمّا هنا داخل الغرفة فقد اضطرم الاضطراب على أشدّه، إذما دهمت الخان زوبعةٌ من غبار اندفعت إليه من الخارج، إثر انفجار دمّر واجهة البيت السفلى، فانهارت مع الرواق أنقاضاً، وانفتحت

ثغرة كبيرة حلّت محل الباب الرئيس الذي تطاير هشيماً حال سقوط قذيفة مباشرة عليه.

انفلت الأب والأمّ إلى الطابق العلويّ متراكضين إلّا أنّ الوضع لم يكن بأفضل، فثورة الغبار شكّلت غمامة هائلة اكتنفته تماماً، ولم يبق غير المضي قدماً إلى السطح تخلّصاً من الاختناق والتماساً للهواء النقي، فصعدا الدرج مسرعين معرّضين نفسيهما لمخاطر الشظايا المتطايرة في الفضاء المكشوف، ثمّ لبدا لصق السياج الحجريّ العلويّ مذعورين لاهثين وقد استبدّ بهما السعال.

البيت يختلج، يختضّ ويتداعى في عاصفة القصف، والمنطقة تنيرها نيران الحرائق، والقنابل لا تني تدكّ المباني دكّاً، وتسحقها تحت سماء خريفيّة مكفهرّة.

الفصل الرابع والعشرون

دهاليز

أجرت مادلين عدّة اتصالات قبل أن تعود إلى سالم محمرّة الوجه من فرط نشاطها، لتفضي إليه بقرارها الذي ناقشته مع مسؤولها في السفارة السويديّة.

ـ لا طيران مباشراً إلى السويد هذا اليوم، علينا أن نغادر إلى فرانكفورت أوّلاً على خطوط الـ(لوفتهانزا) الألمانيّة، ومن ثمّ نسافر بطائرة الـ(ساس) الإسكندنافيّة من هناك إلى غوتنبرغ. لملم أغراضك!

ضبّ سالم حقيبته كيفما اتفق، حملها معه وخرجا يتقدّمهما جنديّ سوفياتيّ، ويتبعهما آخر.

ساروا في دهليزٍ كئيبٍ أسلمهم إلى مكتبٍ تابعٍ لأمن المطار. عبروه دونما توقّف إلى دهليزٍ آخر أوصلهم إلى الردهة الخاصّة بخطوط طيران الـ(لوفتهانزا).

قالت مادلين للموظّفة المسؤولة باللغة الروسيّة:

ـ لدينا حجز من السفارة السويديّة على متن طائرتكم.

ـ نعرف ذلك.

ردّت مبتسمة ابتسامة الواقف على القضيّة بمجملها.

أخذ موظّف سوفياتي الحقيبة من سالم وحطّها على الحزام الناقل، ثمّ سمح لهما بالمرور إلى ردهة الانتظار، قبل العبور النهائي إلى طائرة الـ(لوفتهانزا) المتجهة إلى فرانكفورت.

□□□

مطار فرانكفورت مكتظّ، يبرق بالأنوار، تتردّد في فضائه النداءات، وتتراصف على امتداد ممرّاته وأروقته الحوانيت والمقاهي والمطاعم والمشارب، وفوق جدرانه وأعمدته تتوالى الإشارات والأرقام والحروف الدالّة على البوّابات المؤدّية إلى مجاثم الطائرات.

أفصح سالم عن رغبته في تناول البيرة والطعام وقد تبدّت علامات الإرهاق على وجهه.

ـ لنستدل على بوّابة طائرة الـ (ساس) أوّلاً.

هتفت مادلين وهرعت إلى اللوحة الإلكترونيّة الخاصّة بإقلاع الطائرات وهبوطها، ثمّ عادت أدراجها مطمئنّة إلى حسن سير الرحلة.

ـ هيّا بنا!

قالت وجدّا في السير إلى أقرب مطعم.

أوصت مادلين بحسب رغبة سالم على شرائح دجاج باردة وخبز وسلطة، وعلى زجاجتي بيرة كبيرتين.

بعد الوجبة توجّها إلى بوّابة الطائرة.

عبرا أروقة، صعدا بمصاعد، وقطعا ممرّات على أحزمة متحرّكة حتّى بلغا قاعة الانتظار.

كان هناك ركّاب سويديون، راحوا يحدّقون إلى سالم بعين الكراهيّة كعادتهم في النظر إلى المهاجرين.

بعد فترة من الملل، والصمت، والتأمّل في الفراغ، وتصفّح المجلّات والجرائد، هبّ المنتظرون واصطفّوا في الطابور تأهّباً لإتمام الإجراءات الأخيرة الخاصّة برحلة الطائرة الذاهبة إلى مدينة غوتنبرغ السويديّة.

□□□

مطار غوتنبرغ هادئ. حركة الطائرات خفيفة تقريباً.

روّادٌ قلائل في المقهى. أنفارٌ يسيرون الهوينى في الممر الرئيس. والدكاكين المفتوحة الزاخرة بالبضائع مقفرة.

الوقت ليل، ومادلين الحيويّة المتحفّزة طوال الرحلة صارت للتو متحفّظة، كأنها تخبّئ وراءها سرّاً.

لم يأبه، معتبراً أنّ وجودها في بلدها يملي عليها التصرّف كموظّفة

في السلك الدبلوماسي لا كرفيقة سفر.

هبطا إلى بهو الجمارك لاستلام الحقيبة.

دنا منهما بهدوء ثلاثة من رجال الشرطة، كانوا على الأرجح في انتظارهما، وحيّوهما. ودّعت مادلين سالماً وتوارت وراء أحد أبواب البهو الواسع.

قاده الشرطيون إلى الخارج من غير أن يتبادلوا معه كلمة واحدة.

الجو بارد، بعض الركّاب يغادر بسيّارات الأجرة، وحافلة واحدة واقفة قصدها البعض الآخر.

أصعده الشرطيّون إلى سيارتهم وانطلقوا به إلى مكانٍ يجهله.

□□□

في غرفةٍ عاريةٍ إلّا من طاولة وكرسيين قال له شرطي في الخمسين من عمره، حاسر الرأس، قصير الشعر، متين البنية ومتحفّز، إنهم سيسفّرونه إلى دمشق، ثمّ وضع أمامه مجموعة من الأوراق المطبوعة ليوقّعها. ولمّا اعترض سالم على قرار الطرد قال الشرطي برحابة صدر مفتعلة:

ـ هل تريد الاعتراض خطيّاً على قرار دائرة الهجرة؟

ـ نعم.

أعطاه ورقة بيضاء ودعاه إلى كتابة ما يشاء.

ـ ألذلك جدوى أم مجرّد روتين؟

قال سالم.

ـ الروتين مفيد أيضاً.

ـ ومتى أعرف النتيجة؟

ـ في الوقت المناسب.

ـ وأين سأكون أنا في ذلك «الوقت المناسب»؟

ـ في دمشق بالطبع، ألديك عنوان هناك؟ رقم هاتف؟

أملى عليه سالم من دفتر صغير رقم هاتف الجبهة الفلسطينيّة في دمشق من دون أن يذكرها.

وكان قد قضى في مكتبها الإعلاميّ ردحاً من الزمن قبل انتقاله إلى بيروت فموسكو. أيامها كانت علاقات الصداقة والتعاون بين فصائل المقاومة الفلسطينيّة والحزب الشيوعيّ العراقيّ على أشدّها.

تركا الغرفة. الدهاليز متشابهة في أنوارها البيض الساطعة، في هدوئها وبلاطها اللامع، وفي أصص نباتاتها التي لا توحي بنباتيّتها.

الأبواب تظلّ مغلقة كأنّها لن تُفتَح أبداً. وهينمات تسري من مكانٍ ما. وإحساس دائم يساور الموقوف بعدم معرفة الجهة التي سيُساق إليها.

الردهات خاوية إلّا من كراسي وطاولات ولوحات تجريديّة على الجدران.

أمّا الشرطة فيشبهون أمكنتهم: بلا سمات، يسربلهم الصمت، وعيونهم لا تشي إلّا بالحدّة، والسطوة، وبمحاولة الإيقاع بالآخر.

مضى الشرطي بسالم إلى استوديو المخفر للتصوير الفوتوغرافي لتصويره، بغية إصدار وثيقة سفر سويديّة له صالحة لسفرةٍ واحدة، يستخدمها في رحلته الأخيرة من غوتنبرغ إلى دمشق.

هكذا أخبره الشرطي، وأوضح له أنّ السلطات السويديّة قد اتخذت هذا الإجراء إثر رفض السوفييت استقباله بحجّة حمله، هو العراقيّ، جواز سفر يمنيّاً. وتلافيا لإشكال كهذا مع السلطات السوريّة قرّر السويديّون إصدار تلك الوثيقة.

حينما غادر سالم الاستوديو التحق بهما شرطيّان آخران.

عادوا إلى الأروقة الخالية والردهات الفارغة يقطعونها.

هبطوا بالمصعد إلى الطابق الأرضيّ، ثمّ عبروا بوّابة المبنى إلى بناية مجاورة، دخلوها وصعدوا في مصعدٍ إلى طابقٍ مكوّنٍ من دهليز مضاء بمصابيح صفر ومفروش بسجّادة حمراء، على جانبيه تصطفّ غرف مقفلة، وعلى الجدران لوحات لأشجار وزوارق وبيوت وجبال.

فتح شرطي باب إحدى الغرف ودعا سالماً إلى الدخول، حتّى إذا ولجها أغلق الباب وراءه بالمفتاح.

التفت سالم إلى الخلف لا إراديّاً ثمّ وضع حقيبته على الأرض.

هذه الغرفة تختلف عن سابقاتها، فهي مؤثّثة بسرير عريض، وخزانة، وحمّام مجهّز بالمناشف وأدوات الحلاقة وحوض واسع للاستحمام.

إزاء السرير ثلّاجة معبّأة بقناني البيرة والطعام.

ضوء النهار الرماديّ يتسرّب من نافذةٍ مشبّكة الأسلاك تشرف على مرج، وتتدلى على جانبيها ستارة خضراء سميكة.

على صفحة الباب الداخليّة لافتة فوق زرّ كهربائي تقول:

اقرع الجرس عند الضرورة!

تمدّد سالم على الفراش، حدّق إلى السقف طويلاً، ثمّ استغرق في النوم.

□□□

صباح اليوم التالي طاروا به إلى دمشق، وهناك التقى أخاه زكيّاً في مكتب الجبهة الفلسطينيّة.

الفصل الخامس والعشرون

قلب موسوس ونفس مضطربة

بعد الدمار الذي أصاب منزلهما في منطقة العشّار، استأجر مالك وزينب بيتاً آخر في محلّة نظران وانتقلا إليه.

يقع البيت الجديد في طرف بستان كثيف النخل، وعلى كثب من نهر البصرة القديمة.

له غرفتان تنفتحان على مجاز يؤدّي إلى المطبخ والحمّام، تنوّر عتمته شمس النوافذ الصباحيّة، وأمامه حديقة يطوّقها سياج من البردي الليّن، يحرسها كلب أسود شرس، ما عتم مالك أن دسّ السمّ له في قطعة لحم وقتله، بعدما هاجمهما غير مرّة.

بستان النخل أقرب إلى الجنّة منه إلى بستانٍ عاديّ: أجمة نخليّة تكتنف فيئاً منعشاً وارفاً لا يفتر، مهما كانت حدّة الشمس وحرارة الجوّ.

والهدأة التي تشمله تسري في الروح، فتسكن وتتطامن.

الأرض مقسّمة إلى مساكب مربّعة ومستطيلة، مفلوحة ومزروعة، شديدة السواد والخضرة.

الأغصان، والأوراق، والسيقان نديّة تلمع وترمح بقوّة يناعتها، متلوّنة بكلّ تدرّجات الأخضر: بقدونس، فجل، برسيم، ريحان، كرّاث، ورشاد.

في الجو روائح تشتدّ فتنعش الأحاسيس: روائح الأرض المحروثة، وعطر النباتات، وأبخرة النهر القريب.

تروي البستان سواقٍ، حفرها واعتنى بها ساهي الفلّاح بدأبٍ وصبرٍ وحب.

وكان يستخدم شادوفاً أقامه على ضفة النهر لمدّها بالماء، أمّا الطرف الآخر من البستان فتسقيه ناعورة بواسطة حصان.

درجت زينب على ابتياع خضرواتها من ساهي، منتهزةً الفرصة للتنزّه بين النخل والسواقي، والتمتّع بالفيء المنعش الذي يهبها راحةً وسكينة.

تدور الأيام بهدوء إلى حدٍّ ما في هذا الجزء من المدينة، فالقصف نادراً ما يطالها، لكن أصوات الانفجارات الصادرة عن أرباض شطّ العرب تُسمَع بوضوح فتترك في النفس انقباضاً وجزعاً.

يقضي مالك وقته في الحديقة يزرعها ويسقيها بخرطوم مطّاط يمدّه من حنفيّة الحمّام، غير أنّ زينب لا تني تصرّ على ابتياع الخضروات من ساهي متعلّلة للحفاظ على نزهتها، بطزاجتها وجودة مذاقها، فهل تتخلّى بسهولة عن نزهةٍ تشرح صدرها وتبعد عن نفسها الكرب والكآبة؟

ذات صباح لفتت انتباهها شعارات شيعيّة تمنعها الحكومة مكتوبة بالدهان على جدران ثانويّة البصرة للبنين، المقابلة لهم في الجانب الآخر من النهر:

(أدركنا يا مهدي)[١٦].

(ياحسين ياشهيد كربلاء).

(كلّ أرضٍ كربلاء وكلّ يومٍ عاشوراء).

(لبيك ياسيّد شباب الجنّة)[١٧].

ولمّا أخبرت زوجها بما شاهدته لم يأبه للأمر، معتبراً إيّاه طيشاً يمارسه بعض الشباب أحياناً. غير أنّ القصّة لم تنته عند هذا الحد، فلقد رأت مسلّحين بملابس مدنيّة يظهرون في جوار المدرسة ثمّ يتوارون، وحين أبلغت زوجها بذلك رفع يديه إلى أعلى وهتف:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم، ماذا أستطيع أن أفعل يا امرأة؟ ما لك وللناس أنتِ؟

نفرت من أسلوبه اللامبالي، ولزمت الصمت على نفسٍ مضطربةٍ وقلبٍ موسوسٍ بالهواجس.

□□□

---

(١٦) مهدي: الإمام المهدي، آخر الأئمّة الإثني عشر، المعصوم، المغيّب، والمُنْتَظَر في المعتقدات الشيعيّة.

(١٧) سيّد شباب الجنّة: الإمام الحسين في الموروث الشعبيّ الشيعي.

مساءٌ تسكن الحياة في محلّة نظران، تنقطع الحركة، يهجع الناس في بيوتهم، ويشمل الدروب والمنعطفات والأزقّة والبساتين صمتٌ ترسّخه أصوات الظلام الأبديّة: نقيق الضفادع، نباح الكلاب السائبة، صرير الجداجد، وزعقات طائر (التطوة) المشؤوم.

مساءٌ ينام من ينام، يحلم، يضاجع، أو يشاهد التلفزيون، كان ذلك قبل الحرب، بعدها دوّت أصداء الانفجارات في ردهات الليل، وغدا القلق يرفرف في عيون الناس.

اختفى شباب، ظهرت جنائز، سُمِعَ نواح، وأُقيمت مجالس العزاء في البيوت والحسينيّات[١٨] أو في الأرض الخلاء.

غير أنّ الحياة مع طول سني الحرب عادت وانتظمت في مجرى جديد، أصبح الحزن معه أسلوباً للعيش، والخوف شكلاً للبقاء.

في أعقاب إصدار الأوامر بإطفاء مصابيح الشوارع بات الليل الحالك يهيمن على المحلّة: ليل موحش يطوي بين جنباته الأسرار والأخبار والتوقّعات.

بستان النخل يضحي عالماً كاملاً من العتمة إلّا كوخ ساهي، يندّ عنه من بين خصاصه ضوء فانوس يتراءى كعينٍ سحريّة، تحرس النخل ومملكة النبات من غيلان الظلام.

تطوي عباءة الليل في ما تطوي، بيت مالك وزينب، والمنحدر الترابيّ المؤدّي إليه، والنهر.

---

(١٨) الحسينيّة: المسجد لدى الطائفة الشيعيّة.

يغدو الليل سيّداً ومالكاً لروح الأمكنه، لأشكالها وصفاتها.

الوقت شتاء، والغيوم تغلّف النجوم والقمر ودرب التبّانة بلفائف وطيّات.

فزّت زينب من رقدتها وقعدت في فراشها. أهو كابوس أم إطلاق نار ذاك الذي طرق سمعها؟

مسحت خيط لعاب انساب من زاوية فمها بكمّها، وأوشكت أن تقوم لتبلّ ريقها، لكنّ النعاس غلبها فعادت إلى ضجعتها متعلّلة بمنامٍ راودها.

سلك مالك طريقه في الظلمة، قاطعاً الطرقة بينه وبين غرفة زينب، مستعيناً بمصباح يدويّ.

دفع الباب بأناة، ونادى زوجته بصوتٍ متهدّجٍ، أرعشه الجسد المستيقظ من النوم توّاً.

فتحت زينب عينيها، تطلّعت إليه وسألته:

ـ ماذا مالِكْ؟ ما بالك؟

ـ سمعت صوت إطلاق نار في الجوار.

ـ لم يكن حلماً إذاً.

قعدت، جلس مالك في جوارها وهو في بيجامة النوم.

أطفأ مصباحه ووضعه إلى جانبه.

ـ ماذا تظنّين؟

قال بفتور كأنه غير متأكّد من أهميّة الموضوع بكامله.

ـ لا أدري، الدنيا حرب، وكلّ شيء وارد هذه الأيام.

دوّى انفجار، تعالت لعلعة بنادق أوتوماتيكيّة، وترامت في أمداء الليل صيحات وهتافات، ثمّ تفجّرت قذائف واندلعت رشقات من مدافع رشّاشة، وبات البيت وكأنه في قلب معركة.

همست زينب وأذناها متعلّقتان بالجهة التي تصدر عنها الرمايات:

ـ في مبنى الثانويّة العامّة.

ـ بين من ومن؟

ـ ومن أدراني؟ ولكن للشعارات على حيطان المدرسة الثانويّة صلة بالاشتباك على الأرجح.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ نبقى في البيت، الخروج يعني الموت المحتّم.

تصاعدت جلبة المدافع الرشّاشة وتكاثفت.

الاشتباكات تدنو من البيت دنوّاً خطيراً. توحّشت الصرخات، وصكّت الأسماع انفجارات القذائف، وانطلق صوت غاضب من سمّاعة منصوبة على الحسينيّة:

(الجهاد!.. الجهاد!)

(كد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك يايزيد، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولات مُيت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا يسقط عنك عار ما فعلت، وهل رأيك إلّا فند، وأيامك إلّا عدد، وما جمعك إلّا

بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين)[١٩].

(السلام عليك يا أبا عبدالله الحسين)[٢٠].

(سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى

إذا ما نوى حقّاً وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه

وفارق خوفاً أن يعيش ويرغما)[٢١].

(الجهاد! الجهاد!)

(من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه،

أللّهُمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه،

وانصر من نصره، واخذل من خذله،

وأدر الحقّ معه حيثما دار)[٢٢].

(الجهاد! الجهاد!)

(السلام على أبي الأحرار وسيّد الشهداء

الإمام الحسين عليه السلام).

---

(١٩) من خطبة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب في الشام، وهي أسيرة في قصر الخليفة الأمويّ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، بعد واقعة كربلاء بالعراق (بحسب الرواية الشيعيّة).

(٢٠) أبو عبدالله الحسين: الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٢١) بيتان منسوبان إلى الإمام الحسين.

(٢٢) حديث نبوي شريف.

(حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينا)[٢٣].

(من سبّ عليّاً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله أكبّه الله على منخريه في النار)[٢٤].

(الجهاد! الجهاد!)

(لبّيك يا أبا عبد الله الحسين! لبّيك! لبّيك!)

قالت زينب بصوتٍ مرتعش:

ـ هذه معركة بين المسلّحين الشيعة والجيش العراقيّ كما توقّعت، مُذْ طالعتني هاتيك الشعارات على الحيطان، أللّهُمّ رحمتك يارب!

---

(٢٣) (٢٤) حديثان نبويان شريفان.

الفصل السادس والعشرون

الليل يجري في هزيعه الأخير

هتفت زينب بزوجها بعدما غيّرت رأيها تماماً:

ـ هيّا مالِك، ارتدِ ثيابك!

فالبقاء في البيت غدا نوعاً من الانتحار المؤكّد، فلقد باتت المعركة على عتبة البيت، وستدخله حتماً عمّا قريب. غيّرا ملابسهما على عجلةٍ وبلهوجة، دسّت زينب في حقيبة مناسبة ما تيسّر من ثياب، وما بقي عندهما من مالٍ وحلي وأغلب الأدوية، وجلّ أوراقهما الرسميّة وأوراق ولديهما، وكانا يتحرّكان على ضوء مصباحيهما اليدويين.

ضوضاء المعركة تتصاعد في الخارج: إطلاق نار، انفجارات، نداءات، شتائم.

قذائف الدبّابات والمدافع ترجّ البيت رجّاً.

هزّ باب البيت الحديد خبطٌ هستيريّ. هرعت زينب إلى المدخل خائفة وصرخت:

ـ من؟

ـ افتحي الباب! افتحي!

ما من مفرٍّ إلّا الرضوخ لأمر الهاتفين، وإلّا فلن يتورّعوا عن نسف الباب، كما وشت بذلك نبرتهم المشوبة بالعنف.

ولـمّا فتحته على رغمها اندفع إلى الداخل نفرٌ من الشباب المسلّحين والملثّمين بالكوفيات، وأحدهم يحمل على كتفه مدفعاً رشّاشاً ثقيلاً.

توجّهوا إلى السطح، وما هي إلّا لحظات حتّى هدر المدفع الرشّاش بنيرانه.

أدركت زينب أنّ المنزل سيتعرّض للقصف بين لحظةٍ وأخرى، لذا حثّت زوجها على تركه بسرعة. ولـمّا صارا خارجاً بوغتا بانهمار الرصاص عليهما وتطايره من حولهما، فارتميا على الأرض وفرائصهما ترتعد.

راح عقل زينب ينبض بسؤالٍ مصيريّ: أي اتجاه يتّجهان؟ شدّت الحقيبة إليها وقالت لزوجها بنبرةٍ آمرة:

ـ إلى البستان!

لم يستجب للحظة خوفاً من الوقوف، غير أنه نهض وركض في إثرها حين رآها تعدو ناحية أجمة النخيل.

كان بعضٌ من صفوف المدرسة يحترق، ودوّامات الدخان تمور وتندفع من النوافذ، والمسلّحون الشيعة يطلقون النار بغزارة من على سطحها وسطوح مباني الشناشيل العالية، فيما تراكض من

الأزقّة والدروب مسلّحون آخرون صوب مدرسة النضال للبنين، ومبنى الميتم، ومدرسة النبراس الابتدائيّة، حيث تتقدّم قوّات الجيش بأناةٍ وثقةٍ مدمّرة كلّ ما يقف في طريقها.

بانت دبّابة تدبّ في محاذاة نهر البصرة القديمة وتطلق قذائفها باتجاه المسلّحين المتمركزين في محلّة نظران، بيد أنها لم تفعل شيئاً سوى استفزازهم، فتصدّوا لها هاتفين:

لبّيك يا أبا عبدالله الحسين، لبّيك.. لبّيك!

وما لبثوا أن فجّروها بقذائف الـ(آر بي جي) المضادة للدروع. انهالت في أعقاب ذلك قذائف المدفعيّة فشملت المنطقة كلّها.

لبدت زينب في النهر الجاف المكسو بالأعشاب البريّة وراء البيت الخلفيّ، وأوّل البستان، ولحقها زوجها.

صكّ أسماعهما انفجار مهول كأنما صدّع السماء فوقهما، السماء التي أمطرت حقّاً حجارةً وحصى وشظايا خشب وحديد وإسمنت، ذاك لـمّا تعرّض البيت للقصف وتهاوى السقف، وتعالت في الفضاء فورات الدخان والغبار.

فرّا مذعورين وتوغّلا في عمق الأراضي المزروعة، فيما القذائف تتساقط على بيتهما وتحيله أنقاضاً.

كان القصف يتركّز على المسلّحين المتمترسين في البنايات والبيوت، ولم ينل البستان إلّا النزر اليسير من قذائف طالت أطرافه، فالمقاتلون الشيعة تعدّوه ولم يستخدموه إبّان تقدّمهم وهجومهم على الجيش.

النيران المتأجّجة في المدرسة الثانويّة وفي أحراج ونخلات في محاذاة النهر رقّقت الظلمة، وجعلت الاهتداء إلى القنطرة المقامة على الترعة التي تتوسّط البستان يسيراً.

جرت زينب وزوجها خلفها إلى تلك القنطرة وعبراها مبتعدين عن منطقة الاشتباكات.

تخبّطا غير مرّة في المساحات المزروعة المرويّة وغاصا في الطين، لكنهما لم يباليا، ولم تتذكّر زينب أنها حاسرة الرأس إلا اللحظة، فلقد هربت من دون أن تضع عباءتها عليها، وكانت على الرغم من اضطرابها تفكر في اتخاذ طريق (الحساويّة ـ صبخة العرب) للوصول إلى منطقة (الجمهوريّة) حيث يقيم أقرباؤها، وسيبقيان عندهم حتّى انتهاء المعركة وتبيان الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

غير أنّ الأزمة كما يبدو قد شارفت نهايتها، فدبّابات الجيش وقوّاته مضت تقضي على جيوب المقاومة الشيعيّة جيباً تلو جيب.

أقبل ناحيتهما هاربون يتشبّثون ببقجٍ وسلالٍ وحقائب، ووجوههم تنطق بآي الفزع والاضطراب.

عرفت زينب من بينهم الفلّاح ساهي وعائلته، فسلّمت عليهم وهدّأت من روعهم، وصراخ الأطفال يصطخب بين آنٍ وآخر، فيسكته زجر الأمّهات.

ولم تكد تمضي ساعة من الزمن حتّى هرع إليهم نفرٌ من المقاتلين، وأشاروا عليهم بعبور النهر إلى الضفة الأخرى، إلى ما وراء المدرسة الثانويّة، ثمّ مواصلة السير حتّى محلّة (باب الزبير) التي لم تزل تحت سيطرتهم.

لم يكن عليهم إلّا قطع بضع عشرات من الأمتار ليبلغوا ذيل نهر البصرة القديمة، الذي يضيق لدى حائط مصنع بدائي للتمور.

عبروا النهر على معابر مؤقّتة من جذوع النخيل، وجازوا خلال النباتات الدغليّة، وشجيرات الدفلى والخرّوب والطرفاء المسترخية على المياه المتطامنة، المغطّات بالأشنات.

كفّت دبّابات الجيش عن القصف إثر قضائها على الجزء الأعظم من معاقل الشيعة، إلّا أنها لم تتقدّم أكثر، حذراً من الألغام التي خلّفها المسلّحون وراءهم خلال انسحابهم.

الجنود يطوفون في الأزقّة والحارات، يتوغّلون في الدروب، يعتقلون الجرحى، ويأسرون المشتبه فيهم، وكان الليل يدور في هزيعه الأخير.

الفصل السابع والعشرون

زينب تتردّد في تسلّق الشاحنة

كان الطريق المؤدّي إلى صحراء (الشعيبة ـ الدريهميّة) يكتظّ بسيّارات الهاربين: مدنيين ومسلّحين.

البرد ينحسر مع شروق الشمس والنهار يتألّق مضيئاً.

السماء تصفو فتبين على صفحتها طائرات هليكوبتر تحلّق، تجوز أرجاءها وتطلق صواريخها على بقايا المقاتلين المصرّين على عدم الاستسلام.

مواقع الجيش محترقة، حواجزه مخرّبة، ودباباته مدمّرة، أمّا الانسحاب العشوائي للمقاتلين الشيعة فيشير إلى تقدّم سريع للجيش، راح يتواصل من شمال البصرة دافعاً فلولهم إلى الصحراء باتجاه الحدود العراقيّة ـــ السعوديّة، وكان كما يبدو يفتح ممرّاً لهم ليفرّوا عبره إلى خارج المدينة، وإلى ما وراء الحدود الدوليّة العراقيّة ـــ السعوديّة المشتركة.

ذلك أنّ عمليّة إبادتهم بالكامل تقتضي وقتاً أكثر مما هو محسوب، وخسائر فادحة لا يمكن بأي حال من الأحوال تفاديها.

توقّفت شاحنة تقلّ رهطاً من المسلّحين للجمهرة المنسحبة من بستان ساهي، فتسلّقتها.

تردّدت زينب في الصعود، لأنها تحبّذ التوجّه إلى منطقة الجمهوريّة بدلاً من الالتحاق بقوافل الهاربين على الطريق العام، إلّا أنّ صراخ المسلّحين المحذّر من وصول الجيش في أية لحظة، وتأكيدهم بأنّ الجنود قتلوا كلّ من وقع بين أيديهم، سواء كان طفلاً أو امرأة، شيخاً أو مريضاً معوقاً، دفعها إلى ارتقاء الشاحنة مع زوجها الذي بدا اللحظة واهناً ضعيفاً وهو يقول بصوتٍ منهكٍ:

ـ هيّا زينب! حشرٌ مع الناس عيد.

وكان منظره المتهالك قد قطع باستحالة المشي أكثر مما ينبغي، فكيف وهو على هذه الحال سيبلغان منطقة الجمهوريّة، حدّثت زينب نفسها متسائلة.

الناس يقفون في جوف الشاحنة وأمتعتهم بين أرجلهم. وجوههم ملفوفة بالكوفيّات والخرق عدا زينب وزوجها، وأيديهم تتشبّث بالحافات وببعضهم بعضاً، تخضّهم رجّات المحرّك، وتلفحهم الرياح.

أرواحهم تهفو إلى النجاة، وعيونهم ترنو إلى الحدود، ولعلّ هذا الصباح يمضي على خير كما يتمنّون.

رمى أحد المسلحين كوفيّته إلى زينب كي تغطّي شعرها واكتفى بطاقيّته، فتلقّفتها منه شاكرة، ثمّ مرّرتها لمالك كي يقي رأسه من لفح الشمس والريح.

الشاحنة تسير مسرعة وبيسر على الطريق المعبّد. والمرء لا يني يرى على جانبيه، وفي البريّة بعيداً، بين الفترة والفترة، حطام سيّارات ومركبات عسكريّة دُمّرت خلال المواجهات الأخيرة.

مع مرور الوقت اقتعد الهاربون أمتعتهم من الإعياء، بينما أخذ بعض الأطفال يبكي من الجوع، وأخلد البعض الآخر إلى النوم من التعب.

الشمس تقوى مع تقدّم النهار، وطائرات الهليكوبتر تحلّق فوقهم، تراقبهم، ثم تتوارى.

انحرفت الشاحنة عن الطريق العام وأوغلت في الصحراء، ترجّها مطبّات الأرض وتضاريسها، وخلفها تنعقد غمامة من الغبار.

البراري تتجلّى ساكنة، منبسطة، والأرض الرملية يغمرها ضوء الشمس، وآثار سيّارات سابقة تتبدّى بين أخاديدها.

مضى السائق يتبعها مستدلاً بها على المنافذ المفضية إلى الحدود.

الغبار الـمُثار ينـثال عليهم، ذرّاته تتسرّب إلى كلّ ثقبٍ وفتحةٍ في أجسامهم وملابسهم. كانوا يخفون رؤوسهم بين أذرعهم منطوين على أنفسهم.

ها هي عدّة ساعات قد انقضت على مسير الشاحنة، وهناك على مرمى البصر لاحت سيّارات أخرى من كلّ الأنواع والأحجام،

تشقّ طريقها في الاتجاه نفسه صوب الحدود الدوليّة، في فرار جماعيّ ينمّ عن هزيمةٍ أكيدة.

السماء بيضاء مشبعة بالنور.

أشعّة الشمس تذهّب البريّة، والنهار يركض نحو الظهيرة.

مالت زينب على زوجها وقالت بصوتٍ متعب:

ـ أرجو ألاّ نكون قد أخطأنا بالرحيل معهم.

ـ لا، سنصل قريباً.

ردّ مالك بصوتٍ رفيع متحشرج يستلّه سلّاً من حنجرته، ثمّ مسح اللعاب الممتزج بالغبار عن زاوية فمه بطرف الكوفيّة التي لفّ بها رأسه وأكمل:

ـ يحزنني صراخ الأطفال وبكاؤهم، لكن لم يبق شيء حتّى نصل.

وكانا قد سمعا المسلّحين يقولون لأهل الأطفال إنهم سيبلغون الحدود العراقيّة السعوديّة قريباً بمشيئة الله.

أمّا المسلّحون أنفسهم فلقد رموا بأسلحتهم في الصحراء، وتخلّصوا من كلّ ما يمكن أن يميّزهم عن غيرهم من المدنيين.

تراءت على البعد قطعات عسكريّة فصاح أحدهم:

ـ السعوديّون أمامنا.

انتهت الشاحنة إليهم ووقفت على كثبٍ منهم، فأحدقوا بها

شاهرين بنادقهم، وداعين ركّابها بواسطة السمّاعات اليدويّة إلى النزول بهدوء وتسليم أنفسهم إلى الجيش السعوديّ.

ثمّ وصلت في الأثناء شاحنات أخرى تقلّ أعداداً غير قليلة من اللاجئين، فطوّقوها هي أيضاً وحثّوا ركّابها على الانقياد لهم.

سار الجميع في طابور مغبر، متعب، عطشان، وجائع، وصراخ الأطفال وبكاؤهم، وإلحاح النساء في طلب الماء والغذاء، يوتّر الجنود السعوديين ويحثّهم على الإسراع في سوقهم إلى مخيّمٍ تابعٍ للأمم المتحدة.

والمخيّم من اسمه، ليس غير تجمّعٍ للخيم في الصحراء تتوسّطه لافتة معدنيّة مثبّتة على أوتاد حديديّةٍ، سُجّل عليها باللغتين العربيّة والإنكليزيّة (مفوضيّة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. مخيّم مؤقّت). وثمة على مقربةٍ من المخيّم مركبات عسكريّة مدجّجة بالمدافع الرشّاشة، للحراسة والمراقبة والحماية.

وزّعوهم على الخيم المجهّزة بأفرشة وأغطية وملاءات، ثمّ فرّقوا عليهم قناني الماء والمعلّبات والخبز والحليب، وكان نصيب زينب وزوجها خيمة صغيرة قبعا فيها مستسلمين لقدرهما، وأخذا يتناولان ما حصلا عليه من طعامٍ وشراب من أولئك الشقر، ذوي العيون الزرق، الغامضة والجادّة.

مساءً استغرق الكلّ في سباتٍ عميق، ما خلا زينب التي أزاحت الأغطية عنها ومضت خارجاً لتلقي نظرةً على الجوار وتستكشف الأجواء، فرأت جنديّاً سعوديّاً يتفرّس فيها ويشير إليها بيده آمراً إيّاها بالعودة إلى خيمتها، إلّا أنّها تجاهلته ولبثت تتسكّع بين الخيم.

شاهدت أبراجاً للإضاءة والحراسة تنتصب في الصحراء والليل، وخزانات مياه كانت قد قطرتها سيّارات الجيش السعوديّ وتركتها مكانها قرب المخيّم، وآليات حربيّة، ومساكن متنقّلة مضاءة، هي ولا شك تخصّ موظّفي الأمم المتحدة وبعض الضبّاط والمسؤولين السعوديين. في الهواء برودة لافتة. السماء فاحمة السواد، نقيّة، تنتشر في صفحتها نجوم ساحرة، تتراءى قريبة من الأرض، تنبض بضوءٍ فضّي، تجلّت لزينب وكأنّها تغمزها وتعالنها بأسرار الليل.

القمر بدر يغشي الصحراء بغلالةٍ فضيّة فيزيدها غموضاً، حتّى خُيّل إليها أنّ كائنات ليليّة غير بشريّة تنبثق من نهاياتها المجهولة وتقبل عليها.

راعها المنظر واعتملت في صدرها المخاوف، اضطرب خاطرها وندهها بغتةً سؤال معذّب: هل كان عليهما حقّاً أن يصيرا لاجئين؟

عصرت الكآبة قلبها وعادت أدراجها إلى خيمتها، فوجدت مالكاً مستيقظاً، يرمقها بقلق:

ـ ما بالك زينب متأرّقة؟

ـ لا شيء.

ـ نستطيع العودة إذا شئنا.

ـ ألا نتعرّض للتحقيق على يد رجال الأمن العراقيّ؟ لقد أصبحنا جزءاً من وضعٍ سياسيّ من غير أن نقصد ذلك.

ـ أجّلي التفكير إلى غدٍ، حاولي أن تنامي، وتصبحين على خير!

ـ وأنت من أهل الخير.

□□□

صباح اليوم التالي وفدت عليهم ثلّة من الرجال الشقر مع مترجميهم. سجّلوا أسماءهم وحكاياتهم، وأخذوا منهم ما توفّر عندهم من وثائق ومستندات، تثبت شخصيّاتهم وأصولهم. صوّروها ووثّقوها في ملفّات، ثمّ رقّموها ونقلوها بواسطة السعاة إلى مكتب الأمم المتحدة في العاصمة السعوديّة.

الفصل الثامن والعشرون

العودة إلى الديار

توسّع نطاق المخيّم وما عاد في طوق أحد مغادرته إلّا بتصريح من الإدارة السعوديّة، وأقام المسؤولون عنه في الوسط مطبخاً، يقدّم ثلاث وجبات يوميّاً، تُعَدّ في قدورٍ عملاقة.

كلّ شيء مؤقّت، وكلّ شيء يشي بأنّ أمد المؤقّت سيطول.

عُقِدَت صداقات، وانفجرت مشاجرات، وشاعت قصص حب، والكلّ ينظر بعين الرجاء إلى الساعة التي ستأتي فيها وفود غربيّة لتنقلهم إلى أوروبا، فتريحهم من عناء الانتظار، وضيق الخيم، والحركة المحدودة، والإذلال اليوميّ على يد الحرّاس.

خفّ تدفّق اللاجئين تدريجيّاً حتّى انقطع، بعدما سيطر الجيش العراقيّ على الحدود تماماً.

أُحيط المخيّم بالأسلاك الشائكة، وشُدِّدت الحراسات لمنع أيّ تسلل محتمل إلى المدن السعوديّة، إثر اكتشاف عدّة محاولات

قام بها البعض فأقلقت وزارة الداخلية السعوديّة.

غدا الوضع يقارب الاحتجاز المؤقّت.

لم تكن هناك أية علاقة ولا حتّى حوار عادي بين اللاجئين والجنود السعوديين. صار المخيّم مع الأيام أشبه بالقرية الصغيرة المطوّقة برجالٍ قساةٍ صامتين.

بَنَت زينب علاقات صداقة مع عددٍ من النسوة، ومضت تزورهنّ للدردشة وتبادل الآراء، وتذاكر أخبار المعارف والأصدقاء في العراق.

فيما جعل مالك يصرف جلّ وقته في الاستماع إلى مذياع ترانسيستور، ابتاعه من أحد اللاجئين.

في ذلك الصباح دلفت سيّارة الوفد النرويجيّ إلى المخيّم مبشّرة بالأمل ونور الخلاص.

نزل منها موظّفون شقر يحملون ملفّات، وولجوا مكتب مدير المخيّم.

وبعد فترة راح أحد الجنود يطوف في الخيم ويتلو أسماء من حالفهم الحظ بالرحيل إلى النرويج.

وكان أغلبهم شيوخاً ونساءً وأطفالاً أخذوا يقصدون المكتب ليعطوا موافقتهم على الرحيل، ولم يكن من بينهم مالك وزينب.

ولـمّا انتهى الناس من التوقيع على استمارات السفر، ركب الموظّفون سيارتهم ورحلوا في الصحراء عائدين من حيث أتوا.

□□□

ولم يمضِ يومان على ذلك حتّى قام السعوديّون بترحيل المقبولين من قبل البعثة النرويجيّة إلى العاصمة أوسلو، على نفقة مفوّضيّة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

□□□

قرّر مالك بعدما نفد صبره العودة إلى العراق، وقد وافقته زينب على قراره بحماسة لافتة، وأعدّا العدّة للرجوع إلى الديار.

الفصل التاسع والعشرون

الليل يتنفّس كمخلوقٍ خرافيّ

في مكانٍ ما بالصحراء، في تلك العزلة التامّة التي تشيع في النفس الضيق والتوجّس، توقّفت الشاحنة العسكريّة السعوديّة. همد محرّكها وتبدّد ضجيجها، فساد سكون أضفى عليه حفيف الريح وحشةً وإبهاماً.

هبط من الشاحنة ثلاثة أشخاص: هم زينب ومالك وجنديّ سعوديّ مكفهرّ الوجه، ساعدهما في إنزال حقيبتين وبقجة، ثمّ ما لبث أن أشار إلى نقطة ما عند الأفق وقال:

ـ هنالك العراق، اذهبا الآن!

عاد وارتقى الشاحنة التي سرعان ما اختفت في الغبار ووهج الشمس وسراب الصحراء.

ودّ مالك لو أوصلهما إلى أقرب نقطة حدوديّة عراقيّة، إلّا أنّ صرامة الجندي وتجهّمه ونبرته القاطعة جعلته يتردّد في سؤاله. وقد هجست زينب ما يدور في ذهن زوجها، لكنّ كبرياءها أبت

عليها أن تتوسّل العسكريّ من أجل بضعة أمتار، في إمكانهما قطعها مشياً قبل أن تشتدّ حرارة الشمس ويسخن الرمل.

حملت حقيبة وبقجة وحمل زوجها الحقيبة الأخرى، وتوجّها إلى حيث أشار الجندي في خطوات غير واثقة لعدم وجود جهات وشواخص ونقاط علّام.

غير أنّ اعتدال حرارة الشمس ساعدهما على مواصلة المشي، فيما راح مالك يعبّر عمّا في خلده من قلق واضطراب بصوتٍ عالٍ:

ـ أما كان في مقدور ذلك الجحش إيصالنا بدلاً من رمينا في الصحراء إمعاناً في تعذيبنا وإرهاقنا؟

رنت زينب إلى الأفق مستغرقة في خواطرها ثمّ قالت كأنّها تداري زوجها في مدّ الحديث:

ـ قد يخاف الاقتراب من الحدود.

ـ يخاف؟ ممّ يخاف؟

ـ أن يطلقوا النار عليه، أو أن يعتقلوه. هيّا مالك، شدّ حيلك قبل حلول الظهيرة!

كان لون الأرض ضارباً إلى البنيّ الفاتح، ورمل خفيف يكسوها. الأرض تبقى صلبة منمّشة بالحصى والحجارة من كلّ الأنواع.

يلصف بعضها بين الحين والحين فيجرح البصر. ومن شقوق هنا وهناك تنبجس نباتات كالحة الخضرة، تبدو كما لو أنّها تغدق على ذلك القفر حياة سريّة.

في الأعلى سماء زرقاء تتشبّث بأطرافها مزق غيوم بيض. إنّ الضوء النهاريّ ليجعل السماء أشدّ تألّقاً.

لاحت لهما على البعد آثار أو نقاط سود وسط المساحات الشاسعة، أهو سراب يترقرق في أفق بالكاد يُرى في دفق الضوء؟

إنّ اقترابهما منه ليوحي بما يشبه المعجزة الحيّة، الغريبة الطابع في ذلك التيه والفراغ.

بعد مسيرٍ مضنٍ تبادل فيه الزوجان بالكاد بضع كلمات، وأفكار سود تخيّم عليهما وتلفّ نفسيهما بالمخاوف والتوقّعات، توقّفا، التقطا أنفاسهما وقالت زينب لزوجها إنّ ما يتلامح أمامهما لابدّ أن يكون نقطة الحدود العراقيّة.

تمنّى مالك أن يكون ما تقوله صحيحاً، ولم يشأ تعكير صفو خاطرها بشكوكه في أنّ الأمر ليس غير سراب أو بعض صخور أو كثبان رمل.

في كلّ الأحوال ليس أمامهما من خيار إلّا الاستمرار، تحدوهما قناعة غامضة بصواب الجهة التي دلّهما عليها ذلك الجنديّ العجول.

شرعت الأرض ترتفع ببطء، وآثار خرائب تتّضح بالتدريج كلّما اقتربا منها، أسرعا الخطى نحوها، تحثّهما رغبة جامحة على الاستطلاع واستجلاء الحقيقة، حتّى إذا بلغاها وجدا حوائط مهدّمة بلا سقوف ولا نوافذ ولا أبواب، وفتحات فاغرة أفواهها تصفّر فيها الريح، وخندقاً خرباً دلّت تحصيناته على لمسةٍ عسكريّة، وبقايا ماحلة مهترئة لأكياس خيش وعلب صدئة وأشلاء أخشاب وأسلاك وعظام وقطع حبال.

كانت هذه الأطلال تتألّف من ثلاث غرف، وهي كما قدّرت زينب كانت ذات يوم مخفرَ شرطةٍ حدودياً، أو موقعاً عسكرياً متقدّماً.

قعد مالك على كتلةٍ من الردم عابساً، يتأمّل الأنقاض من حوله، وقد استولت عليه أفكار قاتمة، فقال لزينب مستفهماً:

ـ أيكون الجندي قد خدعنا؟ بذلك يكون قد أجهز علينا.

انتبهت زينب من غفلتها، وهي تجيل بصرها في الخربة، وجلست إلى جانب زوجها:

ـ ولماذا يخدعنا؟ إمّا أن نكون قد تهنا، أو أنّنا لم نقطع المسافة اللازمة لبلوغ الحدود العراقيّة.

مسح مالك وجهه بيده كأنه يريد أن يمحو الوساوس التي تملّكته وقال:

ـ بعد قليل ستحلّ الظهيرة، ولن يكون في استطاعتنا اجتياز الصحراء تحت لهيبها.

ـ سنبقى حتّى العصر، ثمّ نواصل السير.

فردّ مالك متسائلاً في خضمّ التهاويل التي تعصف بقلبه:

ـ وإذا دهمنا الليل ونحن في العراء؟

ـ سأستطلع المنطقة. ابق مكانك!

ـ لا تبتعدي كثيراً!

ـ سألقي نظرة على الجوار فحسب. عندنا غذاء وماء كافيان، تناول ما شئت حتّى عودتي.

توغّلت زينب في البراري المترامية الأطراف. طافت في الجهات وتفحّصتها أملاً في العثور على ما يشير إلى وجودٍ بشريّ، ولكن لم يحالفها الحظ إلّا بصخورٍ ناتئةٍ تشخص على مسافات متباعدة كأنّها بشر، كما رأت في تجوالها عظام حيوان ضخم.

كانت طوال الوقت موزّعة المشاعر بين الأمل والخلاص وبين اليأس والفشل، غير أنّ حماستها لم تفارقها، تلك الحماسة التي تهدّئ من روعها، وتجعلها تغضي عن تردّدها.

الطيور المتفرّقة، القليلة المحلّقة في أجواز السماء تنبئ بقرب المناطق المأهولة، إذا صحّت معارفها الضئيلة في علوم الطبيعة. ولكنْ كم هي مسافة هذا القرب؟ أيستطيعان اجتيازها؟ من المستحيل، بل من المضحك أن يقارن الإنسان سرعته بسرعة الطيور.

عادت أدراجها إلى زوجها، ورأسها يضجّ بالأسئلة والتقديرات.

ألفته قاعداً في الظلّ يأكل من شيء ما، وقد نزع حذاءه وجوربيه. رفع رأسه إليها، فقرأ في وجهها علامات الفتور:

ـ لا بأس زينب، سنبقى اليوم هنا، ونتابع رحلتنا غداً.

كان الإرهاق قد هدّ حيلها، فتهالكت جالسة حذاءه. عيناها زائغتان، وفمها جاف. أعطاها مطرة الماء، فشربت منها. مدّ يده إليها ببعض الخبز والطماطم فاعتذرت، فالوساوس التي دبّت في صدرها أفقدتها شهيّتها.

قالت وهي تخلع حذاءها:

ـ سنقضي الليل في هذه الخربة.

ثمّ استدركت وهي تتنهّد:

ـ وهل نحن في مأمن؟

ـ لا شيء هنا إلّا الفراغ والريح.

ـ والحيوانات المتوحّشة؟

ـ لا حيوانات كاسرة في هذا الخلاء، غير الطيور الجارحة التي تقتات على اليرابيع والجرذان والحيّات.

ـ سيقتلنا البرد في الليل.

ـ نشعل ناراً ونصطلي بها.

ـ علينا بالعمل منذ الآن!

ـ ليكن.

هبّا معاً وراحا يجمعان في حماسة كلّ ما يقع تحت أيديهما من بقايا ألواح خشب وحبال وأكياس خيش وعيدان قصب وأشلاء صناديق وحتّى العظام، وكدّسا الحطب في كومةٍ على مقربةٍ من زاويةٍ بين حائطين لا ثغر فيهما، اختارتها زينب مهجعاً لهما.

ـ القدّاحة معك؟

سألها مالك.

ـ وضعتها مع الأغراض.

دفعها القلق إلى نبش الحقيبة للتأكّد، فأخرجت من بين الملابس صرّة تضمّ كيسي ملح وبهار والقدّاحة. كانت تُعنى بتقديمها مع علبة دخان لضيوفها المدخّنين في المخيّم السعوديّ متى زاروها. دسّتها في جيبها ثمّ انشغلت بتهيئة مطرحٍ لهما.

نظّفت الأرض من شظايا الخشب والحصى، وهيّأت موضعاً ملائماً لاستخدامه كمصطلى، وجعلت تلقي فيه قسماً من الحطب.

استخرجت بمساعدة زوجها لوحاً من الصفيح المموّج من تحت

الأكياس الرمليّة المنهارة في خندق الحماية. وضعاه فوق زاوية الحائطين الواطئين وثبّتاه قدر المستطاع بالحجارة، فشكّل مصدّاً بدائياً لأشعّة الشمس التي أخذت تشتدّ مؤذنة باقتراب الظهيرة.

لم يرغبا في استخدام الخندق خوفاً من الأفاعي والعقارب، كما أن شكله أوحى لهما بالقبر.

كان الهواء يترقرق في حرارة الظهيرة، والصحراء تتوهّج كنسيجٍ ذهبيّ تحت أشعّة الشمس، فتولّد عند الأفق شواش سراب.

فرشت زينب منديلها، ومالك كوفيّته، واستقرّا في مجلسيهما بعد طول تململ وحركة، وأفكارهما تطوف حول كيفيّة قضائهما الليل، وما يخبّئه الغد من مفاجآت.

فتحت زينب علبة لحم. قسّمت محتواها على نصفي رغيف، وأخذا يأكلان ويبلّان ريقيهما من آنٍ لآخر بقليلٍ من ماء المطرة، حرصاً على عدم نفاده.

كانت التصوّرات التي تساورهما فادحة، ذاك أنّهما لا يجدان أجوبة على أسئلة تثقل تفكيرهما، ما يجعلهما واجمين، ساهمين. إلّا أنّ مالكاً لا يصبر على القلق طويلاً ولا يطيقه، على خلاف زوجته الكتوم التي تفكّر في حلّ المشاكل في الوقت المناسب، وإلاّ فإن الإنسان، حسب رأيها، لن يفعل أكثر من أن يؤذي نفسه.

قال لها مالك في نبرةٍ أقرب إلى الغمغمة:

ـ هل سيحقّق معنا رجال الأمن؟

ـ ليكن.

ـ سيعذّبوننا.

ـ سنقول لهم ضعنا، جئنا وحدنا هرباً من القصف الإيرانيّ.

ـ جئنا إلى الصحراء؟ هنا؟

ـ نعم، إلى أقاربنا البدو.

ـ وإذا أرادوا التحقّق من القصّة؟

ـ لن يفعلوا، ليسوا متفرّغين لعجوزين ضائعين في الصحراء.

ـ والجزء المتعلّق بهربنا مع المتمرّدين؟

ـ لا نأتي على ذكره والسلام، ثمّ لماذا تشغل بالك الآن؟ علينا أن نجتاز هذه الصحراء أوّلاً. لن نبقى على قيد الحياة غداً إذا لم نبلغ الحدود العراقيّة.

ـ يا له من حظ! الكلّ سافر إلى أوروبا إلّا نحن.

ـ أنا والحقّ لا رغبة لي في مغادرة البصرة منذ البداية.

ـ وهل لنا خيار في ذلك؟

ـ كان يجب أن نذهب إلى بيت أهلي في محلّة الجمهوريّة.

ـ ما كان الوضع المضطرب آنذاك ليسمح بذلك.

تولّاها حزن وأسف على تهاونها، وهي لطالما عنّفت نفسها على ما ينتابها من ضعف واستعجال وقراءة خاطئة للظروف المحيطة بها. وهي تذكر أنّ مالكاً لم يكن قادراً على المشي أكثر. أما كان في وسعهما أخذ قسطٍ من الراحة بدلاً من الانجراف مع جموع الهاربين والمسلّحين، أم أنّ الفزع استولى عليها، فلم ترَ بدّاً من المضي قدماً في طريق الفرار؟

نفثت حسرة حرّى من صدرها وقالت بعد لأي:

ـ عسى أن نخلص غداً ونرتاح، اللهمّ رحمتك يا رب!

أخذ النهار يميل إلى العصر. خفتت حدّة الشمس، وصار الهواء أكثر ليونة. تبدّت الأرض كأنّها تتنفّس بعد جهدٍ وكدٍّ، واكتسبت الصحراء ألواناً وتغيّرات متعدّدة من ظلالٍ وضوءٍ وحركةٍ وسكون، تبثّ في النفس خفّة ورقّة، وتراودها بالأمل.

السماء تتخفّف من سطوعها. والبراري مسجاة حتّى الأقاصي في عزلةٍ لا نهاية لها.

عاودت زينب جولانها وطوافها ونفسها تحدّثها بالرحيل لدى الفجر، وحتّى ما قبل الفجر بقليل، كما أنّ لديها هاجساً بوجود معمورة ما في الجوار. أليست التوقّعات التي تساور الإنسان تقارب التنبّؤ الغريزيّ لدى الحيوانات؟ ثمّ إنّ البلد في حالة حرب، فلا بدّ أن تعثر عليهما ثلّة من الجند جوّالة، أو طائرة استطلاع، أو فصيل هجّانة، أو إحدى سيّارات شرطة الحدود، فالصحراء لا تبقى محكومة بعزلتها في أجواء الحرب.

هكذا راحت تداري خواطرها مقتربة في ظنونها من أفضل التوقّعات المعقولة لتجاوز محنتهما.

غطّت وجهها بكفّها، ولبثت تنصت إلى أعماقها، وظلّها يتطاول أمامها. بدت كأنّها تبكي. كان التعب يهدّ حيلها وأفكارها تنهكها. قفلت راجعة إلى زوجها، فوجدته قاعداً يستمع إلى مذياعه الـ(ترانسيستور) الذي جلبه معه من المعسكر السعوديّ.

أكلا بعضاً من الشيكولاتة والخبز، وشربا شيئاً من الماء.

ـ غريب هذا الهدوء؟

قالت زينب متسائلة.

ـ وما الغرابة في ذلك؟ الصحراء ساكنة بطبيعتها.

ـ أقصد أن لا حركة في جوّ الحرب المشتعلة في الجبهة الشرقيّة؟

ـ الحدود مع السعوديّة تبقى هادئة عموماً.

ـ غير أنّ حركة الجيوش تتفلّت من إطارها غالباً إلى أبعد من حدود المدن، ونشاط حرّاس الحدود يتضاعف حذراً من التسلّل.

ـ لا بدّ أن نصادف أحداً أو يصادفنا.

ضوء النهار يخبو شيئاً فشيئاً، الشمس تغرب، تتوارى وراء أفق تخضّب بالأرجوان وخيوط الذهب. الغيوم النحيلة المتفرّقة تتضرّج بحمرة ناريّة، والسماء تكتسب لوناً شديد الزرقة، ما لبث أن عتم.

مال الهواء إلى البرودة، وتألّقت نجمة بعد حينٍ قصير.

هبط الليل فدمج السماء والأرض والأحجار والكثبان في لجّة الظلام. كان المشهد رائعاً ومروّعاً، ممتلئاً بالأسرار والألغاز والمجاهيل: مشهد الصحراء المتلفّعة بالعتمة.

النجوم الفضيّة اللامعة تنتشر على وجه السماء. بعضها يلوح قريباً من الأرض وبعضها الآخر يغمز.

كواكب تتحرّك، وشهب تهوي وتختفي في الظلام.

الليل كون هائل يتنفّس كمخلوقٍ خرافيّ.

أشعلا النار فكان ضياؤها فاتناً في حلكة الليل، مشعّاً في بُهْم

الظلمات، وطقطقة اشتعال الحطب وتصاعد الشرر، يضفيان لمسة أليفة على تلك الوحشة الهائلة التي تكتنف قتام القفار.

أغفى مالك متكوّراً على نفسه على الأرض كطفلٍ رضيع، وبقيت زينب تداري النار، فيما برد الليل يشتدّ.

الدفء يسري فيهما، والنوم يغلب زينب وهي مستندة إلى الحائط، في جوار زوجها، ويجرفها إلى تهاويل عالمٍ آخر ناءٍ.

ها هي شوارع عريضة، مستقيمة، مسفلتة: شوارع العالم، تشقّ صحراء رماديّة، وهاهما ابناها سالم وزكي يسيران متجهين نحوها، ينظران إليها، ويقولان بصوتٍ خافتٍ، لا ينفكّ يكبر ويتضخّم ويستحيل صدى: ماما!

وهناك على تلّةٍ يقف زوجها، يشير ويصيح محذّراً الولدين من أمرٍ خطير، غير مفهوم، وهي كالعمياء تركض في متاهة الليل، تريد الوصول إليهما. النار تشتعل فيها، فتضيء الظلمات.

فتحت عينيها من شدّة وقع المنام عليها. قامت وجعلت تغذّي النار حتى تأجّج لهيبها.

ظلّت تتأمّل ألسنة اللهب والظلمة مطبقة على الكون من حولها، أوحشتها اللحظة فشعرت بوحدةٍ شديدة، وتسلّل إلى أعماقها خوف، وانتابها إحساس بالقهر، لأنّها لا تستحقّ كلّ تلك القسوة التي تواجهها بها الأقدار.

ترامت إليها جلبة طائرة هليكوبتر تحلّق فوقهما. كانت الطائرة كتلة غامضة معتمة.

غادرت مهجعها مسرعة، ولوّحت لها بخشبة مشتعلة، إلّا أنّ

الطائرة غارت في الأعالي، واختفت في طيّات الظلام.

عادت فرقدت مستسلمة لسلطان النوم، وساقها منامها إلى الشوارع مرّة اخرى. كان ابناها يمضيان، يمسكان بيدي طفلة تتوسّطهما. طفلة تلبس ثياباً تشبه تلك التي كانت ترتديها وهي صغيرة. ركضت وراءهم، اقتربت منهم، تنبّهوا لها فاستداروا، فإذا بها هي الطفلة نفسها بين يدي ولديها، وهناك على رابيةٍ كان اللهب يصّاعد مضيئاً سماء سوداء.

ومضت الساعات تسبح في عمق الزمان خفيفة، دافئة، وقاتمة.

دوّت إطلاقات نار، وهزّ انفجار الرصاص سكون الظلمات والصحراء. فزّت زينب هلعة. أفاق مالك فزعاً. وجدا نفسيهما مطوّقين بثلاثة جنود يشرعون أسلحتهم باتجاههما.

غادرا مهجعهما رافعين أيديهما، ومشيا صوبهم وهما يصيحان:

ـ نحن عراقيّان.

ـ نحن بأمركم.

تقدّم منهما جندي، أوثق أيديهما وقادهما إلى عربة عسكريّة متوقّفة على مقربة من الخربة، فيما لملم الآخر أغراضهما.

أضاء شريطا ضوء ساطعان قلب العتمة. سارت العربة مخترقة كتل الظلام، وتوغّلت في أخاديد الصحراء، مخلّفة وراءها ناراً تهسهس في العراء والعزلة.

الفصل الثلاثون

الحامية الحدوديّة

تلبّثت العربة العسكريّة لدى نقطة حرس باب النظام. أطلّ منها السائق وقال للحارس الذي اقترب منه:

ـ عندنا معتقلان مدنيّان يخصّان ضابط التوجيه السياسيّ.

فردّ الحارس ملولاً وغير مكترث:

ـ وماذا أفعل لهما؟

عبس السائق وقال مستاءً:

ـ أنا أبلّغ فقط.

ثمّ انطلق في طريقٍ معبّدٍ تحفّه أشجار الأثل، مخترقاً العتمة بكشّافين ضوئيين أنارا مساراً يعرفه جيّداً.

قبل أن يقلق الحامية الحدوديّة ضوء العربة، كان جوّ من الهدوء يخيّم عليها. الغرف والقاعات المبنيّة من الآجر الإسمنتيّ غارقة

في الظلام، تجثم في عزلةٍ موحشةٍ، إلا أنّ المرء يرى حين يدنو من أبوابها الموارية ذبالات نور تلقيه على الحيطان فوانيس نفطيّة أو غازيّة. فإطفاء الأنوار الكهربائيّة إجراء صارم في زمن الحرب؛ كما أنّك لا تلبث أنّ تحسّ بحارسٍ يلطو في ثنايا العتمة، أو بآخر ينبعث منها، يخطو وئيداً إزاء الأبواب. تشعر بعالمٍ وراء الظلام، يمكث معتصماً بالحذر والقوّة والرقابة.

في مستطيلٍ واحدٍ مسوّرٍ، تشقّه مسالك عريضة، تسمح بمرور السيّارات، تتجمّع الأبنية بمعظمها: قاعة لنوم الجنود، ومأوى للضبّاط، ومكتب آمر الحامية، وآخر لدائرة التوجيه السياسي، ومشجب السلاح، ومركز القلم، والسجن، والمخزن، والمطبخ، ونقاط الحراسة، ودورات المياه، فضلاً عن ساحة للتعداد والاستعراض، وأخرى لوقوف المركبات.

ولا شيء في الجوار غير الصحراء نفسها تتمطّى في كلّ الجهات، وكأنّ الحامية سرّتها الإسمنتيّة المنذورة للرياح والرمال.

طوال الفترة التي انقضت في الطريق إلى الحامية، كان مالك وزينب قابعين موثوقي الأيدي في الجزء الخلفيّ من العربة المغطّاة بغطاء من القنّب القوي، الخاكي اللون، إلّا أنهما لم يكونا يائسين، فالخلاص من التيه غمر قلبيهما بالراحة، لكن مسحة من القلق والترقّب مابرحت تساورهما.

على جهتي العربة المتقابلتين يربض جنديّان، احتضن كلّ منهما بندقيّة آليّة بين رجليه.

وهناك في الوسط أُلقيت الأغراض بإهمال، والكلّ يلتحف بالعتمة.

وجّهت زينب سؤالاً إلى الجنديين، وقد أدركت أنّ مالكاً لن يتحمّل المكوث على هذا النحو طويلاً تحت وطأة المطبّات والرجّات:

ـ إلى أين تأخذوننا إخوان؟

فردّ أحدهما:

ـ إلى الحامية.

ـ وهل هي بعيدة؟

ـ لا، قريبة سنصل عمّا قليل.

ـ وتلك الخربة التي كنّا فيها، ما هي؟

ـ مخفر حدوديّ عراقيّ، مهجور.

ـ يعني أننا كنّا في الأراضي العراقيّة؟

ـ نعم.

ـ ولماذا تعتقلوننا إذاً؟

ـ على هذا الخط يمرّ المهرّبون والمطلوبون للعدالة والمتمرّدون وقطّاع الطرق.

ـ وهل تظنوننا كذلك؟

ـ ضابط التوجيه السياسي في الحامية سيتولّى أمر معرفة ذلك.

عاد الصمت وسقط عليهم، إلّا من أزيز العربة التي أوغلت في بحرٍ من الظلمات.

أطرق مالك وزينب منتظرين على مضض نهاية الرحلة، التي انتهت فعلاً بعد فترة وجيزة.

بعد مغادرتهما باب النظام طافت العربة في الحامية على هدى ضوءيها الساطعين، وتوقّفت قرب قاعة طويلة، يمتدّ أمامها حوض فيه شجيرات.

أطفأ السائق الضوء. أطلّ من نافذة العربة وهتف:

ـ أيها الحارس!

أقبل عليه ببطءٍ حارس مسلّح، كان واقفاً لدى الطرف الآخر من القاعة ممحوّاً بالعتمة، حتّى إذا اقترب منه استقصى قائلاً:

ـ ما وراءك؟

ردّ السائق وهو يومئ بعينيه إلى الجزء الخلفي من الشاحنة:

ـ لديّ معتقلان مدنيّان، سيقضيان الليل في قاعة النوم عندكم حتّى الصباح.

ـ ليست القاعة سجناً، ولا أنا حارس سجن.

ـ انظر أخي، هما امرأة ورجل متقدّمان في السن، أتجد من اللائق رميهما في السجن العسكريّ مع بقيّة السجناء؟

ـ حسنٌ، تُحْتَجَز المرأة في قاعة النوم. ألقِ بالرجل في السجن!

فقال السائق ليتخلّص من المهمّة برمّتها:

ـ خذهما معاً مرّة واحدة على مسؤوليتي حتّى الصباح، لم يبق سوى ساعات قليلة.

ـ وصباحاً؟

ـ يُسلَّمان إلى ضابط التوجيه السياسي فيقرّر مصيرهما.

ـ هاتهما!

نزل مالك وزينب مع الأغراض بعد فكّ قيودهما، وابتعدت العربة متوارية في الظلام.

أضاء الحارس مصباحاً يدويّاً، أنار الطريق لهما واقتادهما إلى القاعة.

أشعل فانوساً وحطّه على الأرض، فرُئيت على لمسات ضوئه الضئيل مضاجع الجنود، والحيطان العارية والأرض الإسمنتيّة.

ـ في ميسوركما إشغال هذين المكانين. تصبحان على خير.

قال الحارس مشيراً إلى سريرين حديديين، فانبرت زينب متسائلة:

ـ وأين الحمّامات؟

ـ وراء القاعة صهريج ماء وأرض خلاء، تستطيعان أخذ راحتكما فيها، أمّا الحمّامات فبعيدة نسبيّاً، ولن تقدرا على بلوغها في الظلام إلّا برفقة دليل.

ثمّ خرج ووقف أمام باب القاعة وجعل يدخّن، وكانا يسمعان سعاله بين آنٍ وآخر وهما يتحدّثان همساً، ويتحرّكان بحذرٍ خوف إحداث ضجّة تقلق النائمين.

كان في جهتي القاعة نحو عشرين سريراً حديديّاً، يشغل عدداً منها جنود، بعضهم يشخر والآخر يتقلّب ويتململ. الهواء يفوح برائحة عفنة هي مزيج من روائح البطّانيات، والجوارب، والأحذية، والبطون، والأجساد.

لا شبابيك ولا خزانات ولا صور على الجدران. وفي محاذاة الأسرّة أغراض النائمين مكدّسة بلا اهتمام على الأرض.

على السريرين المقترحين لهما اسفنجتان عاريتان، وعدد من البطّانيات السود. لا شراشف ولا مخدّات.

تمنّى مالك لزوجته بصوتٍ ضعيف شرخه التعب ليلة سعيدة، وأخلد إلى النوم.

بقيت زينب فترة مستيقظة، جالسة على حافة السرير مطرقة، وهي على الرغم من التعب والقلق تشعر بالراحة، لخلاصها من شرك الصحراء الذي أوشكت فيه أن تيأس من بقائهما على قيد الحياة، غير أنّها ما زالت متوجّسة مما سيحصل لهما غداً صباحاً، وقد يأخذ التحقيق معهما منحى خطيراً، يتعرّضان خلاله للتعذيب، ولكن ما جدوى التفكير في موضوعٍ لا تقوى على دفعه أو تأجيله؟ وما عساها تفعل أكثر من اللوذ بالنوم استعداداً لمواجهة ما يخبّئه الغد من مفاجآت؟ استلقت على السرير. أغمضت عينيها، غير أنّ النوم لم يجد سبيلاً إلى جفنيها إلّا بعد طول جهد.

□□□

على جلبة المركبات العسكريّة، ونداءات الضبّاط والجنود، أفاقت زينب، فيما ظلّ مالك مستغرقاً في نومه. فتحت عينيها وقد استغربت للحظة وجودها في المطرح الذي تراه بوضوح الآن.

استجمعت أفكارها، فخامرتها سعادة مشوبة بالقلق.

بهرت الشمس المتوهّجة في الباب عينيها، وتحرّجت من الخروج إلى العراء وسط كلّ ذلك الجمع من العساكر.

انتظرت حتّى دخل أحد الجنود فسألته عمّن يقوم بخفارة القاعة، فأجابها بأنّه هو الخفير.

أيقظت زوجها وخرجا إلى دورة المياه.

الشمس في الخارج ساطعة. المباني منخفضة ورماديّة. أشجار الأثل المزروعة على جانبي الممرّات، تخفّف من وطأة المشهد المجدب والكالح.

الجنود ينظرون إليهما ويشيحون بأبصارهم، فلقد تعوّدوا رؤية بعض المدنيين من بدوٍ ومعتقلين أحياناً. داخل زينب وزوجها خجل، وسارا بخطوات مسرعة، متحرّجة، وهما يغضّان الطرف عمّن حولهما من جندٍ وضبّاط.

مضوا إلى ما وراء المباني حتّى انتهوا إلى خلاء واسع مسوّر بالأسلاك الشائكة، تشخص فيه قمرات إسمنتيّة واطئة، وصهريج ماء، هي ولا شك دورات مياه الحامية.

بعد فراغهما من الاغتسال والاستنجاء عاد ثلاثتهم إلى القاعة. كان الجندي الذي رافقهما شاباً صغير السن، لطيفاً، يتودّد إليهما، ويبذل جهده في مساعدتهما. فالاعتناء بكبار السن فرض اجتماعيّ عاطفيّ له جذور دينيّة وعشائريّة ضاربة في القدم.

أتاهما بقدحي شاي، ووعاء حليب، وكتل من الخبز العسكري، وجفنة فيها شوربة عدس ساخنة.

قبل الظهيرة بقليل ناداهما جندي من الشرطة العسكريّة، يعتمر طاقيّة حمراء، واقتادهما إلى دائرة التوجيه السياسيّ.

إلى جانب بابها المغلق، وإزاء جدار كُتِبَ عليه بالدهان الأبيض (كلّ شيء من أجل المعركة) توقّفوا. نقر حارسهما الباب نقرة خفيفة، فانفتح وأطلّ منه جندي مراسل أنيق، يتميّز عن باقي الجنود بطول شعره، وبعلامات البحبوحة على وجهه، ودعاهم إلى الدخول.

والمكان لا يعدو أن يكون غرفةً كبيرة، يتصدّرها مكتبٌ ضخمٌ، تعلوه صورة ملوّنة لرئيس الجمهوريّة.

على الجانبين أرائك، وفوق الطاولة منفضة زجاجيّة، وتقويم، وتماثيل صغيرة، وحامل أقلام.

والضابط رجل في الثلاثين (مقدّم يزيّن كلاًّ من كتفيه نسرٌ أصفر)، غليظ الشاربين، لا توحي ملامحه بالقسوة، وإنّما بالترف والراحة، وبشيء واضحٍ من الترفّع والضجر. تفحّصهما وقال بصوتٍ شابه الاحتقار:

ـ ماذا كنتما تفعلان في الحدود؟

انبرت زينب قائلة، آخذة على عاتقها زمام الحديث وحدها، حذراً مما قد يعتور التحقيق من إرباك إذا ما تدخّل زوجها.

ـ هربنا من القصف الإيراني فأضعنا طريقنا.

ـ ألم تكونا مع المتمرّدين؟

ـ لا.. لو كنّا معهم لذهبنا إلى السعوديّة.

ـ ولماذا لم تتوجّها منذ البداية إلى المدن العراقيّة البعيدة عن خطوط القتال؟

ـ عندنا أقارب بدو، قلنا نبقى عندهم حتّى تهدأ الأحوال ونعود إلى البصرة، فأضعنا طريقنا.

ـ هل يشهد أقاربكما إذا طلبنا إليهم ذلك؟

ـ نعم.

ـ ما رأيكما بشعارات المتمرّدين؟

ـ نحن لا نتدخّل في السياسة. أنا ربّة بيت وزوجي مسّاح أراضٍ متقاعد.

رمق الضابط مالكاً بنظرةٍ ساخرة وسأله:

ـ وأنت لماذا لا تتكلّم؟ هاه؟

ثم استرسل ضاحكاً:

ـ أم أنّ زوجتك تقودك؟

ابتسم مالك بذلّ لانفراج الحديث وتخفّفه نوعاً ما من التوتّر، وقال بصوتٍ رعّشه الاضطراب:

ـ قلت لنفسي فليتحدّث أحدنا من باب اللياقة والاحترام، فكان أن سبقتني زوجتي.

فردّد الضابط متهكّماً:

ـ من باب اللياقة والاحترام.

ثمّ قال مستفسراً:

ـ أوراقكما معكما؟

ـ نعم معنا.

قالت زينب وقد مدّت يدها إلى جيبها وأشهرت هويتها وهوية زوجها.

خاطب الضابط حارسهما الجندي الانضباط بنبرة الأمر القاطع:

ـ خذهما إلى قلم الوحدة! وسجّل بهما محضراً خاصّاً بالتواجد في المكان الخطأ! ثمّ أرسلهما مع سيّارة التموين إلى البصرة!

أدّى الجندي التحيّة وهو يصيح ضارباً قدمه اليمنى في الأرض بقوّة:

ـ حاضر سيدي!

قلم الوحدة: غرفة صغيرة تسع بالكاد لطاولتين، يشغلهما جنديان حاسران لم يرفعا رأسيهما عن أوراق ينظران فيها، حينما دخل مالك وزينب بصحبة حارسهما الذي ألقى التحيّة. ردّ أحدهما، وهو جندي بدين، أبيض البشرة، فقال الحارس له:

ـ سجّل عندك أخي محضر التواجد في المكان الخطأ بحقّ هذين المدنيين!

وأرفق قوله بإشارة من يده اليمنى إليهما.

حدجهما الكاتب بنظرة لامبالية، وطلب الأوراق الثبوتيّة. أعطته زينب هويتي الأحوال المدنيّة الخاصّتين بها وبزوجها، فمضى يسجّل المعلومات الواردة فيهما بآليّة سريعة، وحاذقة، ثمّ طلب إليهما أن يوقّعا على المحضر:

ـ وما معنى محضر التواجد في المكان الخطأ؟

سأل مالك وقد أخذه الفضول فحسب، وإلاّ فإنه أضحى شبه متيقّن بأنّهما سيصبحان طليقين بعد انتهاء كلّ هذه الشكليّات الإداريّة، فعنوان المحضر يدلّ على معناه.

ـ يعني أنّ تواجدكما في الحدود العراقيّة السعوديّة كان عارضاً وغير مقصود، نتيجة الغفلة أو الضياع.

عاود مالك الاستفهام لتأكيد كلّ ما يراود نفسه من توقّع:

ـ ألا يترتّب علينا شيء حيال ذلك؟

ـ لا أظن، لا شيء، ماذا قال الضابط لكما؟

ـ لم يقل شيئاً بخصوص أيّة تبعات تترتّب على وجودنا خطأً في الحدود.

ـ وهو أيضاً ما يعنيه التقرير الخاصّ بهذا النوع من القضايا. مجرّد روتين.

ـ أما كان في المستطاع تلافيه مثلاً؟

ـ طبعاً، الأفضل والأجدى إرسالكما إلى البصرة بدلاً من احتجازكما في الحامية. كلّ هذا لا معنى له، ولا جدوى منه.

ـ طلب الضابط إيصالنا إلى البصرة بواسطة سيّارة التموين.

ـ وهو كذلك، مع السلامة.

أعاد إليهما بطاقتيهما، وتوجّه بهما الحارس إلى المطبخ حيث تربض شاحنة التموين.

الفصل الواحد والثلاثون

خاتمــة

في طابورٍ طويلٍ تحت الشمس، اصطفّ الجنود المكلّفون بإحضار طعام الغداء أمام المطبخ، حاملين قصعهم المعدنيّة، وكان الطبّاخ يغرف الحساء واللحم بمغرفة كبيرة من قدرٍ ضخمة، مرتكزة على حجارة الموقد، ومثله يفعل مساعده متولّياً شأن الرز في قدر أخرى.

المطبخ بلا باب، تتكدّس في أطرافه عدول الحبوب والدقيق والسكّر والبصل اليابس وصفائح الدهن وصناديق الشاي والمعلّبات وقدور ومغارف وسكاكين بأحجامٍ وأشكالٍ مختلفة.

المكان شبه معتم، مسودّ الحيطان، وأرضه رمليّة، وفي زاوية منه يقوم موقدٌ خاصّ لصنع الشاي، ولدى فتحة المدخل وُضِعَت أكياس خيش معبّأة بالخبز العسكريّ، يأخذ الجنود منها ما يشاؤون.

على مقربةٍ من المطبخ تربّع سائق الشاحنة ومالك وزينب على

الأرض، وهم يتناولون غداءهم من قصعةٍ واحدة.

كان السائق داكن البشرة، نحيلاً، مفلفل الشعر، وفي مقتبل العمر كباقي أقرانه الجنود. وقد قال لرفيقي رحلته إنّه سيوصلهما إلى قضاء الزبير، حيث الوحدة التموينيّة المرتبط بها، وحين أفهماه أنّ مقصدهما البصرة لا الزبير، قال ألّا أوامر لديه بالتحرّك أبعد من ذلك.

في كلّ مرّة، في مثل هذا الوقت، كان يغادر فارغاً ليعود في فجر اليوم التالي موسقاً بكلّ الاحتياجات التي تقرّرها آمريّة الحامية أسبوعيّاً.

بعد فراغهما من وجبتهما واغتسالهما في ماء صهريج المطبخ، وضع مالك وزينب أمتعتهما في حوض الشاحنة، ثمّ استقرّا إلى جانب السائق.

للشاحنة رائحة عفونة خاصّة بها، سببها بقايا المواد الغذائيّة من لحم وخضروات وفواكه وأجبان وخبز وحليب، تسرّبت وتعلّقت بالزوايا والشقوق والحزوز، وتفسّخت بمرور الزمن. كان جوف مقصورة القيادة حارّاً، إلّا أنّ انطلاقتهم حرّكت الهواء، وجعلت المكوث فيها محتملاً، على رغم شمس البراري التي تظلّ لافحة حتّى حلول العصر، وهو الوقت الذي سيقضونه على الطريق الصحراوي الذي يخترق البادية الجنوبيّة العراقيّة.

مشهد الفيافي على الجانبين لا يتغيّر كثيراً في تفاصيله، إلّا حين يبين أفراد بدو مع إبلهم، يرحلون إلى مكانٍ ما، أو يقيمون في مضاربهم.

قال السائق في نبرة اعتذار وأسف:

ـ بلدة الزبير جدّ قريبة من البصرة، والسيّارات متوفّرة، عسكريّة ومدنيّة، لابدّ من أن تتوفّقوا بواحدة منها، فتأخذكم إلى حيث تريدون، وسنصل عصراً بالتأكيد، يوجد وقت كافٍ قبل حلول الليل، أنا والحقّ عبدٌ مأمور.

قالت له زينب:

ـ لا عليك، سندبّر حالنا، شكراً لك.

ابتسم بعدما تخفّف من وطأة ضميره وسأل مالكاً:

ـ تدخّن حضرتك؟

ـ لا، شكراً.

أشعل السائق سيجارة بينما أخذت زينب تتأمّل المركبات العسكريّة العابرة والمشاهد القاحلة، وفي أعماقها تمرّ خواطر عديدة حول ما سيعترضهما من صعوبات في المدينة تحت القصف، بخاصّة وهما بلا منزل الآن، إلّا أنّها اتّخذت قرارها باللجوء إلى بيت أهلها مؤقّتاً، ريثما يتمكّنان من استئجار بيت جديد.

بعد مضي ثلاث ساعات، توقّفا خلالها مرّة واحدة للراحة وترويض الجسد وقضاء الحاجة، بدأت تظهر أولى بدايات العمران من بيوتٍ واطئة، ومزارع، وآبار، وأبراج كهرباء، ومواقع عسكريّة، ومرابض مدفعيّة، ومؤسسات حكوميّة، وبشر على اختلاف هيآتهم من جندٍ وبدوٍ وحَضَر.

توغّلوا في المناطق المأهولة شيئاً فشيئاً. المنازل والمتاجر ومنشآت الدولة تترى بألوانها المغبرة والرماديّة. الطرق الجانبيّة والأرصفة تتكاثف. جوّ مدينيّ يسود، يأخذهم إلى قلب الحركة.

أنشأت سرعة الشاحنة تبطئ وهي تدور في الشوارع الفرعيّة إلى أن توقّفت في مركز قضاء الزبير.

نزل منها مالك وزينب متعبَين، حتّى إنهما لبثا مع أغراضهما جالسين على الرصيف.

كانت الشمس قد فقدت حدّتها مع حلول العصر، خفّت حرارة الهواء، وصار لون السماء أزرق فاتراً متخفّفاً من سطوعه.

يرين على المنطقة صمت. المقاهي مغلقة، الأسواق مقفرة، لا سابلة، محطّة عربات الخيل فارغة، كذلك محطّة سيّارات زبير ـ بصرة.

على الطريق لا ترى غير سيل من العربات العسكريّة المتجهة إلى البصرة.

قالت زينب لزوجها:

ـ سنذهب إلى بيت أهلي.

ـ أعرف، أرجو أن نجدهم.

ـ لن يرحلوا، أمّي لا تستطيع المشي، وفي أسوأ الأحول عندي نسخة من مفتاح بيتهم.

شاهدا حافلة ركّاب صغيرة مقبلة باتجاههما. قامت زينب ولوّحت لها، فتلبّثت عندهما.

نقلا أغراضهما إلى المقعد الخلفيّ، وجلسا في جوار السائق، وكان بديناً، في نحو الخمسين من عمره، يرتدي دشداشة بنيّة، ويتلفّع بكوفيّة حمراء. في وجهه آثار جدري. لم تكن سحنته مريحة.

قال له مالك:

ـ البصرة رجاءً.

ـ سأنزلكما في محلّة السيمر.

تدخّلت زينب:

ـ نحن في سبيلنا إلى محلّة الجمهوريّة.

فقال الرجل مبتسماً:

ـ والله يا أختي أنا في طريقي لقضاء شغلٍ طارئ خاصٍّ بي لا أكثر، كلّ ما أقدر عليه هو إيصالكما إلى المدينة مجّاناً، والباقي عليكما.

ـ وهل خطّ سيّارات الأجرة مقطوع؟

ـ لا ركّاب، القصف شديد، وما تبقّى من الناس ترك المدينة، فالإيرانيون باتوا على مشارفها، وقد يجتاحونها بين لحظةٍ وأخرى.

خيّم الوجوم عليهما، بينما تابع السائق قائلاً:

ـ الوضع خطير جدّاً، لن تجدا أحداً، الكلّ غادر طلباً للسلامة والأمان.

فقالت زينب في شيءٍ من التصلّب:

ـ نحن لن نغادر إلى أيّ مكان.

مضت الحافلة تشقّ طريقها بصعوبة بين المركبات العسكريّة، في شارع تحفّه أشجار الصفصاف واليوكالبتوس.

الهواء يعبق بروائح الوقود المحترق، وهناك في الأعالي كانت تمرق هادرة طائرات حربيّة بين الحين والحين، فيما شرعت ساعة العصر تنحدر نحو الغروب.

٢٠٠٨/٧/٣
٢٠١١/٦/١٠

جنان جاسم حلاوي

كاتب وصحافي ولد في البصرة عام ١٩٥٦.

درس الهندسة الكهربائيّة في العراق.

يقيم في السويد منذ عام ١٩٩٢.

صدر له:

- **عرائس البحر**، قصص، وزارة الثقافة العراقيّة بغداد، ١٩٨١.
- **ياكوكتي**، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩١
- **ظلال الطيور الهاربة**، قصص، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق، ١٩٩١.
- **غادرني نيوتن والوقت غروب**، قصص، دار ميريم، بيروت، ١٩٩١.
- **رماد الماء حول الجزر**، قصص، دار ميريم، بيروت، ١٩٩١.
- **تابع الطيران وحدك**، شعر، دار نيلسن، بيروت، ١٩٩٥.

ـ **قصص الحب قصص الحرب**، قصص، دار المنفى، السويد، ١٩٩٨.

ـ **في المعرفة الشعريّة**، مقالات، دار الحركة الشعريّة، المكسيك، ١٩٩٨.

ـ **كُل يا طاووسي حتى تكبر**، قصص، دار المنفى، السويد، ١٩٩٠.

ـ **شؤون يوميّة لا تعني أحداً**، شعر، دار نيلسن، بيروت، ٢٠٠٠.

ـ **ليل البلاد**، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢ (صدرت بالفرنسيّة عام ٢٠٠٥ لدى دار أكت سود).

ـ **دروب وغبار**، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٣.

ـ **عربة للصيف امرأة للحريّة**، قصص، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، ٢٠٠٣.

ـ **أماكن حارّة**، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٦.

ـ **هذا المساء حارّ فعلاً**، شعر، دار نيلسن، بيروت، ٢٠٠٩.

ـ **هواء قليل**، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٩.

جنان جاسم حلاوي

شوارع العالم

تحكي هذه الرواية قصّة الحبّ والحريّة في منعطفات الحياة القصيرة التي نحياها على كوكبنا المفعم بالاضطراب.

سالم يبحث عن الاستقرار، وزكي عن الخلاص، وزينب ومالك عن السلام.

من يفلح منهم ومن يخفق في جروف الخطر وحافات التهديد؟

ومن يحالفه الحظ في الإفلات من قبضة عالمٍ محكومٍ بسلطاتٍ، جعلت الإنسان سجيناً لا يفكّر إلّا في الهرب من قدره؟

وما حكاية كريستينا التي تظهر أثناء ذلك؟

(شوارع العالم) رواية المصير الإنسانيّ عبر رحلةٍ تكتنفها الأسئلة والتحوّلات.

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 978-9953-21-533-4
9 789953 215334